مجلة الهند

مجلة فصلية

المجلد: 2 العدد: 1
(عدد يناير – مارس 2013م)

مدير التحرير
د. أورنك زيب الأعظمي

نائب مدير التحرير
مهدي حسن القاسمي
محمد عمران علي ملّا

تصدر عن

أكادمية كيشالايا، بنغال الغربية، الهند

مجلة الهند

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:
عنوان البريد:
أكادمية كيشالايا،
بيراتشامبا سقط بادوريا،
كاؤكيبارا،
صندوق البريد: ديفالايا،
مطقة البوليس: ديغانغا،
المحافظة: 24 برغانا الشمالية،
رقم البريد: 743424، بنغال الغربية

أو

Dr. Aurang Zeb Azmi,
Asstt. Professor,
Dept. of Arabic, Persian, Urdu & Islamic Studies,
Bhasha-Bhavana,
Visva-Bharati,
Santiniketan,
W.B. Pin: 731235
India

موقع المجلة على شبكة الإنترنت: majallatulhind.blogspot.com
عنوان البريد الإلكتروني:
aurang11zeb@yahoo.co.in (1)
azebazmi@gmail.com (2)

الاشتراك السنوي:
للأساتذة ومكتبات الكليات والجامعات 1000 روبية هندية أو ما يعادلها
للطلبة 500 روبية هندية أو ما يعادلها

نشرها وطبعها السيد مهدي حسن نائب مدير مجلة الهند، أكادمية كيشالايا، بيراتشامبا سقط بادوريا، كاؤكيبارا، صندوق البريد: ديفالايا، مطقة البوليس: ديغانغا، المحافظة: 24 برغانا الشمالية، رقم البريد: 743424، بنغال الغربية

في هذا العدد

		الصفحة
الافتتاحية	د. أورنك زيب الأعظمي	5
مقالات وبحوث:		
تفسير تدبر القرآن (5)	الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	7
منهج ابن الديْبع في كتابه "حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله المصطفين الأخيار"	د. يسري زيدان	61
حرية الفكر والرأي في الإسلام وأوضاع المجتمع الإسلامي	د. وارث المظهري	72
إسهام علماء الهند في نصح وإرشاد ملوك سلطنة دهلي، دراسة تاريخية	صاحب عالم الأعظمي	86
مساهمة فرنغي محل في تطور الدراسات العربية والإسلامية	أ. د. فيضان الله الفاروقي	121
ترجمة بويز ماثر الإنجليزية لأبيات "ألف ليلة وليلة"، دراسة نقدية	د. أورنك زيب الأعظمي	149
حياتي	العلامة أبو محفوظ الكريم معصومي تخريج: رافعة إكرام	170
المها- جمال الأدب العربي	الشيخ بدر جمال الإصلاحي	177

قراءة في كتب:

رحلة الهند — د. أورنك زيب الأعظمي — 183

أخبار وتقارير:

احتفالات اليوم العالمي للغة العربية — أ. حسين أبو بكر كويا مدوور — 215

الدورة التنشيطية الحكومية حول النقد الأدبي العربي — د. أورنك زيب الأعظمي — 218

قصص وحكايات:

سجناء في دار العجزة — جميل النظام آبادي
ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي — 231

من تكلّل بالنجاح — سائرة خوشي
ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي — 236

قصائد ومنظومات:

تاج محل — د. محمد رجب البيومي — 239

تاج محل — الشيخ محمد ناظم الندوي — 241

المساهمون في هذا العدد — 243

الافتتاحية

انتهى المجلد الأول والحمد لله على ذلك. وقد نشرنا في تلك السنة أكثر من ثلاثين مقالة بما فيها ما كتبه العرب الذين يعملون في مختلف كليات الدول العربية وجامعاتها ومعاهدها وشركاتها. نشرنا هذه المقالات لأجل أن يعرف الكتّاب الهنود كيف هم يكتبون وماذا يمتلكونه من البضاعة العلمية فيستفيدوا منهم ويرفعوا أنفسهم علماً ولغة كما يعرف العرب كيف يكتب كتّابنا الهنود وما هو مبلغ علمهم فيستفيدوا من كتاباتهم كما استفادوا من أسلافهم من قبل. لم يكن وراء نشر هذه المقالات العلمية إلا هذا الهدف السامي. والهدف الآخر الذي كان من وراء إصدار هذه المجلة العلمية البحتة هو إعادة الماضي الزاهر للمجلات العربية الصادرة عن الهند حينما كانت تنشر فيما تنشر مقالات وبحوثاً علمية عن مختلف موضوعات العلم والأدب والفن بخصوص مساهمات الهند وأبنائها فيها. وكم نجحنا في هذين الهدفين؟ الفصل عنه بأيدي القرّاء.

هذا، والعدد الذي بين أيديكم يحتوي على مختلف مقالات تحقيقية وبحوث علمية فالمقالة الأولى هي الحلقة الخامسة لترجمة تفسير تدبر القرآن. في هذه الحلقة ننشر ترجمة التفسير من الآية السادسة لسورة البقرة حتى آيتها التاسعة والثلاثين. والمقالة الثانية عن منهج ابن الديْبع في كتابه "حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله المصطفين الأخيار" للدكتور يسري زيدان من مصر. ألقى الدكتور زيدان هذه المقالة في ندوة علمية دولية عقدت في رحاب كلية شبلي النعماني الوطنية بمدينة أعظم كره (الهند)، والمقالة الثالثة عن حرية الفكر والرأي في الإسلام وأوضاع المجتمع الإسلامي. هذه مقالة جيدة قام بكتابتها الأخ الفاضل الدكتور وارث المظهري، مدير تحرير مجلة ترجمان الإسلام الجديد بدلهي. نرجو من القرّاء والباحثين أن يدلوا بآرائهم عن الموضوع فننشرها في صفحات المجلة. والمقالة الرابعة هي "إسهام علماء الهند في نصح وإرشاد ملوك سلطنة دهلي، دراسة تاريخية" للأخ الفاضل صاحب عالم الأعظمي من مصر. موضوعها واضح

مجلة الهند

من عنوانها، إنها مقالة مسهبة مقنعة بالموضوع، والمقالة الخامسة لمعلّمي البروفيسور فيضان الله الفاروقي حول موضوع "مساهمة فرنغي محل في تطور الدراسات العربية والإسلامية". وفرنغي محل معهد علمي لا يحتاج إلى أي تعريف به فإنه لعب دوراً قيادياً في نشر وتطوير الدراسات العربية والإسلامية في الهند. مقالة الأستاذ المحترم تؤدّي حق الموضوع وتسلّط أضواء فاضية على ما خلفه المعهد من خدمات جليلة في هذا المجال. والمقالة السادسة هي دراسة نقدية لترجمة بويز ماثر الإنجليزية لأبيات "ألف ليلة وليلة". ألقيت هذه المقالة في مؤتمر دولي عقد بمركز الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهر لعل نهرو بالهند. إنها تكشف عما يقوم به الأروبيّون من التحريف في ترجمة نصّ عربي ما. والمقالة السابعة هي سيرة ذاتية للعلامة أبو محفوظ الكريم معصومي. والمعصومي معروف في الدوائر العلمية العربية لتحقيقاته وبحوثه. وهذه حلقة ثانية من سلسلة ما خلفته أبناء الهند من السير الذاتية باللغة العربية. نشكر السيدة رافعة إكرام التي قدّمتها إلينا للنشر. والمقالة الثامنة لأستاذي بدر جمال الإصلاحي حول "المها- جمال الأدب العربي". والموضوع لا يحتاج إلى أي تعريف به بالنسبة للعرب إلا أن الأستاذ المحترم قد جاء بما هو يجدر بأن يستفيد به الباحثون في هذا المجال.

وقد أتبعنا هذه المقالات والبحوث بدراسة نقدية للكتب وأخبار وتقارير للندوات العلمية وترجمة قصص هندية وقصائد ومنظومات الشعراء الهنود في مختلف الموضوع. وقد نزعنا من فهرست المقالات مقالات قيّمة للغاية سننشرها في العدد القادم إن شاء الله تعالى.

د. أورنك زيب الأعظمي

تفسير
تدبر القرآن

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي

5- تفسير الآيات (6-7)

قد سبق ذكر خصائص من قد آمن بالقرآن الكريم وصاحبه عليه الصلاة والسلام، ويتبعها ذكر من قد حرم هذه الميزات فقال تعالى:

"إنّ الذين كفروا سواء عليهم ء أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم".

6- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

إن الذين كفروا سواء عليهم ء أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (6)

إنّ الذين كفروا: كفر يعني جنّ وستر، وقد استخدمت هذه الكلمة في القرآن الكريم ضداً لكلمة "الشكر" كما استخدمت ضداً لكلمة "الإيمان" ففي المرة الأولى إنها تعني "عدم الشكر على النعمة وكفرها" بينما هي تعني في المرة الثانية "الإنكار" وإن تفكّر تجد أن روح الكلمة الأصلية تكمن في كلا المعنيين.

استخدمت هذه الكلمة في القرآن مع مفعولها كما بدون مفعولها ففي الموضع الذي استخدمت مع مفعولها فقد تعيّن فيه الإنكار بذاك المفعول وكفره ولكن الموضع الذي لم يجئ مفعولها فهناك استخدمت للإنكار بكل ما يجب الإيمان به إلا أنه في مواضع تمّ استخدامها لعدم الشكر وكفران النعمة، الأمر الذي يدلّ عليه القرائن ومحلّ الاستخدام.

يتطلب المحلّ هنا أن يراد من "الذين كفروا" جماعة خاصة من جماعات المنكرين وهذا لأنه قد ذكرت صفات شتى لأولئك المنكرين مثل أن وعدهم أو عدم وعدهم سواء لهم، وأنهم لا يؤمنون، وأن الله قد ختم على قلوبهم وآذانهم، ووضع غشاوة على أعينهم. وهذا من البديهي أن كافة الكفرة لم يكونوا ساقطين في هذه الحالة فقد

كان فيهم من أنكر في البداية ولكنه آمن بعدُ فثبت من هذا أن جماعة من المنكرين قد أريدت هنا إلا أنه يثور هنا سؤال: أي جماعة أريدت هنا؟

والجماعة التي أريدت هنا عندنا هم القريش، فهم زعماء أهل الكتاب والمنافقين الذين قد تجلّى لهم حقية رسالة النبي وصدق كتابه القرآن ولكنهم بالعكس من ذلك كانوا يخالفونهما لمجرد العناد والعتوّ والأنانية والحسد والكبرياء، وفيما يلي وجوه لتخصيصهم بهذه الجماعة:

أولاً: أن قد ذكرت قبل هذا جماعة آمنت بالقرآن فقد بيّنا هنا لدى تفسير قوله تعالى "هدًى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب" أن المراد من هؤلاء كل من سلمت فطرته واتقى من بين أهل الكتاب وبني إسماعيل الذين كانت ضمائرهم حية، ومؤهلاتهم مصونة، وقلوبهم يقظة. ويقابلها هذه الآيات تذكر من لا يؤمن بهما، فتدلّ هذه المقابلة والمقارنة على أن المراد من هؤلاء رجال القريش وأهل الكتاب الذين قد أعماهم حبّهم للدنيا وحسدهم وأنانيتهم، والذين قد مسخت فطرتهم، والذين قد حرموا كافة مؤهلات قبول الحق.

وثانياً: أن خصائص تلك الجماعة التي ذكرها القرآن هنا بدون الإشارة إلى اسمها قد أعاد ذكر نفسها إما بذكر الاسم أو بالقرائن الصريحة التي تعين في تعيين تلك الجماعة فإن قمنا بتوضيح هذا الجمال في ضوء تلك الأماكن فيصل المرء بسهولة إلى النتيجة التي وصلنا إليها أي أريد بها رؤساء المشركين، واليهود، والمنافقين الذين قد تجلّى لهم أن ما يدعو إليه القرآن حقّ لا شك فيه ولكنهم بالعكس من ذاك كانوا يبذلون قصارى جهودهم في مخالفتهم إياه، وننقل فيما يلي آيات تؤيّد ما ذهبنا إليه:

"من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم. ذلك بأنهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة، وأن الله لا يهدي القوم الكافرين. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون". (سورة النحل: 106-108)

قد اتضح من هذه الآيات أن من يختار سبيل الكفر بعدما آمنوا أو اتضح لهم الحق، حباً للدنيا ينزل عليهم غضب الله، ولهم عذاب عظيم فلا يمهّد لهم الله سبيل الإيمان، ويطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم. وهذا من البديهي أن

المراد الحقيقي من هؤلاء لا يكون إلا رؤساء القريش، وعلماء اليهود، والمنافقون أو من يحذو حذوهم.

وقال في موضع آخر يذكر معارضي كافة الأنبياء ومخالفيهم:

"تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبلُ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين". (سورة الأعراف: 101)

وقال بخصوص اليهود:

"فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً". (سورة النساء: 155)

وكذا قال في المنافقين:

"ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون". (سورة المنافقون: 3)

فقد اتضح من صراحات القرآن تلك أن "الذين كفروا" في الآية تشير إلى جماعة خاصة ولكن هذه الجماعة ليست من المشركين ولا من أهل الكتاب بل هي تشمل أعضاء المشركين وأهل الكتاب الذين كانوا من السابقين في مخالفة الحق بعدما عرفوه.

والأقوال التي رويت عن السلف في تأويل هذه الآية تؤيد ما رأيناه فالمراد من هؤلاء عند ابن عباس معاندوا أهل الكتاب الذين قد كذّبوا كافة النبوءات التي كانت موجودة في صحفهم عن النبي صلّى الله عليه وسلّم وهكذا فقد نقضوا الميثاق الذي قد أخذه الله منهم عن النبي الخاتم، وكذا يرى الربيع بن أنس رؤساء مختلف الجماعات الذين كانوا هم السابقين في مخالفة الإسلام، وهذان القولان يقربان معنًى إلا أن ما قام الربيع بن أنس من التأويل هو أجمع وأشمل، وهو الذي يؤيده نظائر القرآن الكريم وعلى هذا نختاره نحن.

ء **أنذرتهم:** الإنذار يعني التخويف، والتنبيه، والإعلام النهائي. وتكون دعوة وتبليغ الأنبياء مبنية على الدلائل القوية النفسية والأفقية في جانب وفي جانب آخر تشتمل على الإنذار والتبشير، والتبشير يعني حمل البشرى عن الفوز والفلاح الذي ستمّ الحصول عليه في الدنيا والآخرة بعد الإجابة على دعوة النبي واختيار الصراط المستقيم الذي يهدي إليه، وأما الإنذار فهو التنبيه على

الأخطار والمهالك التي يعاني منها المرء بعد تكذيب دعوة النبي في هذه الدنيا وفي تلك الآخرة. والأنبياء يؤدّون كلا الواجبين عامة ولكنه حينما يتصدّى لهم المعاندون والمعتادون الذين لا يخالفون إلا على عنادهم وحسدهم فيغلب دعوة النبي جانب الإنذار، وذلك لأن الوضع يقتضي ذاك، وعلى هذا فقد عبّر عن عملية النبي بالإنذار فحسب فإن الآية تتعلق بالمخالفين والمعاندين الذين لم يخالفوا النبي على سوء فهم بل عرفوا حقيقته وحقيقة كتابه ثم خالفوه وصدّوا سبيله.

فلو كان الإنذار أو التبشير فكلا العملين كشف عن النتائج الفطرية التي تكمن في الإيمان أو الكفر فكما ينبّه الطبيب المريض خلال معالجته على فوائد الدواء والحذر وعواقب سوء الحذر والغفلة عن المرض فكذلك ينبّه النبي قومه على نتائج قبول دعوته وعواقب تكذيبه على السواء.

وجهلاً عن حقيقة الإنذار تلك يعترض بعض الناس على الدين بأن التنبيه على الأخطار الموهومة نوع من تخويف المخاطبين فلا يدعو عقولهم فهذا النوع من المعترضين يجهل عن شيئين عامة؛ أحدهما أن دعوة القرآن لا تحتوي على الإنذار والتبشير فحسب بل تطوي بين جنبيها دلائل قوية نفسية وأفقية فالإنذار أو التبشير جانب من دعوته ولا غير، وآخرهما أهمية القيم الخلقية والإيمانية فهؤلاء يعرفون أن تناول المرء السمّ يقتله ولكنهم لا يعرفون أن الكفر والنفاق والكذب تقتل الإنسان كذلك. وبما أن النبي يعرف نتائج وعواقب القيم الخلقية جيداً فهو ينبّهه عن تلك بأسلوب يوافق وعلمه ويقينه. وهذا هو الشيئ الذي عبّر عنه القرآن بـ"الإنذار".

ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (7)

ختم الله: الختم بالعربية يعني الأثر المطبوع من الشمع أو الطين أو نحوه، ومن هنا استخدمت للطبع على الرسالة أو سدّ فم الشيئ بحيث لن يدخله شيئ أو يخرج منه من بعدُ.

فإن ينسب الله بعض الأفعال إليه في بعض مواضع القرآن فلا يراد منه نسبته الأصلية إليه تعالى بل نسبة ذاك القانون أو تلك السنة التي يظهر تحتها ذاك الفعل وبما أن هذه السنة تكون مصنوعة بيد الله فربما ينسب ذاك الفعل الذي يظهر تحت تلك السنة إلى صانعها، ويوجد مثل هذا الأسلوب التعبيري في

معظم لغات العالم إلا أنه يكثر استخدامه في العربية والقرآن، وعلى هذا الأسلوب قد نسب الله ختم القلوب إليه ولكن المراد منه الإشارة إلى تلك السنة الإلهية التي وضعها لعملية الهدى أو الضلالة والتي يقع تحتها عمل الختم على القلوب. وأما عن تلك السنة الإلهية فسنوضّحها فيما هو آتٍ.

على سمعهم: ويمكن أن يثور في ذهن أحد القراء سؤال عن استخدام كلمة "السمع" مفردة بينما جاءت كلمتا "القلوب" و"الأبصار" جمعاً فقد كان تناسق الكلمات يقتضي أن تستخدم هذه الكلمة جمعاً كذلك أي "أسماع" وللإجابة على هذا السؤال أقول: إن هذا يتعلّق بأسلوب استخدامات أهل الضاد فقد استخدمت هذه الكلمة في حوالي عشرين موضعاً من القرآن وفي معظمها جاءت مع "القلوب" و"الأفئدة" و"الأبصار" ولكنها جاءت مفردة في كل هذه المواضع فلم أجد أنها استخدمت جمعاً في أي موضع منه. والواقع أن القرآن الكريم كتاب أدبي رائع بالنسبة إلى اللغة فعلينا أن نعترف بأن أهل الضاد يستخدون هذه الكلمة مثلما استخدمها القرآن ذاته.

7- حقيقة ختم القلوب وسنة الله فيه

وختم القلوب الذي ذكر هنا يجب علينا أن نعرف أمرين عنه خير معرفة:

أولهما: لم يرد بهذا الختم "الختم الظاهري" بل أريد به "الختم المعنوي"، وأما بالنسبة إلى رؤية الأشياء الظاهرية وسماعها وفهمها فقد كان هؤلاء يرونها، ويسمعونها، ويفهمونها ولكن مثل هذا النوع من الناس يحصرون كافة قواهم ومؤهلاتهم للإدراك في الظواهر المحسوسة فالحقائق التي تكمن وراء تلك الظواهر لا يلتفتون إليها أنفسهم ولا يأذنون لمن ينبّههم إلى تلك فهم يشغلون في الدنيا وزخارفها إلى حدّ لا يجدون فيهم متسعاً للالتفات إلى شيئ غير هذه فهم يبذلون قوتهم العقلية المدركة للتمتع من ذاك الشيئ الوحيد، وهذا يسفر عن أن عقولهم تسرع في إدراك طول وعرض السماء والأرض ولكنها تبطئ بل لا تتحرك بالنسبة إلى إدراك وفهم الحقائق والقيم الروحية ثم تفسد هذه الحالة ذوقهم إلى حدّ لا يحسنون إلا ما يغذّي ذوقهم الفاسد فالشيئ الذي يفلّ شوكتهم ويقلّل تشجّعهم يتوحّشون منه ولو هو ملائمٌ للغاية بالعقل. وهذه الحالة التي عبّر عنها هنا بختم القلوب.

وآخرهما: لم يرد بختم القلوب هذا أن الله قد ختم على قلوبهم وهم في رحم أمهاتهم بل هو يعني أنهم قد خاضوا في سوء الأعمال إلى حدّ بعيد فأفسدوهم لغاية أن قلوبهم قد حرمت صلاحية سماع وفهم ما كان يقول لهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

وكما يتعلّق بالله تعالى فإنه قد خلق كل إنسان بأحسن ما أودع فيه من المؤهلات فوضع فيه التمييز بين الخير والشر كما أودع فيه الذوق لحبّ الخير والتنفّر عن الشر، وبعدما زيّن الإنسان بهذه المؤهلات الفطرية جعله حرّاً في اختياره سبيل الخير أو الشر، وهذا هو الخير أو الشر المختار الذي يصلح مؤهلاته الفطرية أو يفسدها فإن يختر المرء سبيل الخير فتنمو مؤهلاته الفطرية ويمهّد له الله السبيل إلى الحصول عليها والازدهار فيها وإن اختار سبيل الشر متبعاً ما يهديه إليه هوى نفسه فيختار سبيل الشر فآنذاك يصدأ قلبه بالشر حتى يغلبه هذا اللون فلا يبقى فيه شوب من الخير، وهذه هي المنزلة التي يكون فيها قلب المرء يختم عليه فيفسد ذوقه إلى حدّ يخوض في الشر كل ثانية من حياته فلا يسمع شيئاً عن الخير ودعْه يعمل عمله.

فقد كثر في القرآن أن قلب المرء يختم عليه لأجل سيئاته وإليكم بعض آياته المباركة:

"أ ولم يهدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون". (سورة الأعراف: 100)

فقد صرّح في هذه الآية أن القلوب يختم عليها لأجل ما يعمله الناس من سوء، وقال في موضع آخر:

"ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبلُ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين. وما وجدنا لأكثرهم من عهد، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين". (سورة الأعراف: 101-102)

أي أنهم كانوا سابقين في مخالفة ميثاق الله وأحكامه من قبلُ وعلى هذا فلما جاءهم رسلهم برسالات الله وآياته لم يعبأوا بها فمن يخض إلى هذا الحدّ في تكذيب الحقّ فيختم الله على قلوبهم، الأمر الذي لا تعمل به عقولهم عملاً ما.

وقد قيل عن اليهود بأوضح مما سلف فجاء:

"فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً". (سورة النساء: 155)

فيتضح من الآيات السالفة:

أولاً: أنه لم يتم الختم على القلب في رحم الأم بل هو يأتي لأجل خوض المرء في السيئات خوضاً يشغله عن الحسنات وسماعها.

وثانياً: أن كل ذنب لا يجرّ إلى الختم على القلب بل حينما تفهم أي طائفة الحق أنه الحقّ ثم تخالف ما يشهد به قلوبهم وتختار سبيل العناد والأنانية والعتاد حتى لا تمتنع عن تلك المخالفة فآنذاك يختم على قلوبهم فتحرم صلاحية الفهم والإدراك حقاً.

وثالثاً: أن هذا الختم على القلوب وحرمانها عن قوى الفهم والإدراك نوع من عذاب الله الذي ينزل على قوم لأجل كفرانهم للنعم ، وهذا هو العذاب الذي ينتج فعلاً عن ذاك العذاب العظيم الذي سيعانون منه في الآخرة فقد جاء في الآية التي نحن بصددها: "ولهم عذاب عظيم"، والواقع أن ذاك نتيجة فطرية لختم القلوب هذا، ستظهر في الآخرة.

وما بيّناه من حقيقة الختم على القلوب يبدو جلياً من الأحاديث فننقل حديثاً واحداً حذراً عن التطويل، فقد قال النبي صلّى الله عليه وسلّم:

"إنّ المؤمن إذا ذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستعتب صقل قلبه وإن زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى "كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون" (ابن كثير بالإحالة إلى الترمذي)

وهذا ما ذهب إليه السلف من حقيقة الختم على القلوب فقد نقل ابن كثير عن أعمش أنه "قال: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يُرون أن القلب في مثل هذا، يعني الكف، فإذا أذنب العبد ذنباً ضُمّ منه، وقال بإصبعه الخنصر هكذا. فإذا أذنب ضُمّ، وقال بإصبع أخرى، فإذا أذنب ضُمّ، وقال بإصبع أخرى هكذا، حتى ضمّ أصابعه كلها، قال: ثم يطبع عليه بطابع. قال مجاهد وكانوا يُرون أن ذلك الرين".

وبعدما اتضح لنا حقيقة الختم على القلوب لم يبق لنا الحاجة إلى ما ناقشه الأشاعرة والمعتزلة من مبحث الجبر والاختيار، وقد جرّوا هذه الآية خلال النقاش بدون أن تشير هي إلى ما يرون. فلا يؤيّد القرآن الجبر الذي يدعيه الأشاعرة ولا يعضّد

الاختيار الذي يحمل لواءه المعتزلة بل الحق يكمن بين هذين ولكن هذا الموقع لا يناسب تفصيل هذه القضية فنذكر هنا مبادئ تكفي من يريد التفكير في هذه القضية بعيداً عن أي نوع من العصبية وهذه المبادئ كما يلي:

أولها: أن الله قد خلق كل إنسان حينما بدأ خلقه على فطرة سليمة فأودع فيه التمييز بين الخير والشر، وأعطاه الحرية في خياره لأيّهما شاء ثم كونه صالحاً أو فاجراً يبنى على معاملته وتوفيق الله إياه فإن حاول خيار سبيل الخير فيوفّقه الله لاختيار سبيل الخير وإن أراد أن يمشي على طريق الشر فيدعه، إن شاء، أن يمشي على طريق الشر.

وثانيها: الأشياء التي يحاسب الله الإنسانَ عليها أو يجزيه قد أعطى الإنسان حرية الاختيار والإرادة فمن لم يُعطَ هذا الخيار أو تلك الإرادة فقد برأه الله عن الحساب فهذا الخيار أو تلك الإرادة ليس مما يمتلكه الإنسان بل قد وهبه الله إياه ويستخدمه الإنسان حسب مشيئة الله فالله قادر على أن يمسك الإنسان عن أي إرادة يريد إتمامها حسب مشيئته وحكمته إلا أنه إذا أمسكه عن إتمام إرادة خير فهو لا يحرمه أجرها وهكذا حينما لم يوفّق لإتمام مشروع شرّ له فلا يلزمه أنه يبرأه عن جزائه الأخروي.

وثالثها: حيثما ذكرت مشيئة الله المطلقة في القرآن فهو يعني أنه لا يقدر أحدٌ غيره على إمساك مشيئته أو تبديلها ولكنه لا يعني أن مشيئته لا تلاحظ أي عدل أو حكمة أصلاً فالله عادل وحكيم ولا يخلو أي فعل له عن عدل أو حكمة فحيثما ذكر مشيئته لنضعها تحت قانون العدل والحكمة الذي قد أحبّ أن يدير، تحته، نظم هذه الدنيا فلن يصحّ أن نظنّ أنه يقطع سنته التي وضعها هو بنفسه تحت قدرة مشيئته مثلاً أنه قال "يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء" فهذا لا يعني أنه لم يضع سنة عادلة وحكيمة لهداية المرء أو إضلاله بل هو يعني أن المرء يُدَى أو يضلّ طبق السنة التي وضعها للهداية والضلالة ولا يقدر أحدٌ على قطعها أو تبديلها.

ورابعها: قد نسب الله بعض الأفعال إليه في القرآن ولكن المراد منه، كما أسلفنا، ليس نسبة تلك الأفعال بل نسبة السنن والقوانين التي تصدر تحتها تلك الأفعال وبما أنّ تلك السنن قد وضعها الله بنفسه فقد نسبها إليه في بعض المواضع لما أنها صدرت تحت تلك السنن فقال، مثلاً، "فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم" وقال

"ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم" وفي مثل هذه المواضع قد ذكر، في الغالب، تلك المبادئ التي صدرت تحتها تلك الأفعال فمثلاً يقال "إن الله لا يضلّ إلا الفاسقين" فتعني هذه الإشارات أن يلتفت القارئ إلى أصل الواقع ولا يخطئ فهمه من الظاهر.

وخامسها: إن علم الله الأزلي والأبدي المحيط بكل شيئ لا ينفي أي سنة من السنن التي وضعها ولا شك في أنه يعرف عن كل إنسان منذ الأزل أنه يختار سبيل الهدى أو يمشي على طريق الضلالة ولكنه كذلك يعرف أنه يختار الهدى أو الضلالة تحت سنته التي وضعها للهدى أو الضلالة.

فمن يضع أمام عينيه هذه المبادئ فيفلت بنفسه، إن شاء الله، عن التعقيدات العديدة في قضية الجبر والاختيار، التي لم يلدها القرآن بل مما ولدها تدقيقات المتكلمين.

8- الغرض الأصلي للآيتين (6-7)

لا تهدف هاتان الآيتان أصلاً إلى مجرد إخبار الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن أفراد تلك الطائفة لا يؤمنون بك إن تنذرهم أم لا بل هما (6-7) تكشفان عن حقائق مهمة للغاية نشير إلى طرف منها لكي يتضح لنا هدفهما الأصيل:

1. أولاها، وهو أوضح من كل شيئ، تسلية النبي وتهديد مخالفيه وتنبيههم فقد قيل للنبي أن لا يحزن على أنّ في دعوتك وإنذارك عيباً أو قصراً، حينما تراهم عاكفين على كفرهم، أو الكلام الذي تقرأه عليهم غير مؤثر فقد بذلت كل جهدك في دعوتهم وإنذارهم كما أن هذا الكلام مؤثر للغاية فالفساد كله في قلوبهم. إن هؤلاء قد أشرفوا على عذاب الله لاستمرارهم في تكذيب الحق والحقائق، وهذا هو الأوان الذي سلب قلوبهم التأثر وآذانهم سماع الحق وأبصارهم الاعتبار فلتيأس عن إصلاحهم وفلاحهم فلم يبق لهم شيئ سوى عذاب الله الذي يعانيّ منه.
2. وثانيتها أن مدخل المرء الوحيد للإيمان والهدى هو قلبه وعقله وأذنه وبصره ولا غير فإن يفتح المرء هذه كلها ويبصر كل ما يشهد في الآفاق والأنفس ويستمع إلى كلام الله وأقوال دعاة الحق ويتفكّر في كل منها ويستمسك بما وصل إليه من الحقائق مخلصاً فآنذاك ينال الهدى فإن لم يمش على هذا

السبيل ولم يستخدم ما وهبه الله من الجدارات فلن ينال الهدى ولو رقى إلى السماء بسلّم.

3. وثالثتها أن تقدّم المرء العقلي والروحي وكماله في الأشياء يبنى على أن يستخدم المرء ما وهبه الله من كبير جدارات السمع والبصر والفؤاد للبلوغ إلى الهدف الحقيقي فإن لم يستخدمها المرء أو يستخدمها ولكن لم يستخدمها لنيل ذاك الهدف السامي الذي وهبت هي لنيله فيجعلها الله وبالاً عليه وكونها وبالاً، إن لم يستخدمها، أن يعجز المرء في مجال التفكير والعمل ولو هو يمتلك كل شيئ، وإن أساء استخدامها فهو يضلّ في كل وادٍ ويخبط خبط عشواء في كل مجال حتى يجول ويحلّق في تلك الخلاء التي لا نهاية لها، ولكنه لا يبلغ ذاك الباب الذي هو الباب الأصلي للنجاة والفلاح.

9- تفسير الآيات (8-16)

وفيما يأتي ذكر طائفة من الطوائف التي لا تؤمن، تختلف خصائصها الذهنية عما للطائفة المذكورة أعلاه اختلافاً يسيراً وعلى هذا فهي تحرى أن تستقل بذكرها. قال الله تعالى:

"ومن الناس من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون. وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أ نؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون. الله يستهزئ بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين".

10- تحقيق الكلمات

ومن الناس من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون (9)

من الناس: ولو أن كلمة "الناس" عامة ولكن القرينة تدلّ على أن المراد بهذه الكلمة العامة "طائفة خاصة" وهي طائفة اليهود، وهذا لأن اليهود كانوا هم الذين يمكن أن تبرز فيهم جماعة تتصف بما أشار إليه القرآن وسنوضّح هذا الإجمال تحت عنوان مستقل.

يخادعون الله: المخادعة هي محاولة الخدع ناجحة كانت أم غير ناجحة. وقد استعملت هنا كلمة "الخدع" كما استخدمت كلمة "المخادعة". أما بالنسبة لله تعالى فقد استخدمت كلمة "المخادعة" لأن أحداً يحاول خدع الله لمجرد بلاهته وذلك لأنه لا يقدر على خدعه تعالى وبالعكس من ذلك فقد استعملت كلمة "الخدع" لأنفسهم لأن من يحاول خدع الله فهو ولولا ينجح في خدع الله ولكنه يخدع نفسه.

وما يشعرون: الشعور يستخدم لإدراك شيئ محسوس وقد استعملت هذه الكلمة هنا للإشارة إلى الواقع أن محاولة خدع الله هي خدع ذاته وهو شيئ محسوس ولكن هؤلاء الحمقاء قد سقطوا في زعمهم أنهم ماكرون وفطنون إلى حدّ أصبحوا أغبياء في الشعور بهذا الواقع وذلك أنه نتيجة هذا الخدع لما تبرز لهم.

في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون (10)

في قلوبهم مرض: استعملت كلمة "المرض" في القرآن لمعنيين عامة أولهما حسد وآخرهما نفاق فالمواضع التي استخدمت فيها مع النفاق هي صريحة في معنى الحسد ولكن المواضع التي جاءت وحيدة بدون النفاق إما هي تجمع بين المعنيين أو أن تعني أحدهما الذي تدلّ عليه القرينة. وهنا تدلّ القرينة على أنها جاءت هنا للحسد لأن الجماعة التي سيأتي ذكرها هي من اليهود وأما اليهود فهم كانوا مشتهرين في حسد الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومن كان قد آمن به وقد ذكر القرآن جانبهم هذا في غير موضع منه.

فزادهم الله مرضاً: وهنا قد نسب الله فعل زيادة الحسد إليه وهذا لأجل السنة التي قد تمّ تحتها هذا الفعل وهذا من سنة الله أنه لو أراد أحدٌ أن يجعل صدره مكاناً للحسد بدل الإيمان والإسلام فتوفق له ظروف ووقائع تنمي هذا الذوق فيه وقد كان اليهود يحسدون المسلمين على أن الله أنعم عليهم الإسلام وتطور الإسلام وزيادة بركاته قد أسفرت عن زيادة أسباب حسدهم حتى دمّرهم تماماً.

وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون (12)

لا تفسدوا في الأرض: "إفساد في الأرض" مصطلح قرآني يعني تدمير نظام الحق أو محاولة تدميره الذي يبنى على عبادة الله الواحد وطاعة أحكامه وقوانينه والذي يبعث بالدعوة إليه كافة الأنبياء، والقرآن يدّعي أنه كما يقوم نظام هذا الكون التكويني لأنه يجري تحت إرادة ربّ واحد قدير وقهّار وإن كان أحد

غيره يقدر على الازعاج فيه فيمكن أن يدمّر هذا النظام في ثانية وكذلك لو جوّزنا عبادة أحد غيره في نظامه التشريعي أو شركه فيه فيتخلّل مزاجه تماماً وهذا الخلل يخلّ بنظام المدنية كله، وعلى هذا فكل محاولة تفتح باب هذا الدمار تعتبر فساداً في الأرض لدى القرآن ولو أنها تبدو محاولة إصلاح وتصليح.

وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أ نؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (13)

كما آمن السفهاء: وهنا أريد بالناس "المسلمون" الذين آمنوا بالنبي صلّى الله عليه وسلّم.

وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون (14)

وإذا خلوا إلى شياطينهم: صلة "إلى" بعد "خلوا" تتطلب حذف فعل يناسب هذه الصلة وقد حاولنا رعايته في الترجمة.

الشيطان مبالغة من شاط يشيط على وزن فعلان. إنها تعني عجولاً وسيئ الخلق وعصبيّ المزاج وشريراً ومعتدياً ويتصف بهذه الخصائص الجن كما لا يخلو عنها الإنس، وهنا استخدمت هذه الكلمة لزعماء اليهود الذين كانوا يشرفون على عملية الفساد في الأرض كلها.

الله يستهزئ بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون (15)

الله يستهزئ بهم ويمدّهم في طغيانهم: المدّ يعني التمهيل وإرخاء العنان لأحد، أي هم يتقدمون في طغيانهم والله يمهّلهم لكي يتمّ حجته عليهم وهذا لكيلا يبقى لهم أي معذرة حينما يقبض عليهم.

فالهزء الذي ذكره الله بالنسبة لهم يوضّحه كلمة "يمدّهم في طغيانهم" فإنهم كانوا فرحين بأنهم نجحوا في تحميق المسلمين وخدع الله والحال أن من يخدع الدال على الصراط المستقيم ويمشي على طريق ضال لا يسيئ ذاك الدال على الخير بل هو يضلّ ذاته وهذا من خداع ذاته وحماقته أن يزعم أحدٌ أنه يخدع الناصح الأمين والواقع أنه خادع نفسه.

أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (16)

اشتروا الضلالة: الاشتراء يعني شراء شيئ فالشيئ الذي يشتريه المرء بدل قيمة يرجحه على القيمة التي أدّاها إليه ومن هنا تدرّجت هذه الكمة إلى معنى الترجيح وقد استعملت هذه الكلمة لهذا المعنى في غير موضع من القرآن.

11- إلى من تشير هذه الآيات؟

ذكرت طائفتان فيما سلف، إحداهما طائفة المؤمنين وأخراهما طائفة من لا يؤمن، ثم ذكرت طائفة أخرى ولو أنها تنتمي إلى طائفة من لا يؤمن ولكنها تختلف عنها على خصائص تختص بها، والسؤال ينشأ هنا عمن تتكون بهم هذه الطائفة؟ وقد ذهب عامة المفسرين إلى أنها طائفة المنافقين ولكن يثور هنا شك في أن الطائفة التي تشتهر باسم المنافقين، كانت تحاول أن تنضمّ إلى المسلمين في أول وهلة والعداوة التي كانت تطويها بين جنبيها، كانت مختفية وما كانت تظهر إلا بمناسبات خاصة ولكن خصائص هذه الطائفة التي ذكرها القرآن يبدو منها أن أفراد هذه الطائفة لم يكونوا مع المسلمين سراً كما لم يرضوا عن أن يعلنوا عن انتمائهم إليهم فمثلاً أنهم كانوا يدعون الإيمان بالله والآخرة ولكنهم لم يكونوا راضين عن الإعلان عن إيمانهم بالنبي صلّى الله عليه وسلّم والكتاب المنزل عليه وزدْ على هذا اعتبارهم أنفسهم متفوقين على المسلمين ولذلك فلما طلب منهم الإيمان مثل إيمان المسلمين إن ادّعوه فكانوا يجهرون باعتبارهم المسلمين حمقاء وعلى هذا فلا يصحّ عندنا أن نضمّهم إلى طائفة المنافقين ولكنه إذا لم ينتموا إليهم فمن هؤلاء وإلى أيّ طائفة ينتمون؟

وللرد على هذا السؤال نقول إن هذه كانت طائفة من طوائف اليهود ولكن معاملتها في مخالفة الإسلام كانت مختلفة عن معاملة الطائفة التي مضى ذكرها آنفاً. فالطائفة التي مضى ذكرها آنفاً لم ترض عن الاستماع إلى أي قول نبوي أو فهمه بل قد صمّت آذانها وعميت عيونها في تشميرها عن ذيلها وراء مخالفة النبي صلّى الله عليه وسلّم إلا أن هذه الطائفة كانت تحبّ أن تخالف الإسلام بأسلوب ملؤه المصلحة والمصالحة.

وخلفية هذه الطائفة الذهنية التي تبرز بعد إمعان النظر في الآيات المذكورة أعلاه هي أن هذه الطائفة لم تتخلف عن الطائفة السالفة بالنسبة لعاطفة العداوة للإسلام فالشعور بالاستعلاء الذي كان متواجداً في اليهود مقابل غيرهم، كان يوجد فيهم بصورة تامة كما أن الحسد الذي كان يطويه اليهود على بني إسماعيل لأجل النبوءة ببعثة نبي خاتم فيهم، قد كان متواجداً في هذه الطائفة بل قد ازداد حسدهم لأجل بروز هذه النبوءة فعلاً ورقيّ الإسلام المتزايد وقبول النبي الزاهر فيما بين العرب. إن هؤلاء كانوا يشاطرون قومهم في هذه الأمور كلها ولكنهم لم يعتبروا عملية الإنكار والعناد التي تبنّاهما طائفة اليهود تلك، صحيحة لمنع سيل

الإسلام المتزايد بل كانوا يودّون صلحاً ما بين اليهودية والإسلام فكانوا يحبّون أن يعمل الإسلام عمله كما لم يحرموا المنزلة الدينية التي هم يتمتعون بها، فالصورة التي كانوا يشكّلونها في أذهانهم يبدو بدراسة هذه الآيات أي ودّوا أن يعتبرهم المسلمون مؤمنين، مثلهم، بالله الواحد القهار، وأما بالنسبة إلى الإيمان بالله والآخرة فهم ادّعوا أنهم يؤمنون بهما فهم كانوا يرون أن المسلمين أحرار في إيمانهم بنزول القرآن من الله ولكنهم لم يسمحوا في إجبارهم على الإيمان به فإن حصروا نجاة الآخرين في الإيمان به واعتبروا من لم يؤمن به مكذّبين بالله ورسوله فآنذاك يثور نزاع وتنفّر بين الأديان وأتباعها ومن ثم يقضى على المصانعة الدينية التي بقيت حية حتى الآن، وعلى زعمهم هذا قد ظنوا أنفسهم من المصلحين فظنوا أنهم لو لم يؤمنوا بمحمد وكتابه المنزل عليه فهذه ليست محاولة للإفساد في الأرض بل هي نفس المحاولة للإصلاح فيما بين أتباع الأديان المختلفة وذلك لأننا نقدر، هكذا، على التفرق الذي يكاد يبدو من هذه النبوة الجديدة والدعوة البديعة.

12- تأمل في مجموعة الآيات (8-16)

بعدما عرفت صورة هذه الطائفة جيداً وفهمت خلفيتها الذهنية بالتوضيح أعد النظر في هذه الآيات وتأمّلها فستفهم جيداً محاسن كل كلمة منها وبلاغات كل جملة ودقائقها كما سيتضح لك ماذا كان يقول هذه الأعداء الماكرة للإسلام وماذا كانوا يودّون ثم كيف كشف القرآن عن كل مكنون لهم وردّ على كل اعتراض منهم.

وقبل كل شيئ خذ دعواهم لإيمانهم بالله وإيمانهم بالآخرة فلم يريدوا من دعواهم هذه إلا إلفاتهم من بطشة القرآن فهم كانوا يريدون أنما يشتدّ ويتنوع من نقد القرآن عليهم خاطئ تماماً ولا يسوغ بالنسبة لنا فنحن نؤمن بالله واليوم الآخر فطاعة الله الواحد ليست فقط مما يختص بالمسلمين فكانوا يريدون من هذا أن يمتنع المسلمون عن لؤمهم إيّاهم والحال أنه لم يختف عليهم أن الإيمان والإسلام الذين يتطلبهما القرآن منهم يختلف عما يدعونه تماماً فالإيمان والإسلام اللذان كان القرآن يتطلبهما منهم لن يمكن أن يتمّا إلا أن يؤمنوا بالنبي صلّى الله عليه وسلّم وبالقرآن إيماناً يشبه إيمان المسلمين بهما، وبما أن هؤلاء كانوا يعرفون هذا جيداً فيبدّلون الأمر ويهدّدون فقد عبّر القرآن عن عملهم هذا بالمخادعة بجانب توضيحه أن مخادعتهم هذه ليست مع المسلمين فحسب بل مع الله كذلك.

وذلك فإن من يفهم مراد الله ثم يعرض عنه فهو يريد خداع الله ولو هو يفهم فعله الشنيع هذا أم لا.

كما أوضح أنهم يحاولون أن يخادعوا الله والمسلمين كذلك ولكنهم في الواقع لا يخدعون إلا أنفسهم وذلك أن من ينأى بجانبه ماكراً عن مشورة ناصح له أمين فهو لا يضرّ بهذا الناصح بل يسقط نفسه في التهلكة، وهبْ أن طبيباً حاذقاً ناصحاً يكتب وصفة لمريض فالمريض لا يعمل طبق تلك النسخة بل يريد أن يوقن عن طريق الحيل الكاذبة أنه يعمل على وصفة أجود منها وأنه أقوى صحة من كافة الرجال الأقوياء، فيمكن أن يسكت الطبيب على كلامه البليغ الكاذب ولكن من يعاني من نتيجة هذا الخدع والمكر، الطبيب أو المريض؟ والبديهي أن المريض يعاني منها. وهذا من سوء عقله وفهمه أنه لا يكاد يشعر بهذا الواقع.

ثم أوضح القرآن أن معاملة الكذب والمكر التي اتخذوها بدلاً من قبول الواقع بكل جرأة وشجاعة ليست إلا لأجل حسدهم الكامن في صدورهم ضد بني إسماعيل. وقد بعث الله نبيه الخاتم في بني إسماعيل وأنزل عليه كتابه العزيز ثم جعلت تنتشر دعوته وبدأت تلمع ملامح أن قيادة هداية العالم تتسلّل من أيدي بني إسرائيل إلى أيدي بني إسماعيل فآنذاك جعل هؤلاء يغلون حسداً وغضباً بما أنعم الله عليهم هذه النعمة الدينية التي كانوا يستحقونها، وكل ما ازداد بنو إسماعيل نعمة عليهم ازدادوا حسداً عليهم.

فإن كانت فيهم جرأة خلقية لقبول الحق فكانوا يؤيدون ذاك الحق وشاطروا تلك النعمة الربانية ولكنهم لا كانوا راضين عن تنزلهم عن كبرياء القيادة الدينية الموروثة ولا كانوا راضين، لأجل حسدهم، عن أن يؤمنوا بالنبي الذي ولد فيما بين بني إسماعيل ولا اجترأوا على أن يواجهوا الإسلام فيمنعوه عن انتشاره في العالم فلما لم يتشجعوا على شيئ مما ذكر آنفاً فلجأوا إلى سبيل وحيد وهو المكر والكذب ففعلوا كما أشرنا إليه ولكن نبّههم الله على أنهم قد اختاروا ملجأ ضئيلاً للغاية فإن حاولوا الاحتماء بهذا الملجأ فسيضيعون بنار الحسد في هذه الدنيا كما سيواجهون نتيجته في تلك الآخرة، العذاب الأليم.

والشيئ الثاني الذي يجذب النظر إليه خاصة هو أنما كانوا يخالفون دعوة النبي صلّى الله عليه وسلّم عبّر عنه القرآن بالفساد في الأرض والواقع أن هذا أسلوب شهير للتعبير عن عواقب فعل نهائية، أكثر القرآن استخدامه فهذا الأسلوب يفيد أن المخاطب يرى بعينيه عاقبة فعله النهائية، إن هذا كذلك يمدّ في منع المخاطب عن

فعل إذا كان سيئاً كما يفيد في التشجيع على فعل إذا كان حسناً فما كان يريد القرآن أن يقول هو أن لا يصدّوا سبيل دعوة الحق ولكن مجرد هذا القول لم يقدر على كشف الواقع عليهم مدى مساهمة معاملتهم هذه في خراب هذه الأرض ولذا فقد أراهم عاقبة المعاملة التي يمكن أن تظهر إذا نجحوا في خطبهم هذا.

وأما صلاح هذه الأرض وفسادها فهما ينحصران، كما أشرنا إليه من قبل، في من يحكم عليها ومن سنته تجري فيها؟ هل ربّها الأصيل أو رجل آخر غيره فإن يجرِ فيها حكم خالقها ومالكها فيقوم فيها النظام الصحيح للأمن والعدل وتظهر كافة بركاتها التي أودعت فيها، وإن كان الأمر خلاف ذلك فيعمّها الفساد من كل جانب ولو سمّي ذلك الفساد بأسماء جاذبة مختلفة للحضارة والثقافة. وبما أن الأنبياء يريدون ترويج سنن الله تعالى على هذه الأرض فجهودهم هي الجهود الحقيقية لإصلاح هذه الأرض، وكل خطوة تتقدم في سبيل مخالفتها هي خطوة الفساد ولو خطيت ظاهراً بنية صالحة للغاية. كان معارضوا الإسلام هؤلاء يجوّزون مخالفتهم بأن بدوّ نبوة جديدة وبخصوص الدعوى أن ما يقدّمه هذا النبي هو الدين الحق لله، يسبّب ظهورها تفرّق شمل البلاد وعلى هذا فمن لا يؤيّده أو يمنع الناس عن اعتناقه فلا يفسدون فيها بل يحاولون إصلاحها فالفساد كل الفساد يثيره من رفع لواء هذه الدعوة الجديدة أو كان يؤيّدها فردّ على هذا الاعتراض القرآن بأن هؤلاء هم الذين يفسدون في الأرض ولكنهم لا يشعرون بما يفعلون فهؤلاء لا يفهمون لأجل أهدافهم الشخصية أو ضيق عقولهم، هذا الواقع أن هذه الأرض لا يتم إصلاحها بأن نبقي الحق والباطل أو الكفر والإسلام حيّين بل يمكن إصلاحها بأن نتبع الصراط المستقيم الذي هدانا الله إليه فجريمتهم الأولى هي أنهم أضاعوا الصراط المستقيم الذي هداهم الله إليه، والآن حينما يفتحه الله للناس مرة أخرى فهؤلاء المفسدون يحاولون ألا يتبع الناس هذا الصراط المستقيم بل يبقوا ضالين في ممراتهم الشخصية التي اختاروها بأنفسهم، ويظن هؤلاء الناس هذه الحماقة عين الإصلاح والواقع أنها فساد ولا غير.

والأمر الثالث الذي يلفت النظر إليه هو أن القرآن قد رفع الستار عن شدة البغض والتحقير ضد هؤلاء المسلمين، التي كان هؤلاء يخفونها في صدورهم من خلال دعواهم للإيمان وإظهارهم للمصالحة وذلك لكيلا يغترّ بهم المسلمون بأن هؤلاء منطلقوا الذهن بالنسبة للإسلام وأتباعه مقابل الآخرين. رفع القرآن هذا الستار بحيث أن كشف عن سرّهم أن هؤلاء يستعلون على المسلمين بإيمانهم لكيلا يعتبرهم المسلمون أجانب في جانب وفي جانب آخر أنهم إذا سئلوا

على هذا بإيمانهم المباشر بالقرآن والنبي كما آمن هؤلاء المسلمون فهذا القول يغضبهم لدى سماعه فيسرعون في الردّ عليه بأننا لسنا حمقاء كهؤلاء نؤمن بكل رجل يدعي النبوة فنتبعه صماً وعمياناً.

فردّ القرآن على قولهم هذا أن هؤلاء هم الحمقاء والسفهاء ولكنه بما أن عاقبة حماقتهم لمّا تبدُ لهم فلهم فرص وجيزة لإظهار حدة عقولهم هذه.

وقد كشف القرآن عن سرّهم هذا كذلك بأنه حينما يزور هؤلاء المسلمين فيثبتون أمامهم أن لا فرق بينهم وبين المسلمين ولكن حينما يرجعون إلى أشباعهم ويلقون زعمائهم في المجالس فيبرّرون ما قالوا للمسلمين ويوطّنون أنفسهم بأنهم معهم كما ينبغي فما نقوله للمسلمين ليس إلا هزءًا بهم ولمزاً.

فردّ القرآن على قولهم هذا بأنهم ولو يزعمون أنهم يهزءون بالمسلمين والحال أن الله يهزء بهم فهو يمهّلهم على عدوانهم فهم يتقدمون في مشروعهم ظانين ناجحين في تدابيرهم ولكنهم لا يشعرون أن تقدمهم هذا هو عين تقدمهم للسقوط في التهلكة التي قدّرت لهؤلاء الناس إلا أنهم لا يرونها بأعينهم.

والأمر النهائي الذي ذكره في هذا الشأن هو أنهم بعدما يدعون حدة عقولهم وأفهامهم، قد اشتروا ما اشتروه سوءًا للغاية فهم اشتروا الضلالة على الهدى وظنوها متاعاً نافعاً للغاية ولكن هذا المتاع لا ينفعهم في الآخرة ولا يفيدهم في الدنيا فلن يوزن شيئاً في الآخرة وأما مطالبته قبل بعثة النبي الخاتم فقد محيت بالبعثة، والآن هم يصدقون "خسر الدنيا والآخرة"، وحبّهم للضلالة هذا قد سبّب حرمانهم عن نعمة الإسلام.

13- إزالة شبهة

فالكلمات التي تم استخدامها في هذه الآيات لمعارضي القرآن والنبي صلّى الله عليه وسلّم تبدو شديدة للغاية فيمكن أن تثور بها شبهة في ذهن بعض الناس أن هذا الأسلوب من الحديث لا يلائم بحكمة الدعوة التي أرشد إليها القرآن الكريم فقد علّم القرآن ذاته أن يهدوا إلى صراط الله المستقيم بالحكمة والموعظة الحسنة لا سيما أهل الكتاب فقد خصّ لهم بأن يناقشوهم عن الدين بطريقة حسنة ولا غير ثم لم استخدم القرآن سفهاء ومفسدين في إحدى طوائف أهل الكتاب هؤلاء كما استخدم لزعمائها كلمات صعبة حتى الشياطين؟

وللإجابة على هذا السؤال أقول إن هذه الكلمات لم تستخدم في زمن الدعوة بل استخدمها حينما أثبتوا عن طريق عناداتهم المواصلة ومؤامراتهم المستمرة أن

قلوبهم قد تم الختم عليها وأن هؤلاء لن يؤمنوا به ففي هذه المرحلة استخدمت هذه الكلمات لهم والتي لم يستهدف من استخدامها الغضب والتنفر فحسب بل بيان الواقع وإبراز الحقيقة لكي يعرف على حقيقتهم غيرهم ممن يريد صيانة إيمانه أي إلى أي مدًى وصل انحطاط ورثة الهدى السماوية القدامى وكم من نوع من الفساد يقومون به والحال أنهم قد جعلوا مسئولين عن إصلاح الأرض.

إن سورة البقرة التي استخدمت هذه الكلمات ليست مجرد سورة الدعوة لبني إسرائيل بل هي سورة اللؤم عليهم فقد فصّلت فيها جرائمهم التي ارتكبوها ضد شريعة الله وأنبيائه ورسله والتي قد عزلهم الله عليها عن درجة قيادة الأمم وأقيم مقامهم قوم آخر وقد أصدر الله على بني إسرائيل هذا الحكم بعد إتمام الحجة عليهم جيداً كما سيأتي بيان الوجوه والدلائل عليها في الآيات التالية من هذه السورة. وعلى هذا فهذا الأمر يطابق ومزاج السورة لكي يكشف عن وجوه بني إسرائيل المختفية لكي يزول رعب قدسيتهم الدينية والذي كانوا يستفيدون منه في اختلاق الدعايات ضد الإسلام، وكذا ما استخدمه المسيح عليه السلام من الكلمات الشديدة ضد علماء اليهود وزعمائها قد اضطرّ إليها بعد إتمام الحجة عليهم، وستجدون كلماته في الأناجيل وإن قمنا بالمقارنة بينها وبين كلمات القرآن فسنرى أن كلمات القرآن ألطف منها بكثير فقد استخدم لهم المسيح كلمات مثل "أبناء الأفاعي" و"القبور المختفية".

14- تفسير الأيات (17-20)

وبعد ذلك ضرب القرآن مثلين مفردين بكل طائفة من الطائفتين المذكورتين أعلاه فالمثل الأول ضرب للطائفة المختومة على قلوبها التي قد مسخوا طبائعهم وخاضوا في مخالفة الإسلام إلى حدّ لن يمكن لهم أن يعتنقوا الإسلام.

والمثل الثاني للطائفة التي لم تعلن عن مخالفتهم للإسلام بل كانوا يؤامرون ضدّه وكانوا يواجهون حقيقة واضحة للغاية قد اتضحت لهم كذلك، بتدابير تافهة وسهام طائشة للغاية.

فاقرأ أولاً هذين المثلين في كلمات القرآن الحكيمة ثم نقوم بتوضيحها بكلماتنا المتواضعة:

"مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. صمّ بكم عُمْي فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت

والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيئ قدير".

15- تحقيق الكلمات

كلمة "الصيب" تعني "المطر الشديد" كما هي تعني "السحاب الذي يمطر بالشدة" وقد رجّحنا لدى الترجمة المعنى الأول وذلك لأن هذا المثل، كما سيتضح فيما بعد، يشير إلى القرآن الكريم الذي قد عبّر عنه بالمطر في غير موضع منه.

وكلمة "السماء" يعمّ استخدامها للسقف الأزرق الذي نسمّيه "آسمان" بالأردوية كما هي تعني "السحاب" و"الفضاء الأعلى الذي هو على رؤوسنا".

ولو أن المطر ينزل من السماء ولذا استخدام كلمة السماء معه يبدو غير ضروري ولكن هذه الإضافة تقدّم صورة المطر أمام الأعين والصورة لها أهمية كبرى في مثل ما، هذا في جانب وفي جانب آخر تشير بلطافة إلى كون القرآن شيئاً سماوياً وهذا لأن المراد من هذا المطر، كما قلنا، القرآن ذاته.

والصواعق جمع الصاعقة وهي تعني شدة الصوت والصيحة كما هي تعني البرق النازل بالصيحة.

16- توضيح المثلين

وقبل توضيح هذين المثلين يجب علينا أن نثبت في أذهاننا مبدءًا جوهرياً للمثل ذاته:

ولو أن المثل نوع من التشبيه ولكن هناك فرق كبير بين التشبيه والمثل ففي التشبيه يلاحظ المشبه والمشبه به فتوضع أجزاء كليهما متقابلة فرادى ثم يبحث عن مدى التشابه والتطابق بينهما، ومن ثم يتعيّن حسن أو قبح ذاك التشبيه. وأما في المثل فلا يهتمّ فيه بالأجزاء اهتماماً خاصاً بل تشبه فيه حقيقة أمر بحقيقة أمر آخر، فإن توجد مطابقة تامة فيما بين حقيقتي الأمرين كما يقدّم المثل صورة حقيقة الأمر أمام الأعين فآنذاك يكون المثل تاماً غير ناقص ولو أنه لا تطبق عليه كافة أصول التشبيه التي وضعها مهرة الفن ضرورية لتمام تشبيه ما.

وبعد هذا المدخل خذ المثل الأول:

هذا مثل رجل أشعل النار في الليل المظلم لكي يهدي الناس بها، أدّى هذا العمل بكل مشقة واهتمام حتى أضاء كل ما حوله ولكن من قد بذل له هذه الجهود

المضنية لم يقدروا هذا الضوء فجزاهم الله أن سلبهم الضوء وتركهم في ظلمة مظلمة لن يمكن أن يرى فيها المرء يده، وزذْ عليها أنهم صمّ بكم عمي وتتواجد فيهم هذه الصفات في آن واحد[1] وعلى هذا فلا يسمعون نداء منادٍ ولا يستطيعون بالردّ عليه ولا يهتدون بعلامة أو إشارة فلن يمكن لهم أن يرجعوا عن السبيل الذي اختاروه.

وإن تفكّر تجد أن هذا المثل ينطبق على طائفة اليهود التي قد مضى ذكرها أولاً والتي قال عنها الله تعالى أن قد طبع على أسماعهم وقلوبهم وعلى أبصارهم غشاوة وعلى هذا فلن يؤمنوا.

ففي المثل الرجل الذي أضاء النار هو موسى عليه السلام فهو أشعل نار الهدى لقومه، التي أضاءت للقوم كله ولكن بعد قليل بعدت أغلبية بني إسرائيل عن هذا الضوء الذي قد جزاهم الله عليه بأن لعنهم فحرموا فهم الهدى وجدارة قبولها.

وقد فصّل حرمان بني إسرائيل وشقاوتهم في التوراة والإنجيل كما ذكرهما القرآن في العديد من مواضعه، وهنا ذكر وضعهم هذا في صورة مثل، وهذا المثل لقافلة أفرادها صم بكم عمي بالإضافة إلى ظلمة الليل وفي هذا الليل المظلم تهيم هذه القافلة لا تسمع أحداً ولا تنادي آخر ولا تقدر على الرد على ثالث كما لا تستطيع بأن تهتدي بعلامة أو هدًى.

والمثل الآخر لقافلة أحاط بها المطر في ظلمة الليل فهناك ظلمة مظلمة، ومطر شديد يتبعه برق ورعد فلما يرعد البرق يضع أفرادها أصابعهم في آذانهم ولما يلمع البرق يقدّمون خطوات في ضوءها، ولما يغيب عنهم فلا يتحركون وهم قائمون.

وهذا المثل تصوير طائفة اليهود الثانية التي ابتدئ ذكرها بـ"ومن الناس ---" ففي هذا المثل أشير بالمطر إلى القرآن الكريم وبالظلمات إلى مشكلات الطريق التي كان يعاني منها المجيبون على دعوة القرآن وبالرعد والبرق تهديدات القرآن ووعيداته التي كان يعطيها القرآن من كان يريد التكذيّب بها والتي كان هدفها اليهود مباشرة. وبما أن هذه الطائفة كانت تشعر جيداً بأن القرآن حق فقد كانت هذه التهديدات يضيق بها خواطرهم، والحلّ الصحيح لهذه القضية كان أن

---

[1] والجدير بالذكر هنا ما كتبه الأستاذ الإمام عن صم بكم عمي أنه إذا جاءت الصفات العديدة بدون الواو فهي تدل على أن تلك الصفات كلها تتواجد في الموصوف في آن واحد.
(الإصلاحي)

يقبلوا دعوة القرآن ولكنهم بالعكس من ذلك حكموا على تجنب نداء القرآن فيصوّر المثل هذا الأمر بـ"يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت" والواقع أن هذا التدبير تدبير يملؤه البلاهة فهل يفيد وضع الأصابع في الآذان إذا أراد البرق أن ينزل؟ وهذا مثلما يرى رجل الأسد الذي يريد أن يفترسه فهو يغلق عيونه فهل إغلاق العيون برؤية الأسد المريد الافتراس يمنع وثبة الأسد عليه؟ فلا يفيده هذا العمل سوى أنه لا يرى حملة الأسد عليه.

وهكذا حلّ قضية تهديدات القرآن ليس أن لا نسمعها فإنه حلّ أحمق فإن هذا لا يؤثر في كونها حقاً سوى أنها تقع حينما يكون المرء غافلاً عنها غفلة تماماً، وقد عمّ عن النعامة أنها تستر رأسها في الرمل حينما ترى وقوع الطوفان فسياسة اليهود للفرار عن حقيقة ليست أقلّ من سياسة النعامة تلك.

"كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا" هذه صورة لحيرتهم وقلقهم قد ابتلوا بها بعد نزول القرآن فلم يكادوا يفهمون كيف يواجهون هذا القرآن فكان لمعانه يحيّر أبصارهم كما أن بروقه يخطف الأبصار فكانوا حيارى ماذا يفعلوا وكيفما يتخّذوا فإن وافقهم شيئ في حيرتهم عجزهم فلم يتخلفوا عنه ولكن مواجهة حقيقة بثرثرة الحديث لا تدوم طويلاً ولذا حينما خالفهم شيئ وقفوا حيارى وعاجزين، فما ذكر في السابق أنهم كانوا يخادعون المسلمين بقولهم أننا نؤمن بالله والآخرة إذا ادعيتم بالإيمان بالله والآخرة، ولكنه حينما سئلوا أن يؤمنوا، إذا آمنوا حقاً، مثلما آمن به المسلمون فكانوا يلومونهم ويمطرون شآبيب الشتم عليهم.

17- الفرق بين الطائفتين

وقد اتضح من هذا التفصيل أن المثلين المذكورين أعلاه ضربا لطائفتي اليهود كلتيهما ولكن هنا يحتاج إلى مزيد التوضيح ما هي نوعية الفرق والاختلاف بين الطائفتين؟ وقد ذهب عامة المفسرين، كما ذكرنا فيما سبق، إلى أن الطائفة الأولى كانت للمنكرين الشداد بينما الطائفة الأخرى كانت للمنافقين.

وأما فيما يتعلق بالطائفة الأولى فهي كانت، ولا شك فيه، مكوّنة من المنكرين العمي للقرآن والإسلام ولكن قد أوضحنا، بالنسبة للطائفة الأخرى، أنه لا يصحّ أن نعتبرها طائفة المنافقين بالمعنى العام وذلك لأن المنافقين، كما يتعلق بظاهرهم، لم يكونوا يظنونهم منعزلين عن المسلمين ولكنما ذكر من وقائع الطائفة الأخرى يبدو منها جلياً أن هؤلاء ولو كانوا يدعون بالإيمان بالله واليوم الآخر ولكنهم لا أظهروا إيمانهم بالنبي فعلاً ولا رضوا عن أن يظهروه قولاً

حتى أنهم جهروا بقولهم أن المؤمنين بالنبي حمقاء وسفهاء ففي هذه الحالة اعتبارهم من المنافقين بمعناه العام لن يصحّ أبداً.

وأما نحن فنقول إنه ولو أن هاتين الجماعتين من اليهود وأن كلتيهما تخالفان الإسلام والقرآن ولكن مزاجي مخالفتهما يختلف بعضهما عن البعض فمزاج الطائفة الأولى هو الجمود والعناد فهي قد عكفت على الإنكار مثل الأعمى والأصم ولم ترض عن أن تسمع شيئاً ضد رأيها وتفهمه وأما مزاج مخالفة الطائفة الثانية فهو كان مليئاً بالحسد إلا أنه كان يشوبه شيئ من المصلحة. إنها كانت تشعر بكافة الأخطار التي قد حدثت لكل من اليهودية والنصرانية بعدما جاء الإسلام فهي تودّ وتحاول أن تمنع تلك الأخطار عن بروزها عن أي طريق كانت فالتدابير التي قد اتخذتها لبلوغ هذا الهدف هي أن تضاهي بالإسلام وأتباعه ما استطاعت عاكفين على سنة آبائها كما تطالب منهم أن تنعزلوا عن هويتهم الفردية فيرضوا عن إقرار درجة من الدرجات الدينية لهم ولكن القرآن قد صرح عن أن الدين الحق لم يأت لكي يعقد مثل هذه المساومة فمن يريد الإيمان فليؤمن كما آمن المسلمون وإلا فيختار السبيل الذي يحبّه وينتظر بعواقبه.

ولو أن مكر هذه الطائفة مبغوض لدى الله كما أبغض عناد وإصرار الطائفة الأولى ولكن شعور هذه الطائفة بأن مواجهة القرآن لن يمكن بالعناد والإصرار بل هي تتطلب المكر والمصلحة، شعورها دليل على أن جدارة قبول الحق لم تنمح تماماً كما محيت في الطائفة الأولى بل قد بقي فيها شيئ من شوب قبول الحق إلا أنها إن لم تستفد من تلك الجدارة وبقيت تخوض في اتخاذ تدابير للفرار عن قبول الحق، تخوض فيها حتى الآن فسيسلبها ما بقي من جدارة قبول الحق. وقد أشار القرآن إلى تلك الحقيقة بالكلمات التالية: "ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيئ قدير".

18- تفسير الآيات (21-29)

وبعد ضرب هذين المثلين صرف النظر عن اليهود ووجّه الخطاب لوقفة طويلة إلى بني إسماعيل (العرب) في العديد من الآيات كما وجّهت إليهم الدعوة إلى أن يقدروا هذه النعمة ويؤمنوا بالقرآن والنبي صلّى الله عليه وسلّم. وقد مسّت الحاجة إلى هذه الدعوة قاطعاً الكلام الأساسي لأن الدافع الأصلي لمخالفة اليهود كان هو الحسد الذي مارسوه مع بني إسماعيل منذ مدة مديدة على أنه قد جاء في صحفهم هذه النبوءة بأن النبي الخاتم سيبعث فيما بين الأميين (بني إسماعيل) ولما تجسّدت

هذه النبوءة عن طريق نزول القرآن وبروز الإسلام واتضح لليهود صدقها فقد انكشف حسدهم للعيان، الذي لم يزل مختفياً حتى الآن فعزموا على أن يخيّبوا هذه الدعوة كيفما يمكن لهم ولا يدعوا تحول القيادة الدينية إلى العرب، التي تمتعوا بها حتى الآن، ولأجل هذا الهدف فقد وسوسوا في أذهان العرب بطرق مختلفة كما أتوا بطرف عديدة لكي يبعدوا قومهم عن اعتناق الإسلام، فعلوا هذا مع العرب لكي يحرموا تلك النعمة التي أعطاها الله إياهم في صورة القرآن الكريم والتي ستسفر عن حصولهم على إمامة وسيادة العالم كله. وقد كان لليهود اليد الطولى في هذا النوع من المؤامرات ولذلك فقد كان العرب الساذجون يغترون بحيلهم وتدابيرهم وكانوا يعيدون ما طرحه اليهود من الاعتراضات على الإسلام بدون وعي منهم فقطع القرآن سياق الكلام الأصلي لكي ينبّههم فيخبرهم إلى الإيمان بكتاب الله الذي قد تمت حجته عليكم وإن اغتررتم بوساوس اليهود فحرمتم أنفسكم هذه النعمة الكبرى فلتعلموا أن عذابها سيكون شديداً وأليماً.

"يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون. وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين. وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا بها متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون. إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلا الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون. كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون. هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات وهو بكل شيئ عليم".

19- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون (21)

ولو أن الخطاب في "يا أيها الناس" عام ولكن وجّه الخطاب هنا، كما مضى، إلى مشركي العرب، والسبب وراء اختصاص هذا الخطاب بالمشركين هو أنما جاء

بعد ذلك من القول، وما استخدم بعده من الأسلوب، وما طولب من المخاطبين من الأمر يشهد كل منها بأن الخطاب وجّه هنا، أصلاً، إلى المشركين، وقد جاء هذا الخطاب معترضاً بين ذكر اليهود في صورة التفات.

اعبدوا ربكم: وقد مضى تحقيق كلمة "العبادة" عند تفسير سورة الفاتحة، ولم يُرَدْ هنا من "اعبدوا ربكم" دعوة المشركين إلى عبادة الله فحسب بل طلب منهم الإجابة على الدعوة التي يؤدّيها النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وهذه هي الحقيقة المختفية في هذا الكلام، ربط عليها "وإن كنتم في ريب مما نزّل على عبدنا" بهذا الكلام أي اقبلوا العبادة التي يدعو إليها النبي وإن كان هناك شك في أذهانكم في هذا الكتاب بأن هذا شيئ مختلق وليس مما أنزله الله فأتوا بسورة من مثله.

وكذا يختفي فيها أن عبادة الله التي تدعونها هي في الواقع ليست بعبادته فالطريقة الصحيحة لعبادته هي التي يدعو إليها هذا الكتاب.

خلقكم والذين من قبلكم: وقد أضيف "والذين من قبلكم" إلى "خلقكم" لأن مشركي العرب كانوا يعترفون بأنهم قد خلقهم الله ولكنهم أشركوا بعض آبائهم إلى صفات الله تعالى فوضعوهم في صف الخالقين وبدأوا يعبدونهم جاعلين أصنامهم. وقد أضاف القرآن آبائهم إلى عامة الخلق منبّهاً إياهم بلطافة أنه إذا أردتم عبادة الله فاعبدوه معترفين أنفسهم بمن خلقه هو وهو الحاكم عليه حتى تقرّوا من خلقه من قد جعلتموه من الخالقين.

لعلكم تتقون: "لعل" تستخدم لمعانٍ عديدة بما فيها بيان نتيجة ممكنة ومرجوة لشيئ وهذا عام مشهور في كلام العرب، وقد أردنا بها هذا المعنى المذكور أعلاه ويؤيّده سياق الكلام كذلك.

يمكن أن نريد بـ"تتقون" معنيين أحدهما أن تحصلوا على التقوى وآخرهما أن تجتنبوا غضب الله وعذابه، ويمكن أن يصحّ كلا المعنيين إلا أني رجّحت المعنى الآخر وهكذا فلا بد من أن نقدر هنا مفعوله المحذوف الذي فتحه القرآن بآيته التالية فقال "فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة" (البقرة: 24)

الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون (22)

فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون: الأنداد جمع ندّ وهي تعني الشبه والعدل والكفؤ. وبالنسبة لصفات الله تعالى قد كانت العرب يعترفون بكافة الدعاوي التي تثبت توحيد الإله ولكنهم مع ذلك كانوا يجعلون شركاء له وعلى فقد قال إنكم تعترفون

بأن الله قد حلقكم كما خلق آبائكم وجعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً وأنشأ لكم أنواعاً عديدة من الثمرات والفواكه رزقاً لكم فلم تشركون بالله من لم يقم بشيئ مما ذكر آنفاً؟ والمراد من "تعلمون" هنا "تعترفون" و"تقرّون".

وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين (23)

ادعوا شهداءكم: الشهيد يعني زعيم القوم ولسانهم الذي يشهد المشاهد من جانبهم ويدافع عنهم، يمكن أن يكون هذا الشهيد من الناس كما يمكن أن يكون من الجن كما يعتقد العرب وقد كان الشعراء والخطباء يتمتعون من درجة كبرى في العصر الجاهلي وذلك لأن هؤلاء كانوا يدافعون عن عزتهم القومية في كل مشهد من المشاهد المهمة. وكان مشركوا العرب يعتقدون أن كل شاعر يعضّده جنّ يلهمه الشعر وعلى هذا فقد ظنوا عن القرآن أنه نوع من ذاك الإلهام المعجز. ولأجل عقيدتهم تلك قد طلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله إذا زعموا أنه كلام مختلق من قبل الإنس أو الجن، بمساعدة من هؤلاء الناصرين المزعومين. وإن لم يأتكم هؤلاء الظهراء لعونكم بهذه المناسبة الخطرة بحيث أن ألوهيتهم تواجه المشكلة كما أن دين آبائكم يعاني من الصعوبة فافهم أن هذا القرآن كلام إلهي وأن كافة آلهتكم وأوثانكم لا أساس لها، وقد أوضح القرآن نفس الحديث في موضع آخر من آياته فقال: "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (سورة بني إسرائيل: 88) وقال في موضع آخر وهو أوضح من ذي قبل: "وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله" (سورة هود: 13-14).

إن كنتم صادقين: وهذا القول له معنيان أحدهما أنه إن أنتم صادقون فيما تظنونه بالنسبة للقرآن وآخرهما أنه إن أنتم صادقون في الظن أن لكم ظهراء ونصراء من دون الله، وإن كان كذلك فاستعينوهم وهل تأتيكم فرصة أخرى غير هذه لنصركم ودفاعكم؟

وإني أميل إلى المعنى الثاني وذلك لأن هذا يشمل المعنى الأول كذلك.

فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين (24)

وقودها الناس والحجارة: إن هذه الكلمات تشير إلى مزاج النار التي وُعِدَ منها المكذّبون بالقرآن فيبدو من هذه أن حطب هذه النار اللذيذة تكون أولاً الناس

الذين يتواجد فيهم مواد الكفر والشرك ومن خلال جسودهم تشتعل هذه النار بلونها الأصلي وثانياً يكون حطبها تلك الحجارة التي سجد لها معبودة للناس أو يتم السجود لها حتى الآن، وذلك لأن عبادتها تلك تخلق فيها نوعاً من مادة الشرك المشعلة النار التي هي الطعام اللذيذ لتلك النار.

ولو أن كلمة "الحجارة" عامة ولكن يوضّح سياق الحديث أن المراد منها تلك الأوثان والأصنام التي يتم السجود لها كآلهة وآلهات، والهدف الأصلي لقذفها في جحيم هو إراءة الكافرين أنما سجدوا له من الأحجار وقدّموا له من اللبن والحلوى لتضييفه يعاني من مثل هذا العذاب الأليم.

وإهانة شعائر الكفر في الواقع إهانة الكفر وقد أوضح القرآن هذا الأمر في موضع آخر من آياته فقال: "إنكم وما تعبدون من دون الله حطب جهنم أنتم لها واردون. لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون". (سورة الأنبياء: 98-99)

وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا بها متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون (25)

جنات تجري من تحتها الأنهار: وتصور الجنة الأجذب هو أن تكون على ربوة وتجري من تحتها الأنهار فالرفعة تضيف إلى جاذبية مشهدها وتصون من آفات السيل بينما النهر الجاري تحتها تكفل بخضرتها، وقد ضرب المثل للجنة الواقعة على الربوة في الآية 265 من هذه السورة فقال تعالى: "كمثل جنة بربوة ---" وأما الآية التي نحن بصدد الحديث عنها فتشير كلمات "تحتها الأنهار" نفسها إلى أنها تقع على ربوة.

قالوا هذا الذي رزقنا من قبل: "القول" لها مدلولات فمن القول ما يسمع ومنه ما يكون سراً فقد جاء في القرآن "سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به" (سورة الرعد: 10) كما يأتي لمجرد الإشارة فقد جاء فيه:

"فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسياً". (سورة مريم: 26)

وما يبدو من إشارة على لسان الحال هي أيضاً نوع من القول وكذا ما يقول المرء في قلبه استخدم له هذه الكلمة أيضاً وله أمثلة عديدة في القرآن وكلام العرب فقد جاء في سورة المائدة عن المنافقين:

"يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين". (سورة المائدة: 52)

ففي هذه الآية عبّر بالقول عما خطر ببال المنافقين ثم صرّح عن أن هذا مما يكنّه صدورهم. وكذا أريد من "قالوا" في الآية التي نحن بصددها أنهم سيتخيلون في قلوبهم أن لذة النعم التي أطعمنا القرآن والنبي إياها عن طريق بشراه، نراها بأعيننا مجسّدة أمامنا، وسيأتي هذا الخيال في قلوبهم بفرح غامر، وشعور داخلي بالنجاح، وعاطفة جياشة للشكر والحمد فهم فرحون بأن الوعود التي ضحّوا عليها بأنفسهم قد ثبتت حقاً ولذائذ نعم الجنة التي هم يتمتعون منها قد تخيّلوها في الدنيا عن طريق القرآن.

وفي هذه الفقرة تتطلب كلمة "الرزق" تفكيراً من عندنا فقد استخدمت هذه الكلمة بالعربية والقرآن كذلك للرزق الروحي كما للرزق المادي فلا نفهم أنما نأكله ونتمتع منه هو الرزق بل الرزق الأصلي هو العلم والمعرفة التي حصلت لنا من عند القرآن والنبي صلّى الله عليه وسلّم، وعلى هذا فقد عبّر القرآن عن الوحي بالرزق وقد قال المسيح عليه السلام: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكلمة تخرج من فم الله". (متي، 4:4)

ولـ"من قبل" تأويلان أولهما أنها قد حصلت لنا قبل هذا في الدنيا والآخر أنها قد حصلت لنا قبل هذا في هذه الجنة وقد حاول أستاذي الإمام الفراهي أن يجمع بين هذين التأويلين ولكن المراد منها، كما أشرت آنفاً، نعم الدنيا، وستتضح وجوهه في الآتي.

أزواج مطهّرة: الزوج يعني الصنو فالرجل صنو للمرأة كما أن المرأة صنو للرجل فقد أبقى الله فراغاً في الإنسان، لا يسدّه إلا زوجه وعلى هذا فلا يكمل بدونه تصور نعمة للإنسان وكذا جاء ذكره في الجنة التي هي عبارة عن كمال النعمة وتمامها.

وصفة "مطهّرة" معه تكشف عن الواقع أنهن قد تمت تربيتهن برعاية تامة كما تمت تزكيتهن باهتمام بالغ لكي يكنّ جديرات، بالمعنى التام، بمرافقة أهل الجنة، ويبدو هذا المعنى من كلمة "مطهّرة" فإن التطهير يعني تزيين وتزكية عادات وخصائل وطبائع وأمزجة رجل باهتمام بالغ ورعاية تامة. فقد قال في سورة الأحزاب بعدما لقّن أهل بيت النبي أساليب وآداباً عديدة واجبة:

"إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً". (سورة الأحزاب: 33)

إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلا الفاسقين (26)

إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً: "ضرب المثل" يعني إفهام حقيقة عن طريق المثل فلا يفهم الحقائق العليا واللطائف الروحية عامة الناس ما دام يشار إليها عن طريق المثل وعلى هذا فقد نال هذا الأسلوب أهمية كبرى في تعليم الحقائق الروحية وعلى هذا فهي يكثر ذكرها في كلام الأنبياء والحكماء وستقدرها حينما تلقي نظرة سارحة على التوراة والإنجيل فكلام المسيح عليه السلام مليئ بالأمثال كما أن أحاديث النبي يكثر فيها مجيء الأمثال وكذا يأتي في القرآن أمثلة رائعة لهذا النوع من الكلام.

والأمر الذي يلفت النظر إليه في المثل هو أن الواقع الذي قُدِّمَ في المثل ما هو مدى روعته في التقديم؟ فلا يبحث فيه عن أجزائه المركّبة فالأشياء التي تفيد الهدف لتصوير شيئ للأعين يمكن منها الاستفادة في المثل ذباباً كان أم بعوضة أم عنكبوتاً فقد قال القرآن ممثلاً عجز آلهة المشركين إنه لو سلبهم الذباب شيئاً لم يقدروا على أخذه منه مرة أخرى، وهكذا مثّل ثقتهم بالشركاء والشفعاء ببيت العنكبوت وما كانت رعاية اليهود عن أجزاء الدين راغبين عن أصوله قد شبّهه المسيح عليه السلام بغربلة البعوضة وابتلاع الإبل.

وكل هذه الأمثال والتشبيهات رائعة جيدة لأن الحقائق التي قدّمتها هي يمكن لإنسان أن يفهمها جيداً بهذا الأسلوب، وعلى هذا فيهمّها الراغبون في العلم والمعرفة ويأخذون منها فوائد كبرى ولكن من هو عدو للعلم والمعرفة وعبد لهوى النفس تضيق بها خاطره. وهذا لأنها تكشف له عن الأشياء التي يخالف كشفها هوى نفسه وعندما يريد هو أن يشتعل غضباً فلا يمكن له الحملة المباشرة على هذا الواقع الذي يقدّمه هذا المثل وذلك لأنه واضح إلى حد إذا أردت أن تقول شيئاً ضده فكأنك تريد إخفاء ضوء الشمس، إلا أنه سيأخذ جزءًا من ذاك المثل ثم يخرج ما يكنّه صدره من الغضب فمثلاً لو ذكر في المثل بعوضة أو ذباب فهو يعترض على هذا المثل الرائع الهادف إلى الحق بأنه لو كان هذا مثلاً ضربه الرب تعالى فلم لم يستخدم شيئاً أعلى من هذا أو ذاك وهكذا فهو يريد خدع ضميره كما يريد به خدع الآخرين.

وما يضلّ به إلا الفاسقين: الفسق أصله الخروج ومن هنا تدرّج إلى الخروج من المعروف إلى المنكر ومن الطاعة إلى الكفر فقد جاء في إبليس في القرآن الكريم: "كان من الجن ففسق عن أمر ربه". (سورة الكهف: 50).
وللخروج من المعروف إلى المنكر ومن الطاعة إلى الكفر درجات فيمكن أن يكون المنكر حقيراً أو كبيراً كما يمكن أن يكون الكفر ضئيلاً أو مثل الاعتداء وعلى فقد استخدمت هذه الكلمة في القرآن لعامة المنكرات حتى الكفر والاعتداء على الله بل كثر استخدامها لكبائر العصيان التي لا يجمع معها الإيمان فلا ينبغي لنا أن نريد منها هذا المعنى العادي في كل موضع من القرآن، الذي أراد منه عامة فقهاؤنا ومتكلمينا.
الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون (27)
ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل: والمراد من هذا عندنا قطع الرحم والقربى، والخطوة الثانية التي يقدّمها العاصي بعد نقض ميثاق الله هي عدم رعايته عن حقوق الرحم وعدم الاقتصاد فيها والظلم عليها، وبما أن الصلاح والفلاح وأساس المدنية والمعيشة كلها قد وضعها في تقوى الله والاعتناء بالرحم ولذا فمن تحرّر عن هذين القيدين ستكون كل خطوة منه خطوة للفساد في الأرض وعلى هذا فقد عبّر عن نقض ميثاق الله وقطع الرحم بالإفساد في الأرض وكذا ذكر هذان الشيئان في القرآن معاً كأنهما يكمّل أحدهما الآخر فقال تعالى: "فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم" (سورة محمد: 22)
وعلى تلازمهما هذا يرى قتادة أن المراد منه الرحم والذي رجّحه ابن جرير بينما عمّمه بعض المفسرين وأرادوا منه قطع كلّ ما أمر الله أن يوصل. وكما يتعلق بظاهر الكلمة فلا يناسبنا أن نفنّد هذا المعنى ولكن السؤال هنا ليس بظاهر الكلمة بل السؤال يتعلق بأسلوب القرآن فقد أراد القرآن منه الرحم حيثما استخدم هذا الأسلوب وكذا يدلّ عليه سياق الكلام وسباقه، وما نجد من إبهام في هذا الأسلوب يكشف عن أهمية الرحم وعظمتها بأنها حقيقة بديهية معروفة يعرف ويفهم كل من الناس بدون أن تسمّى أي شيئ أمر بإيصاله بدل أن أمر بقطعه. وأما بالنسبة لصلاح وفلاح المدنية والمعيشة فإنها مهمّة إلى حدّ أن من قطعها فكأنه قد قطع دابر المدنية والمعيشة.

كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون (28)

كيف تكفرون بالله: وقد بيّنا تحقيق كلمة "الكفر" في الفصل الثامن لتفسير سورة البقرة وهنا نريد أن نلفت أنظار القراء إلى جانب مهمّ لهذه الكلمة وهو أن هذه الكلمة تم استخدامها مخاطباً من لم يكن ينكر بالله بل كان يشرك به غيره إلا أنه إما كان منكراً بالقيامة أو على الأقل كان يستبعدها قياساً وعقلاً فقد خوطب وسئل: لم تكفر بالله؟ فيبدو من هذا أن هذه الكلمة استخدمها القرآن للمعنى الأوسع مما عمّ واشتهر فكما أن الإنكار بالله كفر فكذلك الإيمان بما هو ينفي صفاته الحقيقية مثل وحدانيته وقدرته وعلمه، كفر مثله.

هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات وهو بكل شيئ عليم" (29)

ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات: الاستواء يعني الاستقامة وصلته "إلى" تدل على أن هذه الكلمة تشتمل على الالتفات أو فعل يشبهه معنًى والهدف منه هو أن الله وضع السماء بعدما وضع الأرض وقد استخدم هذا الأسلوب لمجرد تصوير الحال فينبغي لنا أن نريد من الاستواء ما يلائم بجلالة شأن الله تعالى.

التسوية يعني تسطيح شيئ وتمهيده وإقامته بالعدل والقسط فلن يمكن أن نجد في هذا السقف الأزرق من فتور مهما تصل إليه أعيننا أو أسباب العلوم الجديدة الحديثة فقد أشار إليه فيما قال تعالى:

"ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير" (سورة الملك: 3-4)

السماء من سما يسمو أي ارتفع. إن القرآن ينبّهنا إلى إعجاز هذا السقف المرفوع علينا ويدعونا إلى قبول ما يسفر عنه من النتائج البديهية، وهذا من أصول القرآن المستقلة بالنسبة لما يشهد في هذا الكون أنه لم يتعرض لما يختفي على أعيننا أو ما يبنى على الظن والتخمين أو ما لا تمكن رؤيته إلا بالمجهر والمنظار وهذا لأنه يمكن أن يقع نزاع أو اختلاف فيه فالقرآن يلفت أنظارنا إلى الحقائق التي لا يمكن أن ينازع أو يختلف فيها رجل عادل منصف. ونفس الأسلوب اطّرده القرآن في لفت الإنظار إلى حقائق السماء فهو نبّه المرء على ما يكفيه التنبيه فقط إلا أنه أشار إلى أن السماء سبع لكيلا يخطئ المرء في فهم

أن حكم الله لا يتروّج إلا في هذه السماء الدنيا والكواكب المتلألأة فيها بل يتضح له أن مجال البحث والتحقيق لا ينتهي إلى هذه السماء بل المجال متسع لما فوقها من السماوات الست.

20- ترتيب أغراض مجموعة الآيات (21-29)

وقبل كل شيئ نودّ أن نوجز بكلماتنا ما ذكر في الآيات المذكورة أعلاه من الأغراض طبق ترتيبها المرعي في القرآن ثم نناقش أهمّ ما يحتاج إلى التوضيح والتفصيل.

في آيات هذه المجموعة البدائية وجّهت الدعوة إلى بني إسماعيل إلى قبول دعوة النبي والإيمان بالقرآن ويبدو من أسلوب الحديث أن الدعوة هنا هي الدعوة إلى عبادة الله الواحد القهار، ومن يرد عبادة الله فلا مناص له من الإجابة على هذه الدعوة إلى العبادة وتضمنها الإشارة إلى أن الطريقة التي يطردونها لعبادة الله ليست هي عبادة الله ولذا فقد أشركوا غير الله في عبادته تعالى والحال أنه لا شريك له ثم ذكرت صفات الله وأحكامه المروجة في هذا الكون بحيث يثبت بها توحيده جلّ جلاله ثم قيل لهم أنه إن تذبذبوا في الإجابة على هذه الدعوة لمجرد أنكم تشكون في كون القرآن كتاباً منزلاً من الله وتظنون أنه مما وضعه من هو يبلّغه إليكم أو استكتبه من أحد غيره فيمكن القضاء على هذه الشبهة بحيث أن تقدّموا سورة تشبه سورتها فمن هنا تبطل دعواه بأنه منزل من الله ولكم الخيار أن تستنصروا فيه من تريدونه من شعرائكم وأدبائكم وخطبائكم وكهنتكم وجنكم وآلهتكم وآلهاتكم.

ثم أنذر بالعاقبة التي يبتلى بها من يكذّب بدعواه أنه منزلٌ من الله ولو أنه يعجز عن إتيان مثله كما بشّر بالجنة من يجيب على دعوة القرآن ويختار طريق الإيمان والعمل الصالح.

والشيئ المهم الذي ذكر هنا بالنسبة لنعم الجنة والذي يستحق أن يلتفت إليه هو أنه لما تعرض نعم الجنة على أهاليها فيسرّون بأنما يلقونه هنا يعرفونه من قبل، وهذه إشارة إلى أنه ولو أن المنكرين بالقرآن يعتبرونه شيئاً مختلقاً ولكنه سيأتي لهم يوم يرفع فيه الستار ويبرز لهم صدق القرآن بحيث أن المؤمنين سيغمرهم الفرح بما ينالونه من النعم الموعودة ويحمدون الله على أنهم قد عرّف لهم القرآن بالجنة ونعمه في دنياهم.

ثم جاءت جملة معترضة نبّه فيها بنو إسماعيل أنما ذكر لهم من الجنة ونعمها هي في صورة المثل فإنما يلّقن لكم من الأشياء والصفات عن الجنة والنار لن يمكن تفهيمها إلا عن طريق المثل، وأن الله يريد تفهيمكم إلى حدّ أنه يختار كل مثل لتعليمكم، يمكن به تلقين الواقع في أذهانكم ولو كان هذا المثل من نوع الذباب أو البعوضة فمن يرغب في العلم والحق يقدر هذه الأمثال ويزداد علمه بها لكن من يرغب في الضلالة يهزء بهذه الأمثال ومن ثم يسقطون في الضلالة ثم أشار بكلمات معدودة إلى من لا يستفيد من هذه الأمثال فلا ينال شيئاً من العلم والمعرفة بل يقع في الضلالة فالنار، وهذه الصفات كلها تنطبق على اليهود وهكذا فقد نبّه بني إسماعيل أن لا ينموا في أنفسهم ذوق هذا النوع من الاحتجاج التافه بالنسبة لهذه الأمثال ولا يبتلوا بما يقوم به اليهود من الخوض في الفتنة وإلا فاتباعكم الأعمى لهم سيسقطكم في هوة الضلالة فالنار.

وبعدما انتهت هذه الجملة المعترضة استأنف القول الذي قد ابتدئ بـ"اعبدوا ربكم" استأنف بـ"كيف تكفرون" ثم ذكر دليلان على القيامة، أحدهما هو أن الله الذي خلقكم حينما لم تكونوا شيئاً مذكوراً فلم لا يقدر على أن يبعثكم مرة أخرى بعدما متّم؟ وآخرهما مصدره ربوبية الله التي سيأتي تفصيلها فيما بعد.

فبدا من هذ التفصيل أن سلسلة الكلام هذه مرتبطة بما سبق وكل حلقة منها يرتبط بعضها من البعض فأولاً دعي إلى عبادة الله ويتبعها ذكر التوحيد فإن عبادة الله لا تعني شيئاً بدون توحيده ثم دعي إلى الإيمان بالرسالة واستدلّ عليه بإعجاز القرآن ثم ذكر عذاب الإنكار وثواب الإيمان ثم نبّه على أن لا يخوضوا في الهزء بما ذكر من العذاب والثواب على سبيل المثل متبعين اليهود ثم دعي إلى الإيمان بالقيامة ويبدو من أول كلمة هذه الدعوة أن من يدعي الإيمان بالله ولكنه يظن البعث بعد الموت مستبعداً ليس بالمؤمن بالله بل المنكر له.

21- توضيح بعض الدلائل

ذكرت دلائل على مبادئ الإسلام الثلاثة؛ التوحيد والرسالة والمعاد، والآن نحاول توضيحها فيما يأتي:

فالدليل الأول على التوحيد الذي ذكر هنا كما يلي:

"الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون" (سورة البقرة: 22)

فالدليل على التوحيد ذكر بالنسبة للتوافق والتلاءم الذي يوجد في كافة أضداد الكون فيوجد فيه السماء مقابل الأرض، والنهار مقابل الليل، والظلمة مقابل النور، الحرّ مقابل القرّ، والرجل مقابل المرأة، الأمر الذي يخمّن منه بادئ ذي بدء أنه لعل هذا الكون ساحة حرب للأضداد والقوى المقاتلة بعضها للبعض وقد اشتبه نفس الأمر على بعض الأمم فقرّروا خالقاً للنور وآخر للظلمة، وخالقاً للخير وآخر للشر. وفي نفس سوء الفهم وقع العرب فجعلوا إلهاً للأرض كما جعلوا إلهاً آخر للسماء وقد أزال القرآن هنا هذه المغالطة أن التضاد الذي يرى للأعين تضادٌ ظاهري وإن تأملوا النظر فيها تجدوا أن هناك توافقاً شديداً فيما بين أضداد هذا الكون فالأرض ممهّدة لكم كالفراش كما أن السماء مرتفعة عليكم كالسقف ثم انظر إلى أن الماء ينزل من السماء كما أن الأرض تنبت منه أنواعاً من الثمرات التي هي رزق لكم. وبعد وجود هذا التوافق الشديد بين السماء والأرض كيف تعترفون بأن في الأرض إلهاً بينما في السماء إلهاً آخر فكيف يمكن أن يوجد مثل هذا التوافق والتلازم لدى وجود الآلهة المتعددة والأحكام المضاد بعضها بعضاً فتتحول السماء والأرض باتحادهما إلى حضينة فتربّيا فيها الإنسان كما تربّيه الأم في حضينتها؟ وإن كان ذاك الاختلاف موجوداً فيلزم أن تخربا بأنفسهما بجانب من يعيش بينهما.

وبعد أن بيّن هذا الدليل قال "فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون" فمعنى "وأنتم تعلمون" أنكم تعترفون بأن حلق الأرض في صورتها الراهنة ورفع السماء في شكلها الحاضر مما حدث بيد الله فلم يجعل أحداً منهما رجل غيره فإشراك أحد مع الله في نظم السماء والأرض بعد هذا الإقرار شيئ غير معقول بديهياً وإليه الإشارة هنا في القرآن الكريم.

ولنلاحظ هنا أن مشركي العرب، كما سلف القول، لم يكونوا ممن أنكروا بالله فهم كانوا يؤمنون بالله إلا أنهم كانوا يشركون له غيره فلم تكن الحاجة ماسة لإثبات الله لهم بل الحاجة كل الحاجة كانت إلى الردّ على الشرك فالدليل هنا ليس على وجود الله تعالى بل الدليل هنا على توحيده ولا غير إلا أنه قد اختير له أسلوب يثبت منه، فعلاً، وجود ربّ خالق.

وهنا نكتفي هذا القدر من توضيح هذا الدليل وسيأتي هذا الدليل بأساليب وطرق فنقوم بتوضيحه حسب الموقع والمحل، وقد فصّلنا هذه الدلائل في رسالتنا المسمّاة بـ"حقيقت توحيد" فمن يرد مزيد التوضيح فليراجع تلك الرسالة.

والدليل الثاني على إثبات رسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال تعالى:
"وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين" (سورة البقرة: 23)
وقد كان النبي يدّعي عن القرآن أنه كتاب منزّل إلهي أنزله الله تعالى في صورة وحي يوحى عن طريق أقرب ملائكته جبريل عليه السلام فقد كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يقدّمه كدليل على رسالته ولكن مشركي العرب كانوا يخالفون هذه الدعوى ويؤيّدهم اليهود بل هم الذين كانوا يثيرون فيهم هذا الاعتراض وقد كان هؤلاء يذهبون مذاهب في هذه المخالفة فمرة قالوا إنه مما كتبه محمّد نفسه ولكنه ينسبه إلى الله مثبتاً به نبوته علينا وتارة أخرى قالوا إنه قد شاطره الآخرون في هذه المؤامرة وهم يمدّونه في إعداد هذا الكتاب وتارة ثالثة قالوا إنه مما يلهمه عليه أحدٌ كما يلهم الجن على الشعراء والكهنة وتارة رابعة ادعوا بأن هذا الكلام ليس فوق قدرة البشر فإننا قادرون على تقديم مثل هذا، وهكذا كانوا يكذّبون بكونه مما أنزله الله على النبي الأمي لكي يردّوا على دعواه ويثبت هذا الكتاب دليلاً على نبوته ورسالته.
وقد ردّ القرآن على هذه الاعتراضات كلها بأنكم إذا شككتم في هذا الكتاب فالقضاء على هذا الشك أسهل بكثير بأن تقدّموا كلاماً يشبهه فإن قدّمتم سورة واحدة مثله فسيثبت أنما تقولون صحيح وأن دعوى القرآن باطلة.
ثم أتمّ الحجة عليهم مضيفاً إلى هذا التحدي ثلاثة أمور:
أولاً أن تقدّموا سورة من مثله. وليعلم أنه قد سئلوا أولاً أن يقدّموا كتاباً مثله ثم طلب منهم تقديم عشر سور ولما لم يردّوا على هذين الطلبين قيل لهم أن يقدّموا سورة من مثله.
وثانياً أن قيل لهم أن يستعينوا من يقترب إليهم من الأدباء والخطباء والشعراء والكهنة والجن والشيطان والآلهة والآلهات العديدة إذا لم يقدروا على تقديم المطلوب. وإن فشلوا في هذا بعد هذا الجهد الجهيد فليؤمنوا بكون هذا القرآن كتاباً سماوياً ولا يضيعوا أوقاتهم الغالية في تكذيبه.
وثالثاً أنهم لا يقدرون على إتيان شيئ مما طلب ولن يمكن لهم أن يفعلوا في المستقبل فلا يضيعوا دنياهم ولا آخرتهم في هذه المحاولة التي لا طائل تحتها ويحاولوا اتقاء العذاب الذي يلزم النزول عليهم نتيجة تكذيب هذا الكتاب.

ولو أن الخطاب وجّه أصلاً إلى العرب فلن يمكن أن يقدّم هذا التحدي لغيرهم من الناس ولكن هذا التحدي مطروح لكل من ينكر ويخالف القرآن عربياً كان أو عجمياً منذ زمن نزول القرآن حتى يومنا هذا فمن يرد يمتحن قوته ومؤهلاته فسيقدّر هو ذاته أنه لا يقدر على تقديم سورة مثل أيّ سور القرآن ولن يأتي بمثلها أبداً.

والدليل الثالث جاء على القيامة فقد قال تعالى:

"كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون. هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات وهو بكل شيئ عليم" (سورة القرة: 28-29)

فالمراد من الكفر هنا ليس إنكار الله بل هو، كما أسلفنا، إنكار بالقيامة وذلك لأن إنكار القيامة في الواقع إنكار بكافة صفات الله العليا؛ القدرة والربوبية والحكمة والعلم فمن يؤمن بالله بدون هذه الصفات فإيمانه بالله وإنكاره به سواء. وبعد هذا التوضيح تفكّر الدليل على القيامة، المذكور هنا.

فأولاً ذكر دليل على إمكان المعاد وهذا هو الدليل الفطري والعقلي العام الذي قد تمّ بيانه في القرآن بمختلف الأساليب والطرق وهو أنه حينما تعترفون بأن الله قد أحياكم بالعدم وترون أنه ذاك الله الذي يميتكم بعد أن أحياكم فلم تستبعدون أن يبعثكم مرة أحرى فمن أمكن له خلقكم من لا شيئ فكيف يصعب له أن يعيد خلقكم من شيئ؟

ولكن إمكان شيئ لا يوجب أنه يقع حقاً فيمكن أن تقع القيامة ولكن ما الحاجة إليها؟ فردّ على هذا السؤال بأن الله الذي جعل هذه الدنيا كلها لتربيتكم وسخّر لكم هذه الأشياء والذي تشهد قوته في كل أنحاء العالم ويشهد بحكمته كل ذرة من هذا الكون كيف يمكن أن يترككم سدًى بعد أن خلقكم بهذه العناية ولا يميّز خيركم من شركم فإن فعل ذلك فلا تعني ربوبيته التي يشهد بها كل ذرة من هذا الكون، ولا تهدف تلك الحكمة التي يشهد بها السماء، ولا ينتج ذلك العلم المحيط بكل شيئ، الذي يجب أن يتصف به خالق الأرض والسماء وهو كذلك يتصف به حقاً.

وقد كثر ذكر هذا الدليل على القيامة في القرآن بمختلف أساليب البيان وعلى هذا فنكتفي هنا بهذا الإجمال.

وقد بدا من هذا التفصيل أنه ولو أن بني إسماعيل قد خوطبوا ضمناً في شكل التفات ولكنه قد بيّن لهم مبادئ الدين الثلاثة؛ التوحيد والرسالة والمعاد، بالدلائل اللازمة عليها.

22- جانبان لعظمة القرآن

داعياً إلى الإيمان بالقرآن في هذه الآيات كشف الله تعالى عن جانبين لعظمة كتابه؛ أحدهما قد أشرنا إليه في الآنف وهو أن كافة الناس والجن يعجزون عن أن يقدّموا كلاماً مثيلاً له، وقد كان جانب عظمة القرآن واضحاً حين نزوله لأن من كان يظن أنه من كلام الأنس والجن فهو لم يكد يأتي بكلام مثله ولو كان يودّ ذاك وهو واضح اليوم كذلك حيث قد مضى على نزوله أكثر من أربعة عشر قرناً ولكن لم يقدر حتى ألدّ أعدائه أن يأتي بشيئ يبطل دعوى القرآن تلك.

وقد أشير إلى جانب آخر لعظمته وهو أن القرآن الذي يظنه المعارضون شيئاً مختلقاً ويكذّبونه عن طريق أمثاله سيأتي يوم يسكن المؤمنون به في الجنة ويفرحون بما نالوا من نعمها حامدين الله على أنهم قد تذوقوا ولو خيالياً، هذه النعم في دنياهم عن طريق هذا الكتاب والآن هم يتمتعون منها حقاً.

فيبدو من هذا أن من يؤمن بالقرآن خالصاً ويفهم روحية ما يقوله يشهد نعم الجنة في هذه الدنيا كما يظهر له خارطة جهنم وكذا يبدو منه أن أعمال الخير التي أمر القرآن بها سيتمتع من لذتها المؤمنون في الجنة كما يظهر لأهل النار أعمال الشر المجسّدة التي منعهم عنها في الدنيا فلم يكن الفرق هنا إلا ما بين الحقيقة والمجاز فما قيل هنا هو في صورة مجاز ومثل وذلك لأنه لا بد من أسلوب المجاز في بيان حقائق الآخرة إلا أن تلك الحجب ستنكشف في الآخرة فتبدو للعيان كل حقيقة دقيقة لطيفة.

وأما قول أهل الجنة لدى تمتعهم من نعمها "هذا الذي رزقنا من قبل" فهو يشير إلى أن المؤمنين يتمتعون من لذة وحلاوة حسناتهم في هذه الدنيا قدر المستطاع ولكنه بما أن ستار المدركات يكون عليها فلا تكاد لذتها الحقيقة تنكشف لهم وقد نقل عن الأنبياء وأصحاب المعرفة أشياءً متعددة تشهد بأن ما يكمن اللذات والحلاوات في الإيمان، والإسلام، والصيام، والصلوة، والإيثار، وغيرها من أعمال الخير يتمتعون منها في هذه الدنيا الفانية فقد جاء عن النبي صلّى الله عليه وسلّم " قرة عيني في الصلوة" وكذا قال "لو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً" وكذا ينقل ما يشبه هذه من العديد من الصحابة وأصحاب المعرفة. وهذا

من البديهي أن من قد تمتع من هذه اللذات في هذه الدنيا يشعر بلمحاتها في الآخرة حينما يشهدونها في صورها الحقيقية، وإن كان هناك سبب لتعريفهم بهذه النعم في الدنيا فهو القرآن وحده ولكن القرآن الذي قد نزل بهذه الأشياء والذي يعكس في الدنيا ما سيكون في الآخرة والذي آياته وسوره تجنّ أربعة الجنة، يعاملون معه الفاقدوا البصيرة بحيث يهزءون بأمثاله المبينة على وجه كاذب والحال أنه لو رأوا لمحة من تجليه لما يسكّن ظمأهم لرؤيته التامة.

23- تفسير الآيات (30-39)

وبعد توجيه الدعوة المذكورة أعلاه إلى بني إسماعيل وتحذيرهم عن تدابير اليهود الخفية قد ذكرت، في الآيات التالية (30-39) خلافة آدم وقصة مخالفتها من قبل الشيطان. إن هذه القصة تطوي بين جنبيها حقائق عديدة سيأتي تفصيلها في موقعها المناسب لها، ولكن هنا نودّ أن نشير، كمدخل، إلى جانبها الذي ترتبط عليه بما سبق من الحديث:

هذه القصة مرآة قد أرى فيها الله صورة ردّ فعل تامة بدت لليهود خاصة وللطوائف الأخرى عامة بعد بعثة الرسول ونزول القرآن فقد أصبحت اليهود أعداءً للنبي لأجل حسدهم وتكبرهم وعكفوا على تلك العداوة وبالعكس من ذلك فقد كان هناك آخرون لم يبتلوا بالحسد والتكبر قد دخلوا في دائرة الإسلام كلما زالت شبهتهم التي لم تكن تزول في البداية فقد أرى بها القرآن أن ردّ الفعل هذا يشبه ردّ الفعل الذي ظهر لإبليس والملائكة بعدما صدر الحكم لخلافة آدم عليه السلام فلما حكم الله على أن سيجعل آدم خليفة له على الأرض وأخبر به الملائكة فقد ثارت في أذهانهم شبهات عديدة عن هذا الحكم بادئ ذي بدء كما عرضوا شبهاتهم تلك على الله تعالى ولكن قد ثارت تلك الشبهات بما أن مشروع الله التام لم يتضح لهم جلياً وعلى هذا فلما اتضح لهم المشروع الكامل فقد زالت شبهاتهم كلها ورضوا عن خلافة آدم واطمأنوا إليها اطمأناناً وبالعكس من ذلك فما طرحه إبليس من الاعتراض على خلافة آدم كان على حسده وتكبره فقد زعم أنه خلق من النار بينما آدم مخلوق الطين اللازب وعلى هذا فآدم ليس بأحرى منه بهذه الخلافة ولم يسجد لآدم على أنه أشرف منه نسلاً.

فقد أرى القرآن أن نفس القصة قد أعيدت بعد ظهور بعثة محمد العربي ورسالته فمن يطلب الحق ويفضّل الحلم لو كان في ذهنهم شبهة عن رسالة النبي وكون القرآن كتاباً سماوياً فقد زالت بعدما اتضح لهم الحق أو ستزول فيما بعد ولكن

مخالفة اليهود بأسرها تبنى على الحسد والتكبر فهم يرونهم أفضل على بني إسماعيل نسباً كما يزعمونهم أفضل منهم بالنسبة لسيادتهم الدينية وعلى هذا فتضيق خواطرهم عن أن يقرّوا برسالة رجل أمّي فيعترفوا بسيادة الأميين عليهم وينعزلوا عن منصب إمامة العالم الذي قد تمتعوا منه حتى الآن.

ففي هذه الصورة قد عيّن القرآن درجة اليهود الأصلية أن دورهم في مخالفة رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم مثل دور مخالفة إبليس لخلافة آدم فالسبب الأصلي والدافع الأساسي وراء مخالفتهما من نوع واحد وقد قال بالتلميح إن عاقبتهما ستكون سواء. فكما قامت خلافة آدم على الرغم من مخالفة إبليس فكذلك ستقوم رسالة ونبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم على الرغم من مخالفة اليهود.

وكذا أشار إلى أن نشأة نزاع أو اعتراض لأجل شبهة معقولة ليس مما يعاب عليه فلا بد من نشأة نزاعات في قلوب أرباب الصلاح والحلم كما يعترضون على شيئ بناءً على تلك النزاعات ولكن بما أنه لا يكمن دافع من الحسد والتكبر وراء اعتراضهم فهم يعترفون بالحق بكل شرح لصدورهم كلما تزول شبهاتهم.

كأن هذه دعوة إلى الإيمان بأسلوب لطيف للغاية لمن لما يؤمنوا برسالة النبي لا لأجل حسدهم وتكبرهم بل لأن بعض جوانب دعواه ودعوته لما تتضح لهم تماماً. ضع سياق الحديث المذكور أعلاه أمام عينيك ثم اتلُ الآيات التالية فيقول الله تعالى:

"وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أ تجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون. وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال أ لم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين. وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. فتلقّى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم. قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم مني هدًى

فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أؤلئك أصحاب النار هم فيها خالدون".

24- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أ تجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون (30)

وإذ قال ربك للملائكة: حينما يبتدئ الكلام بالعربية بـ"إذ" فتحذف هنا "تخيّلوا" أو "تصوّروا" أو "تذكّروا" أو كلمة أخرى تشبهها، وتعمّها الإشارة إلى قصة أو حدث يعلمه المخاطب أو يطمئنّ المتكلم إلى حقّيته إلى حد يمكن له الإشارة إليه كحقيقة معلومة أو معروفة، ولو أنه قد أشير هنا إلى حدث يتعلق بآدم والملائكة وإبليس، وقع في عالم الغيب ولا يعلمه إلا الله تعالى ولكنه خوطب هنا أولاً محمد، صلّى الله عليه وسلّم، الذي كان يؤمن بما يذكره الوحي كأمر واقعي وحقيقة ثابتة ثم يرجع خطابها، كما أشرنا آنفاً، لليهود الذين كانوا يعرفون هذا الحدث عن طريق التوراة ولو أنهم حرّفوه فبدّلوا صورته الأصلية إلى حدّ بعيد.

الملائكة: الملائكة جمع المَلَك وبالعربية "ألوكة" تعني "الرسالة" والمَلَك (الذي أصله مَلْأك) يعني "الرسول" ولكن هذه الكلمة تختص بالملائكة الروحية التي نسمّيهم بالأردوية "فرشته" فالملائكة وسيلة موثوق بها بين الله وخلقه فهم يقتربون ويتصلون بالله اتصالاً شديداً لأجل روحانيتهم كما يتعلقون بالخلق لكونهم من الخلق، إنهم يستحقون ويؤهلون قبول الأنوار النازلة من الله تعالى مباشرة كما لهم صلاحية لنقلها إلى عباده تعالى، إنهم يحملون ما يوحيه الله إلى الأنبياء والرسل كما ينفذون أوامره وأحكامه فيما بين الخلق فصفاتهم التي ذكرها القرآن صفات طاهرة عليا لمخلوق عاقل ومريد وشاعر ولذا فمن يزعم أنها مجرد قوًى تم تعبيرها بالملائكة لا يصحّ زعمه هذا.

إني جاعل في الأرض خليفة: الخليفة تعني من يقوم مقامه في تنفيذ الأمر فيثور هنا سؤال: لمن أراد الله أن يجعله خليفة له تعالى أم لمن كان يسبقه سكناً على الأرض. يرى بعض الناس أن الأرض كانت معمورة بالجن قبل الإنسان فلما أفسدوا فيها شتّت الله شملهم وأقام مقامهم الإنسان كما يرى البعض الآخر أن الله قد أراد أن يجعل خليفة له في الأرض ولو أن الرأي الأول ليس مما لا أساس له تماماً ولكن لا نجد في القرآن أو التوراة أو حديث يجدر بالثقة به ما يثبت أن

الجن كانوا يحكمون على الأرض قبل الإنس فإن يمكن أن نقدّم شيئاً في تأييده فهو كالإشارة والكناية ولا يصحّ عندنا أن نبني حقيقة على الإشارة أو الكناية.
والرأي الثاني يبدو أقوى من الأول لوجوه عديدة: قد أشار القرآن إلى جوانب عديدة من فضيلة الإنسان مثلاً أن الله خلق كل ما خلق للإنسان وأمر الملائكة أن يسجدوا له وأنْ حمل الإنسان من الأمانة ما عجز عن حملها السماء والأرض. هذه كلها تؤيّد أن الله جعل الإنسان خليفة له لا للجن، ولكن يثور هنا سؤال عن هذا الرأي ولو أن الدلائل تعضّده وهو يجعل الخليفة له من يكون غائباً أو لا يحضر الأمور وأما الله فلا يغيب عن شيئ ولا يبتعد عن مراقبة الأمور فهو وحده كان حاكماً على السماء والأرض ويحكم عليهما للأبد فماذا يعني جعله أحداً خليفة له؟
إن هذا السؤال لا يهمّنا كثيراً وذلك لأن الغرض وراء جعل الخليفة أن يعطيه الله بعض التصرفات في نظم الأرض فيرى هل هو يستخدمها طبق مرضاته أم يكون مستبداً بعد نيل هذه الميزة ويعمل كيف يشاء. هذه هي صورة جعل الخليفة من قبل السلطة الحاكمة فمعنى ذاك أنه لم يكن في حاجة إليه لأنه يريد الغياب عن تلك بل لكي يمتحنه بعد إعطائه بعض الخيارات والامتيازات.
قالوا أ تجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء: الفساد في الأرض مصطلح يريد به القرآن أن يصرف الإنسان في نظم الأرض طبق مرضاته لا طبق أوامر وأحكام ربه فلا يطيع فيه شريعة الله ويطيع فيه هوى نفسه فيجعل مرضاة حاكمها الأصلي وراء ظهره وينفذّ ما يراه هو. إن هذا هو الفساد في الأرض على أوامر الله فهو الفساد لو كان بالقتال أو بصورة آمنة تحت اتباع لفلسفة أو فكرة خاصة فإن حاكمها الأصلي هو الله فالإنسان فيها ليس حاكمها الأصلي بل هو خليفته فيها فأمن الأرض وعدلها ينحصران في أن ينفّذ أمر الله في كل ناحية من نواحيها المتعددة فإن لم يتروج أمره تعالى في أي بقعة من بقاعها فهذا يعني أن تلك البقعة قد انتشر فيها العدوان على الله وهذا خطر شديد على ما بقي من البقاع.
إهراق الدماء نتيجة فطرية للفساد في الأرض فإذا لم يتروج حكم الله العادل فلا بد من أن يقوم مقامه هوى الإنسان وهي تسفر فعلاً عن فقد كفالة نفس أو مال أو عرض للإنسان فإن وضع مفسدوا بقعة خاصة من الأرض نظاماً يكفل بصيانة أنفس أفرادها ومالهم فيمكن أن يستخرجوا صورة لصيانتهم أنفسهم ولكنهم

يبقون خطراً طارئاً على غيرهم ومثله مثل شرذمة للقطّاعي الطرق قد اتفق أفرادها على أن لا يسلب أحدهم أموال الآخر ولكن لا يمنعهم قيدٌ عن سلب أموال أفراد غيرهم فلا يكفل بصيانة الناس كلهم وبقاع الأرض كلها إلا قانون الله الشامل العادل الذي يصون نفس كل من الناس وماله ويقيّدهم بالإنصاف كما يحرّرهم بالعدل.

فقد أظهر الملائكة مخافتهم بالنسبة للإنسان عن جهة كونه خليفة وذلك لأن كلمة الخليفة تعني أن له امتيازات وتصرفات يعطيه الله إياها في بعض الحدود فشعر الملائكة بأن استخدام الامتيازات ليس بأمر سهل فيمكن أن يضّل المرء بعد نيلها، الأمر الذي ينتج عدم الأمن فالفساد في الأرض.

ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك: التسبيح لغة الخضوع إلى أحد تضرعاً وهو يكون بالقول كما بالعمل فتسبيح الله بالعمل يعني الاستعداد التام للامتثال بأوامر الله كل وقت، فيسبحّه تعالى هكذا كل ما في الكون مما ليس فيه روح أو إرادة فعمل الإنسان الذي اعتبره الله بالتسبيح خاصة هو الصلوة فإنها صورة تامة للخضوع بالتضرع، والمراد من التسبيح بالقول ذكر سبحانية الله أي تنزيه الله وترفيعه مما يخالف شأن ألوهيته وهكذا فالتسبيح يغلبه الجانب السلبي ولكنه حينما أضيف إليه شرط الحمد، كما هو الحال هنا، فالتنزيه يضمّه معنى الإثبات أي وصف الله بالصفات التي يجدر عليها بالحمد والشكر بجانب تنزيهه مما يخالف ألوهيته من الصفات.

وأما "نقدّس لك" فهو يعني أن نذكر قدسيتك وعلوّك وتنزهك. والتسبيح، كما ذكرنا، يغلبه جانب التنزيه ولكن التقديس يشمل وصف الله بكافة صفات التطهير والتقديس، وقد ذكر التقديس بجانب التسبيح لأنه لا يتمّ أداء حق معرفة الله وتعريفه ما لم يذكر الإقرار بجانب الإنكار.

وإشارة الملائكة إلى تسبيحهم وتقديسهم لله بعدما عبّروا عن مخافتهم بالنسبة للإنسان لم يكن لأنهم كانوا يحسبونهم أحرى بالخلافة من الإنسان بل كانوا يريدون بها الإشارة إلى حكمة ومصلحة هذا الحكم، فعلى هذا قد أشاروا إلى ما شعروا به من المخافة المختفية في خلافة الإنسان في جانب وفي جانب آخر كشفوا القناع عن أن خلق الإنسان لن يستهدف إلى التسبيح والتقديس فحسب وذلك لأن هذه الخدمة نؤدّيها نحن.

قال إني أعلم ما لا تعلمون: وقد ردّ الله تعالى على السؤال المذكور للملائكة بأنكم لا تقفون على كافة جوانب هذا المشروع وعلى هذا فقد ثار في أذهانكم هذا السؤال فلما يبدُ لكم المشروع كله يتضحْ لكم ما وفّر له من أسباب السدّ لهذا النقص الذي أشرتم إليه.

وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (31)

وعلّم آدم الأسماء كلها: أسماء من علّمها الله تعالى آدم؟ يردّ على هذا السؤال على ثلاثة كما يلي:

أولها أنه علّمه أسماء كافة الأشياء وثانيها أنه علّمه أسماء الملائكة وثالثها أنه علّمه أسماء ذريته.

وأما القول الثاني فلا يدلّ عليه القرآن البتة فلا حاجة إلى الحديث عنه وأما ما بقي من القولين؛ الأول والثالث فثالثها أقوى عندنا وذلك لوجوه تالية:

أولاً: يبدو من القرينة أن لام التعرف التي دخلت على الأسماء هنا هي لام العهد فإن أقررناها لام العهد فيصحّ هنا أن نريد بها أسماء خاصة.

وثانياً: الضمائر وأسماء الإشارة التي استخدمت لها هي كلها مما يستخدم عاماً لمن له عقل وشعور وإدراك وإرادة لا لمن ليس له عقل وشعور فمثلاً قال: "ثم عرضهم على الملائكة" و"أنبئوني بأسماء هؤلاء" و"يا آدم أنبئهم بأسمائهم" و"فلما أنبأهم بأسمائهم".

وثالثاً: هنا أريد إقناع الملائكة فقد كانت الملائكة يخافون عن ذرية آدم أنهم سيفسدون في الأرض بعد أن يعطوا الخلافة فيها ويسفكون الدماء. فإن أمكن الردّ على مخافتهم تلك فيمكن أن يشاهد لهم ذرية آدم ويخبرون بمن سيولد في ذريته من الأنبياء والرسل والمجددين والمصلحين والشهداء والصديقين لكي يتضح لهم أنه لو أمكن أن يولد في ذرية آدم من سيسيئ استخدام الامتيازات التي أعطيتهم لأمكن كذلك مولد وبعثة من سيؤدّي الواجبات هو نفسه كما سيضحّي بنفسه لتنبيه غيره من أدائها.

إن هذه الأمور الثلاثة لها أهمية كبرى ولو يمكن أن يثار اعتراض ولو تافهاً على كل من هذه ولكن هذه الثلاثة تثبت بأجمعها دليلاً قوياً على أن المراد من الأسماء أسماء ذرية آدم لاسيما أسماء من سيولد لقطع دابر الفساد وإقامة العدل.

وأما السؤال: هل كانت تلك الذرية موجودة في ذلك الوقت فيشاهدون لهم وتذكر أسماؤهم فالردّ عليه يبدو من القرآن ذاته الذي يقول بالصراحة إن الله تعالى قد خلق ذرية آدم كلها مرة واحد فأخذ منهم ميثاق كونه رباً لهم فقد جاء فيه:
"وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم وذريتهم وأشهدهم على أنفسهم أ لست بربكم قالوا بلى شهدنا" (سورة الأعراف: 172)
فيبدو من هذا أن الله قد جمع كافة ذرية آدم في عالم الغيب قبل أن يبعثهم في هذه الدنيا وأخذ منهم الميثاق لكونه رباً لهم فيمكن أن قد أخبر آدم بأسماء ذريته في هذا المجتمع كما قدّم أمام الملائكة وجرى النقاش بينه وبين الملائكة، الذي قد تمت الإشارة إليه.
أنبئوني بأسماء هؤلاء: أي لو أنكم صادقون في مخافتكم بأن ذرية آدم سيفسدون في الأرض بعد نيل الخلافة فاذكروا لي أسماء هؤلاء. هل هؤلاء مفسدون في الأرض أم مقيمون الأمن والعدل؟ وما روعي فيه من جانب الإقناع للملائكة هو أنه لما تريد إحكام رأي عن معاملة بني آدم فلا يمكن إلا إذا علمتهم من كل جانب ولكنه إذا لم تقفوا عليهم تماماً فلا ينبغي لكم أن تسيؤوا الظن عنهم.
قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم (32)
سبحانك: قد استخدمت هذه الكلمة بمناسبات شتى في القرآن وهي كما يلي:

- تنزيه الله عن الأقوال اللايعنية وغير الملائمة بجلالته: فقال مثلاً: "سبحان الله وتعالى عما يشركون" (سورة القصص: 68).
- بمناسة الدعاء: فقال مثلاً: "دعواهم فيها سبحانك اللهم" (سورة يونس: 10)
- بمعنى الأمر: فقال مثلاً: "فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون" (سورة الروم: 17)
- الإنكار بشيئ مع التعجب: فقال مثلاُ: "سبحانك هذا بهتان عظيم" (سورة النور: 16)

وقد استخدمت هذه الكلمة هنا لمعناها الأول أي كان الملائكة يريدون بقولهم ذلك أن جلالتك أرفع وأعلى عن أن يتمّ بيدك فعل يخلو من الحكمة والمصلحة فالشبهة التي ذكرناها قد برزت لمجرد قصر علمنا فإننا لا نمتلك من العلم إلا ما أعطيته لنا فخزينة العلم والحكمة الأصلية عندك ولا غير.

قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (33)

ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات: وهنا أحال الله تعالى إلى قوله الذي قد مضى في الآية الثلاثين أي "إني أعلم ما لا تعلمون". أولاً قيل هذا بالإجمال ولكنه حينما أقنِع الملائكة جيداً كما اقتنعوا هم أنفسهم فقال هذا بشيئ من التوضيح لكي يتضح جلياً أنما يحدث في هذا الكون لا يعلم حكمه ومصالحه إلا من خلقه ويديره فلا يعلمها الملائكة الذين هم المقتربون من الله ولا يمكن لهم أن يعلموا قبل أن يعلّمهم الله فإن يبدُ فعل من الله خالياً من الحكمة والمصلحة بادئ ذي بدء فلا يعترض أحدٌ على الله بناءً عليه ولا يربّ الشبهة والشك في قلبه بل يحمله على قصر علمه ويقرّ بما أقرّ به الملائكة "سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم" لأن أي فعل من الله لن يخلو من الحكمة والمصلحة ولكن فهم حكم ومصالح كافة أعماله لن يمكن للخلق لا للملائكة ولا للجن ولا للإنس.

وأما سرد القول "وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون" مع هذا فهو يعني أني كنت أفهم سؤالكم كما كنت أفهم الدافع المختفي وراء هذا السؤال وذلك لأنكم لم تعرفوا ما كمن من مشروع خلافة آدم فكنتم تودّون أن يبرز لكم عياناً وعلى هذا فقد أشرتم، في صورة سؤال، إلى مساوئ هذا المشروع التي قد بدتْ لكم لكي يوضّح لكم محاسن هذا المشروع وعلى هذا فقد تم تحقيق أملكم هذا عن طريق مشاهدة ذرية آدم وإخباركم بأسمائهم. وقد بيّن الله تعالى هذا كنعمة على الملائكة أن قد رُدّ على ما بطن من سؤالكم كما أجيب على ما ظهر منه فلا يوجد فيه أي جانب من لومة الملائكة ومعيبهم.

وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين (34)

وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم: السجدة تعني الركوع وللركوع درجات فركوع الرأس أمام أحد لتعظيمه سجدة كما وضع الناصية والأنف على الأرض سجدة وقد كان هذا النوع من التعظيم جائزاً لغير الله في الأديان القديمة ولكن كان حدّه ما نسمّيه "الركوع"، وقد عمّ بني إسرائيل هذا النوع من السجدة وما يتعيّن من صورتها في ضوء مختلف مواضع التوراة هي تشبه الركوع ولما جاء الإسلام خصّ هذا النوع من التعظيم لله جلّ مجده فقط وذلك لأن الإسلام آخر الأديان

السماوية وأتمّها فلما أراد أن يكشف القناع عن شكل التوحيد التام منع هذا النوع من التعظيم والتذلّل إلا لله تعالى كيلا يبقى أي فطور من حيث يمكن تسلّل الشرك فيه.

وأما أمر الملائكة بالسجود لآدم فلا يوجد فيه جانب من الشرك وذلك لأن هذه السجدة جاءت أولاً بأمر الله تعالى فكأنها كانت السجدة لله تعالى ذاته وثانياً أن السجدة اعتبرت، في الإسلام، آية للشرك كما ذكرنا وأما قبل ذلك فلم تكن إلا نوع من التعظيم فإن قيل للملائكة أن يسجدوا لآدم فمعنى ذاك أن يعظّموه ولا غير.

ولم أمر الملائكة بتعظيم آدم؟ إن هذا نوع من امتحان الله تعالى لطاعة الملائكة وعبوديتهم، والمرء يمتحن فيما يشقّ نفسه وبما أن الملائكة قد خلقوا من النور وقد خلقوا لتسبيح الله وتقديسه فالامتثال بأمر الله في تعظيم آدم الذي خلق من الطين نوع من ابتلائهم الشديد ولكن الملائكة كانوا يفهمون جيداً أن أصل العزة والعلو لا يرسخ في النور أو النار بل طاعة أوامر الخالق بدون أي اعتراض واشتباه فقد نجحوا في ذاك الامتحان.

ولا شك في أن سجود الملائكة لآدم يشير إلى جانب من علوّ وسموّ آدم ولكن المراد هنا ليس ذكر سموّ آدم وعلوّه بل إظهار طاعة الملائكة لكي يتضح أن من هو يطيع الله مخلصاً لا يغترّ بالأصل والنسب كما اغترّ إبليس فتكبّر بل يعتبر كل هذه فضلاً من الله ونعمة منه له، وشعوره بذاك الفضل أو تلك النعمة لا يخلق فيه التكبر بل التواضع والعبادة لخالقه تعالى.

وأما بالنسبة للمحل فهذه نصيحة لبني إسرائيل الذين قد اتبعوا الشيطان في أمر النبي الأمي صلّى الله عليه وسلّم وهكذا فسقطوا في فتنة الأصل والنسب بدلاً من أن يختاروا سبيل الملائكة.

ومن يرى أن تعظيم آدم هذا من قبل الملائكة نتيجة لفضل آدم العلمي على الملائكة ليس خيالهم هذا يبنى على أساس قويم لديّ فكما حصل لآدم علم أسماء ذريته على أنها قدّ أخبره بها الله فكذلك حصلت للملائكة لأنّ آدم أخبرهم بها فأي جانب لفضل آدم على الملائكة، أمر عليه الملائكة بأن يسجدوا لآدم وكذا لا يوجد دليل قوي على أن الملائكة أمروا بتعظيم آدم هذا حينما أخبرهما آدم بتلك الأسماء، ولا شك أن الأمر بالسجود قد تأخر عن ذكر الأسماء ولكن لا يكفي هذا القدر من التقديم والتأخير أن الشيئ الأول نتيجة الشيئ الثاني، فقد ابتدئ الأمر

بالسجود بحرف "إذ" الذي يشير شديداً إلى أن يكون هذا كلاماً مستقلاً فلا يلزم أن يسبقه الأمر الأول ثم يبدو من قراءة غير هذا من مواضع القرآن أن الملائكة لم يؤمروا بالسجود لآدم قبل إظهار فضل آدم العلمي فحسب بل قد أمروا بذلك قبل خلقه عليه السلام فمثلاً قال تعالى:

"وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون. فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين" (سورة الحجر: 28-31)

وفي القرآن آيات أخرى تشبه هذا المفهوم، يبدو منها أن الملائكة أمروا بالسجود لآدم قبل خلقه عليه السلام كما يبدو منها أن الهدف الأصيل وراء هذه السجدة امتحان طاعة الملائكة ووفائهم وعلى هذا فقد أشير خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون لكي يتضح للملائكة ما يكمن من جانب الابتلاء وراء هذا الامتحان وقد أشرنا من قبل إلى أن المرء يمتحن فيما يشق على النفس فقد كان هذا بلاءً شديداً للملائكة أن يسجدوا لآدم المخلوق من صلصال من حمأ مسنون مع أنهم ممن خلق بالنور ولكنهم كانوا يعرفون جيداً أن الشيئ الذي يعزّ أو يذلّ هو طاعة الله تعالى لا الانتساب إلى النور أو النار وعلى هذا فقد نجحوا في هذا الاختبار ولو كان صعباً للغاية، كما أن إبليس قد خاب فيه وفشل لأجل تكبره.

ويمكن أن يخطر ببال أحد منكم أن السجود لآدم سبقه خلق آدم وتركيبه في بعض الآيات فلا شك أن المحتوى تمّ ترتيبه كما ذكر ولكن يبدو بعد التفكير في مثل تلك المواضع أن هدف الله من هذا ذكر نعمه على الناس لا ذكر تقديم الحدث أو تأخيره.

إلا إبليس: هذا على وزن "إفعيل" من أبلس أي حزن وأنكر ويئس و"إبليس" لقب الجني الذي أنكر بالسجود لآدم وقد صرّح القرآن أنه كان من الجن فقد جاء في سورة طه "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه".

وقد ذكر القرآن من بين الخلق المكلّف ثلاثة؛ الملائكة والجن وبنو آدم. فالشيطان ليس بمخلوق مستقل بذاته فمن يختار سبيل العدوان على الله من الجن والإنس يضمّه ذرية إبليس وأوليائه فلم يفطر مثل هؤلاء الجن أو الإنس على الضلالة فقد فطروا على الفطرة التي فطر عليها عامة الإنس والجن ولكنه بما أن الله تعالى قد جعل الإنس والجن أحراراً في بعض الأمور فمن يختار منهم

سبيل الضلالة يتركهم الله على ذاك السبيل ويمهلهم فيه فقد ذكر الله سنته هذه في غير موضع من كتابه العزيز ونوضح مختلف جوانبها في المواقع المناسبة بها.
وسيخلّ هنا شيئ بأذهان بعض الناس وهو أن الأمر بالسجود قد وجّه إلى الملائكة لا إلى الجن فلم استحق إبليس الذي كان من الجن، اللعنة؟ والردّ على هذا أن الفرق الأصيل بين الجن والملائكة هو عن جهة الخصائص والصفات فالجن لا يبعدون عن الملائكة بالنسبة لخلقهم فإن الملائكة قد خلقوا من النور كما أن الجن تمّ خلقهم من النار وعلى هذا فيبدو أن هذا الأمر قد شمل الجن على سبيل التغليب، ولكن أحد أفرادهم الضالّ إبليس قد أنكر بالسجود له. قد ذهب هذا المذهب بعض المفسرين وإني أراه قوياً قاطعاً[1].
وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (35)
ولا تقربا هذه الشجرة: وبما أنّ لام التعريف داخلة على الشجرة فيتضح منها أن هذه الشجرة قد نبّه بها آدم وحواء عليهما السلام بالتعيين والتخصيص، وأما السؤال عن ماهية الشجرة فلا ردّ عليه القرآن الكريم ولا الأحاديث الشريفة فمحاولة العلم عنها شيئ لا يعود بفائدة وأصحّ مذهب عندي ما اختاره ابن جرير رحمه الله تعالى فهو يقول بأنا لا نقول شيئاً بالتعيين عن ماهية هذه الشجرة فإنا لا نمتلك دليلاً على تعيينها لا من القرآن الكريم ولا من الأحاديث الشريفة وإذن فماذا يقول أحدٌ وعلى أي أساس يبني كلامه؟
فلا حاجة، عندنا، إلى العلم بماهية هذه الشجرة فما يريد القرآن أن يدلّ عليه هو أن الله تعالى كما امتحن طاعة الملائكة والجن ووفائهم بأمرهم بالسجود لآدم فكذلك امتحن طاعة آدم ووفائه بتحريم شجرة من أشجار الجنة فلم تكن في هذه الجنة المليئة بالنعم والبركات إلا شجرة منع آدم أن يستفيض منها، ولكن هذا من فطرة الإنسان أنه يكون أحرص على شيئ منع عنه فاستفاد إبليس من ضعف آدم هذا وجعل يقنع بأن سرّ الخلود والملك الذي لا يفنى يكمن في أكل ثمرة هذه الشجرة وحدها والتي منعت عنها، وبالتالي فقد اغترّ آدم بما قال له إبليس وأكل

---

[1] وقال القاضي البيضاوي:
"أو الجن أيضاً كانوا مأمورين مع الملائكة لكنه استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم إذا علم أن الأكابر مأمورون بالتذلل لأحد والترسل به علم أن الأصاغر أيضاً مأمورون به والضمير في "فسجدوا" راجع إلى القبيلتين".

من تلك الشجرة، ولكنه بعد أن ارتكب هذا الخطأ لم يصرّ على ما فعل بل ندم عليه وتاب.

ونفس الوضع نمارسه في دنيانا هذه فقد شرع لنا كافة نعم هذه الدنيا إلا أشياء معدودة منعنا عنها الله ولكن معظمنا يغترّ بوساوس الشيطان فيزعم أن سرّ تقدّمنا وتقدّم العالم كله ونجاحه كامن في هذه الأشياء التي منعنا الله عنها وهذا ظلم على ظلم أنهم لا يندمون على ما يرتكبونه كما فعله أبوهم بل يعتدون مثل إبليس ويصرّون على ما فعلوا.

قد سمّيت هذه الشجرة في التوراة بشجرة المعرفة للخير والشر، ولو أن هذا شيئ بديع ولكنه لا يصحّ عندنا. ولعل شارحي التوراة قد اختاروا، أول ما اختاروا، هذا الأمر كتأويل لهذه الشجرة أي لما أكل آدم وحواء من هذه الشجرة عروا من ملابسهم، ولو أن هذا الشيئ دخل التوراة أولاً كتأويل ولكنه قد أصبح جزءًا من نص التوراة عن طريق التحريف بما أنه كان جاذباً للغاية، وقد ذكر القرآن أنه لما أكل آدم وحواء من هذه الشجرة أصبحوا عريانين ولكنه لا يبدو منه أن عريانهم قد أسفر فيهما عن التدفق في تيقظ عقولهما ووعيهما بل يبدو منه أنهما قد ظلما على أنفسهما باعتدائهما على الله وبالتالي فقد عروا عن ملابس الجنة.

لو كان آدم فاقد الشعور قبل أكله من هذه الشجرة ولم يكن له وعي عن ستر ما وجب ستره من أعضاء بدنه فامتحانه آنذاك وهو بيدي إبليس الماكر شيئ يخالف العقل فكان واجباً أن يشعر على الأقل بأن يفهم خيره من شره قبل أن يوسوسه الشيطان وإلا فسقوطه في فتنة الشيطان كان أسهل بكثير، وهذا أبعد من عدل الله أن ينصبه مقابل الشيطان ومكره ثم يقبض عليه على ما زلّت قدماه.

فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين (36)

اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ: الخطاب في "اهبطوا" كما يرى ابن عباس وغيره من المفسّرين، موجّه إلى آدم وحواء وإبليس ولكن ابن زيد يراه موجهاً إلى آدم وحواء وذريتهما. والتأويل الصحيح عندنا ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنه. وله وجوه تالية:

أولها: بما قيل "بعضكم لبعض عدوّ" فإن هذه العداوة إذا كان لها أساس فطري فلا بد من أن يكون هذا بين آدم وإبليس لا بين آدم وحواء فإن هناك علاقة الودّ والألفة بين آدم وحواء لا علاقة البغض والعداوة وكذا توجد علاقة الأخوة

والمحبة بين بني آدم وهذه علاقة فطرية فإن انتشر بينهم بذور العداوة والبغض فيمكن انتشارها بسعي الشيطان ثم تنمو بفضل إثارة القتال بينهم فليس الإنسان قابلاً لتنمية هذه البذور السلبية، وقد أكثر القرآن ذكر هذه العداوة الفطرية بين الشيطان وآدم فجاء مثلاً:

"فقلنا يا آدم إن هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنة" (سورة طه: 117)

وقال أيضاً:

"أ فتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهو لكم عدوّ" (سورة الكهف: 50)

فإن عقد بعض بني آدم أواصر الودّ بينه وبين إبليس وذريته فهذا لا يعني أنّ العلاقة الفطرية بينهما علاقة الودّ والإخلاص فالعلاقة الفطرية بينهما علاقة العداوة وينبغي أن تكون كما هي كما يبدو من آيات سورة الكهف المذكورة أعلاه ولكن معظمنا يظنون أعداءهم أولياء على جهلهم ورغبتهم عن العواقب فيغترّون بهم ويدمّرون أنفسهم.

وثانيها: أن القرآن قد صرّح في مواضعه الأخرى أن إبليس قد أمر بالخروج عن الجنة كما أمر آدم بالخروج عنها فقد جاء في سورة الأعراف: "قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين".

وثالثها: أنه قد استخدمت كلمة "جميعاً" في بعض المواضع تأكيداً عليه فقال مثلاً في سورة طه "اهبطا منها جميعاً" كما قال في سورة البقرة نفسها "قلنا اهبطوا منها جميعاً". فإن أريد منه الخطاب إلى آدم وحواء فاستخدام كلمة "جميعاً" لا يعني هذا الموضع وإن وهبنا، لجعلها مفيدة، أن هذا الأمر كان متعلقاً ببني آدم مع آدم وحواء فسيكون هذا من نوع التكلف فإنه لا يطلب من ذرية آدم حتى الآن سوى الإقرار بربوبية الله من قبلهم ومشاهدتهم من قبل آدم والملائكة، فلا نجد في القرآن دليلاً على أن ذرية آدم كانوا في الجنة مع أبويهم فأخرجوا عن الجنة نتيجة الجريمة التي ارتكبها أبوهم.

وأما أنه قد جاءت صيغة المثنى في بعض مواضع القرآن وهذا دليل واضح على أن الخطاب كان موجهاً إلى آدم وحواء فلا يقوم له وزن ملموس عندنا. فلا شك أن القرآن قد استخدم صيغة المثنى في بعض مواضعه فقال مثلاً "اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدًى فمن تبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى" (سورة طه: 123) ولكن صيغة المثنى هذه لم تستخدم لآدم وحواء

بل قد استخدم، كما يدلّ عليه سياق الكلام وسباقه، لآدم وإبليس كفريقين وجماعتين، وأما عن أمر الهداية فهي للجن كما للإنس.

فتلقّى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم (37)

فتلقّى آدم من ربه كلمات فتاب عليه: التوبة تعني الرجوع، وحينما هي تأتي بصلة "على" فيضمنها معنى الرحم.

يبدو من كلمة "تلقى" أن كلمات التوبة هذه قد نزلت على آدم من الله جل وعلا فقد أحيل في غير هذا الموضع إلى مثل هذه الكلمات: "قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين" (سورة الأعراف: 23).

فتشوق آدم إلى التوبة وإلقاء كلمات التوبة في قلبه يشيران إلى سنة الله التي مارسها بالنسبة للتوبة وهي أن العبد حينما يرتكب خطأ يثر في نفسه تلقائياً الندامة على ما فعل والشعور بالرجوع إلى الله تعالى، وهذا الشعور مما تقتضيه فطرته وهو لم يزل يثور حتى يصرّ المرء على ما فعل ويمحو ذاك الشعور من قلبه، ولأجل هذه الخدمة الخاصة قد أودع الله في المرء نفساً لوامة. وسنفصّل عنه بمناسبة أخرى إن شاء الله تعالى.

قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم مني هدًى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (38)

قلنا اهبطوا منها جميعاً: ذكرت هذه الكلمات مرتين فمرة حينما زلت قدما آدم وأخرى بعد توبته فذكرها بعد الزلة جاء لبيان نتيجة تلك الزلة وأما ذكرها بعد التوبة فجاء لبيان حكمة ذاك الامتحان. فيعني أن الله سيرسلكم إلى الدنيا ويريد منكم امتحانكم لكي يميز خيركم من شركم فمن نجح في هذا الاختبار تماماً فهو يرث هذه الجنة ومن خاب وفشل فسيحرمها.

فإما يأتينكم مني هدًى: هذا أول وعد من الله تعالى مع آدم وذريته لبدأ سلسلة النبوة والرسالة فقد بدا من زلة آدم من ضعف الفطرة والعقل الإنسانيين ما يثبت أن الإنسان يحتاج إلى الوحي الرباني ومعونة الأنبياء الكرام، وعلى هذا فقد وعد الله معهم تسلية لهم وتعزية أنه سيبعث نوراً من عند نفسه لهداية المرء فمن يقدر هذا النور فلا يخافون ولا يحزنون.

فكلمات "لا خوف عليهم ولا يحزنون" تعبير قرآني عن الجنة فإن تفكّر تجد أن هذه الكلمات جامعة للغاية للتعبير عن الجنة فالخوف يكون من خطر طارئ

بينما الحزن على خسارة في الماضي أو المستقبل، فالمكان الذي يخلو من حزن على الماضي وخطر عن المستقبل لا يكون إلا الجنة.

والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (39)

والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا: هذه الآية جاءت مقابل الآية السالفة ففي الآية السالفة ذكر جزاء من سيتبع هدى الله المنزلة وفي هذه الآية ذكر عاقبة من سيكذّب بآياته تعالى.

الآيات جمع آية وهي تعني العلامة والأثر.

قد استخدمت هذه الكلمة في القرآن للدلائل والعلامات التي هي متواجدة في كل ناحية من نواحي السماء والأرض والنفس وتشهد بقدرة الله وحكمته وتوحيده وقانونه للثواب والعقاب كما تم استخدامها للمعجزات التي تظهر على أيدي الأنبياء الكرام أو التي لم يزل الكفار يطلبونها منهم، ولآيات القرآن التي يتم تركيب سوره بها فاستخدامها لآيات القرآن دليل على أنها ليست بأحكام تفقد الدلائل بل كل آية منها تثبت دليلاً وحجة.

25- إرشادات مجموعة الآيات (30-39)

الحقائق التي يشملها هذه المجموعة من الآيات قد أشرنا إلى معظمها لدى شرح الكلمات وتفسير الآيات وهذه الإشارات تكفينا دالةً على الجهة الصحيحة ولكن هناك حقائق في داخلها، تردّ على الأسئلة التي تبنى عليها الفكرة الإسلامية والفلسفة والنظام الإسلامي فمثلاً ما هي درجة الإنسان الأساسية في هذه الدنيا؟ هل الإنسان مستقلّ بالحكم أم متقيّد بالقيود؟ هل هو مسئول أم لا يسئل عنه؟ هل هو مجبور أم له خيار مطلق؟ وهل أرسله أحد إلى هذه الدنيا أم جاء هو بذاته؟ وهل وجوده وجود فرديّ يختصّ بنفسه فقط أم له وجود اجتماعي؟ وهل عقله وفهمه يكفيان هدايته أم يحتاج إلى هداية أخرى تأتي من خارجه؟ وما هي نوعية علاقته مع غيره من عناصر هذا الكون؟ وهل هو مفطور على الشر أم على الخير؟ وما هو مصدر الشر الذي يوجد فيه؟ هذه وغيرها من العديد من الأسئلة التي تجيب عليها هذه الآيات. فالآن نريد أن نجيب على كل منها بالترتيب الملائم.

أول ما يتضح من قراءة هذه الآيات أن الإنسان بعث في هذه الدنيا كخليفة لله ونائبه وقد صرّح القرآن عن هذا، وإن تفكروا على حقيقة هذه الخلافة فتجدون

أنها تتطلب أشياء واجبة لا يتم تصور الخلافة بدون أدائها، وهذه الواجبات، عندنا، كما يلي:

أولها: أن الله وهب الإنسان خياراً في نطاق خاص وذلك لأن الذات الذي يحضر كل مكان ويراه، ويقدر على كل نوع من التصرفات، ولا يحتاج إلى معونة أحد، ولا يمسه الحاجة لثانية للقعود عن شئون مملكته والغياب عنها، لا يعني جعله أحداً خليفته ونائبه سوى أن يمنح خليفته خيارات ثم يمتحنه كيف يستخدم هذه الخيارات فهل يمارسها طبق مرضاة مستخلفه أم يضع مرضاته وراء ظهره فيمارسها كيف يشاء هو نفسه.

وثانيها: فإذا كان الإنسان خليفة أم نائباً لله فتقتضي هذه الخلافة أن يحدّد المستخلف حدود حرية خليفته فيوضح له ما هي الأمور التي يجب فيها الاعتناء بقيود المستخلف وما هي التي هو حرّ في الحكم عليها على بصيرته وبعبارة أخرى أن الخلافة أو النيابة تتطلب مما تتطلبه أن ينزل من الله ما يستهدي به الإنسان في شئون دنياه.

وثالثها: وإذا كان الإنسان خليفة لله ونائبه فتصور استقلاله بالحكم وعدم مسئوليته باطل أصلاً فلن يترك مستخلف قدير عليم خبير خليفته سدًى فليحاسبنّه على كل خيانة ويجزينّه خير الجزاء إن مارس واجباته على الوجه الصحيح.

ورابعها: تقتضي فطرة منصب الخلافة أن يشترط في هذا المنصب صفات فلا يخلو عنها أي ولو أن هذا المنصب عامّ بني آدم كلهم فكل إنسان خليفة لله ولكن هذا من مقتضى فطرة هذا المنصب أن يستحقّه من يؤدّي حق خلافة الله بصورة موفية فمن لا يؤدّي هذا الحق فهو ليس بخليفة الله بل هو من المعتدين عليه والخائنين له.

وخامسها: أن هذا المنصب، بالنسبة إلى مزاجه، منصب لا يختص بكل فرد على حدة بل هذا منصب اجتماعي وسياسي فعلى كل إنسان أو على الأقل من يؤمن بمسئوليات هذا المنصب أن يؤدي واجبات هذا المنصب فرادى كما عليهم أن يؤدوها جماعات فيقيموا بنظام لتحقيق أغراضه وذلك فإنه لا تحقق أغراضه بدون ذاك النظام.

وسادسها: تكفل هذه الخلافة الخير والفلاح ما دامت تسير طبق أوامر وإرشادات مستخلفها الأصلي فإن جعل المرء أوامره وراء ظهره ثم يسيّرها طبق هواه فلا مناص من أن يعمّ الأرض الفساد.

والحقيقة الثانية التي تبرز من هذه الآيات هي أنه لما رفع الإنسان إلى هذه الدرجة بحيث سجد له الملائكة ولعن على إبليس لمجرد أنه أنكر السجود له فكيف يليق بدرجته هذه أن يشرك بالله أحداً من الجن أو الملائكة فيعبده فكما يتعلق بالله فالمرء عاجز أمامه كما أن الملائكة والجن عاجزون فمبلغ العلم الذي يمتلكونه ليس من عندهم بل مما وهبهم الله تعالى فإن أراد الله فيمكن أن يسبق الإنسان الملائكة في العلم فعلى هذا لا يستحق العبادة إلا الله جلّ مجده فإن يشرك به الجن والملائكة فلا يهتك عزة الله فحسب بل عزته أيضاً.

والحقيقة الثالثة التي تبرز من هذه الآيات أن الإنسان لم يفطر على الجريمة والفساد بل خلقه الله تعالى على الخير وأودع فيه المؤهلات الحسنى والجدارات فإن يخض في الآثام فليس بأنه مفطور على الإثم بل على أنه يسيئ استخدام الخيار الذي وهبه الله ولا يفعل هذا إلا لغرور الشيطان إياه وذلك بأن الشيطان يحرّض الإنسان على بعض القيود التي وضعت على حريته بحيث أنها هي التي تمنعه عن كافة أسباب الرفاهية ورغدة العيش فإن اجترأ على كسرها وتجاوزها فستفتح له كافة أبواب الرقي والرخاء وبما أن فائدة مشورة الشيطان هذه تبدو حاضرة للإنسان فهو يغترّ به ويخوض في الإثم مخالفاً لمتطلبات فطرته العليا.

وقد فتح الله سبيل التوبة والإصلاح لتطهيره عن ذاك الإثم فما صدر عن آدم من الزلة عفاها الله عنه بعد توبته ثم إن أرسله في هذه الدنيا فلم يفعل ذلك لأجل خوضه في الإثم بل لأجل امتحانه لكي يثبت صموده لغرور الشيطان فيدخلوا الجنة مرة أخرى، التي أخرج منها.

فهذا القول من القرآن يردّ على زعم النصارى الذي يعمّهم بالنسبة لكون آدم آثماً أبدياً أزلياً والذي قد ابتدعوا فلسفة الكفارة للحل عن عقده.

والحقيقة الرابعة التي تبرز منها هي أن كل أمر من الله يطوي بين جنبيه حكماً ومصالح دقيقة ولكنه لن يقف عليها أحد من الجن والملائكة والإنس ما لم يخبرهم الله عنها فالمعاملة الصحيحة للإنسان لمعرفة أعماله تعالى أن يواصل جهوده للعلم عن حكمها ولكنه إذا لم يعرف حكمة أمرٍ ما فلا يجعله عرضة للنقد والمخالفة بل يحسن ظنه بأنه لا بد من أنه يختفي فيه حكمة دقيقة لا يكاد يعرفها لأجل قصر طول باعه في مجال العلم والمعرفة. وبعد اختيار هذه المعاملة يمكن للإنسان أن يستقيم على جادة الإيمان والإسلام وهذه هي معاملة الملائكة وأما من يجعل البضاعة القليلة لعلمه المحدّد معياراً لوزن علم الله وحكمه فهو يسقط

في هذا النوع من العناد والأنانية، الذي قد وقع فيه إبليس ذاته فلا يمهّد لهذا النوع من الناس سبيل للإيمان والمعرفة بل وحتى يغلق ما قد فتح لهم من السبيل.

والحقيقة الخامسة التي تبرز من هذه الآيات هي أن الإثم الذي يصدر عن مجرد ضعف إرادة المرء يختلف مزاجه عن الإثم الذي يصدر عن الحسد والتكبر فترجى، في الغالب، التوبة والإصلاح بعد صدور الإثم عن ضعف الإرادة فالله يوزع مثل هؤلاء الناس إذا لم ينسوا أنفسهم تماماً ويهديهم إلى الصراط المستقيم وبالعكس من ذلك من يعتدي على الله حسداً وتكبراً يشتدّ مرضه . ومثل هؤلاء الناس يحيون على سبيل مرشدهم إبليس ويموتون عليه بدلاً من أن يتوبوا إلى الله فيقبلوا أي إصلاح، وإثم آدم كان من النوع الأول وعلى هذا فقد وفّقه الله التوبة وأما إثم إبليس فهو كان من النوع الثاني وعلى هذا فقد حرم التوبة والإصلاح ولعنه الله تعالى.

والحقيقة السادسة التي تبرز من هذه الآيات هي أنه بما أن الله أمهل الشيطان لغرور الإنسان فأوقع الإنسان في امتحان شديد للغاية فقد تطلبت رحمته أن لا يترك أمر هداية الإنسان وإصلاحه على عقله وفطرته فقط بل يوفّر لإيقاظ فطرته وصيانة عقله عن الضلالة ولذلك فمن يريد خيار سبيل الهدى فيختاره على وجه البصيرة كما يختار سبيل الضلالة بعد إتمام الحجة من يريد خيار هذا السبيل فهذا هو الهدف الأصيل وراء قيام النبوة والرسالة ولا يعزّي الإنسان ويسلّيه في موضع الامتحان هذا إلا إرشادات وتعاليم الأنبياء فإن سلبت منه فلا يصعب أن يقع المرء في كل فتنة تقبل إليه فإنما يوجد في فطرته من الفراغ لن يمكن ملؤه إلا باتباع تعاليم الأنبياء ولن يمكن للمرء أن يصون نفسه عن فتنة الشيطان.

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

منهج ابن الديْبع في كتابه:
"حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله المصطفين الأخيار"

- د. يسري زيدان

تمهيد:

حظي القرن العاشر الهجري بالعديد من المؤرخين الكبار الذين ألّفوا العديد من التآليف التاريخية التي أسهمت في الكشف عن تاريخ المسلمين وحضارتهم في هذا القرن، وفي إماطة اللثام عن الكثير من الأحداث التاريخية السابقة على هذا العصر. ومن أبرز هؤلاء المؤرخين الكبار: السخاري (ت 902هـ) والسيوطي (ت911هـ) والسمهودي (ت911هـ) وابن النجم (ت922هـ) والنعيمي (ت 927هـ) وابن إياس (ت 930هـ) وابن الحمصي (ت 934هـ) وزين الدين الحلبي (ت 936هـ) وابن الديبع (ت 944هـ) وابن طولون (ت 953هـ) وغيرهم.

وقد نال بعض هؤلاء عناية فائقة من الباحثين المحدثين في رسائلهم الجامعية أو في أبحاثهم وكتاباتهم، فسلطت الأضواء عليهم وعلى تصانيفهم التاريخية، وأبرزت أعمالهم وجهودهم التاريخية والحضارية، بينما لم يحظ بعضهم بهذا الاهتمام أو بتلك الدراسة. ومن هؤلاء الذين لم ينالوا حظهم بالدراسة والبحث المؤرخ الكبير ابن الديبع (ت 944هـ/1537م).

وابن الدِيْبَع هو عبد الرحمن بن علي بن يوسف، المعروف بابن الديبع وهو لقب جده علي بن يوسف ومعناه بلغة النوبة "الأبيض"[1]. وهو علّامة محقق، ومحدّث

[1] الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، 158/2

حافظ، ومؤرّخ ثبت. ولد سنة 866هـ/1461م في مدينة زَبيد، ونشأ في رعاية جده لأمه. ولم تر عيني مؤرخنا الفقيه المحدّث ابن الديبع والده لسفره إلى الهند؛ طلباً للرزق، فمات بها سنة 876هـ/1471م. بينما كفل ابنَ الديبع جدُّه لأمه العلامة الصالح شرف الدين إسماعيل بن محمد بن مبارز الشافعي (ت 884هـ/1479م) فربّاه وعلّمه ورعاه حتى وفاته ثم تعهده خاله أبو النجا بالتربية والتعليم. وحفظ ابن الديبع القرآن الكريم في صغره، وتلقى القراءات القرآنية على خاله أبي النجا، ودرس الحديث والتفسير والفقه والفرائض والعربية على علماء عصره باليمن، كما تعلّم الحساب والجبر والمقابلة والهندسة، وحجّ مراراً وأخذ عن الحافظ شمس الدين السخاوي وعلماء الحرمين إذ ذاك. وقد برع ابن الديبع في العلوم السابقة كلها، لا سيما في علم الحديث.

وخلف ابن الديبع مؤلفات عديدة في العلوم المختلفة التي برع فيها، ومن هذه التصانيف: "تيسير الوصول إلى جامع الأصول" هذّب فيه جامع الأصول لابن الأثير، وجمع فيه الكتب الستة. ومنها: "مصباح المشكاة" و"غاية المطلوب وأعظم المنة فيما يغفر الله به الذنوب ويوجب به الجنة" و"تمييز الطيب من الخبيث مما يدور على ألسنة الناس من الحديث" وغير ذلك من كتب تتناول الحديث النبوي وعلومه.

كما ألّف في علم التاريخ عدداً من الكتب، منها: "قرة العيون بأخبار اليمن الميمون" و"بغية المستفيد بأخبار مدينة زبيد" و"الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد" وغيرها من كتب تاريخية . وخصّ السيرة النبوية المطهرة بمصنّفه "حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله المصطفين الأخيار" .

وقد وصفت مصادرنا[1] ابن الديبع بالإمام الحافظ الحجة، المتقن، شيخ الإسلام، علامة الأنام، مسند الدنيا، أمير المؤمنين في حديث سير المرسلين، خاتمة المحققين. كما ذكرت جهوده في علم الحديث خاصة أو أبرز تلاميذه.

[1] راجع في ترجمته السخاوي: الضوء اللامع، 104/4 والغزي: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، 158/2-159، وابن العماد: شذرات الذهب، 255/8-256 والشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، 335/1-336

منهج ابن الديبع في "حدائق الأنوار ومطالع الأسرار":

التزم ابن الديبع منهجاً محدّداً في كتابة سيرة رسول الله ﷺ وأشار في مقدمة كتابه إلى جانب من هذا المنهج فقال: "وقد صنف العلماء – رحمهم الله تعالى – في سيرته ﷺ، في عاداته وعباداته المختصر والمطول، وألّفوا فيها المجمل والمفصل، وانتقيت من مجموع ما صنّفوه، واصطفيت من محصول ما ألّفوه، نبذة كافية شافيةً، لخّصتها مما صحّ من الأخبار، واشتهر بين علماء الحديث والآثار، مما أكثره في "الصحيحين" أو أحدهما أو في غيرهما من الأصول المعتمدة، كالسنن الأربعة لأبي داود، والترمذي وابن ماجة والنّسائِي وكموطأ الإمام مالك وسيرة ابن هشام وشفاء القاضي عياض، رحمه الله عليهم أجمعين"[1].

وواضح من هذا النص أنّ لابن الديبع منهجاً في كتابه؛ كشف اللثام عن بعض ملامحه، في حين بقيت معالمه الأساسية وملامحه الرئيسة موزعة في مصنفه، تحتاج إلى إظهار وتوضيح.

اعتماد قواعد المحدثين في كتابة السيرة المباركة:

نشأت كتابة السيرة النبوية المطهرة على أيدي الثقات من رجال الحديث النبوي الذين جمعوها وأفردوها بالتأليف والتصنيف[2]. ولأن ابن الديبع من رجال الحديث النبوي الشريف فإنه اتبع منهج الاعتماد على منهج المحدثين – كما ذكر – في كتابه السيرة المطهرة حيث جعل كتب الحديث النبوي أساساً في كتابة السيرة، وحيث أخذ بما صحّ عن النبي صلّى الله عليه وسلّم من قول أو فعل أو تقرير مما ورد في الصحيحين أو أحدهما أو في غيرها من كتب السنن المعتمد عليها.

وبدأ ابن الديبع في تطبيق هذا المنهج بدءًا من الباب الثاني "في شرف مكة والمدينة بلدي مولده ونشأته ووفاته ..." أما قبل ذلك حيث قدّم ملخصّاً لسيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم من المولد إلى الوفاة، فإن ابن الديبع لم يشر وهو يسرد السيرة النبوية إلى مصادره الحديثية، إلا مرة واحدة عند ذكره لحادث شقّ

---

[1] حدائق الأنوار، 9/1-

[2] راجع: الإعلان بالتوبيخ، ص105-111

صدر النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو في بداية السنة الخامسة من عمره المبارك[1] حيث قال ابن الديبع: "قلت: المشهور في الأحاديث الصحيحة أنهما – الملكان – غسلاه بماء زمزم"[2]. وإن كان – بطبيعة الحال – مطبقاً لمنهجه دون أن يشير إلى مصادره الحديثية.

أما عند بداية تفصيله للسيرة النبوية الزكية، فإنه حرص على ذكر مصدره في الحديث وعلى تخريج أحاديثه في بعض الأحيان. ويلاحظ أن ابن الديبع اعتمد على البخاري ومسلم معاً في العديد من أحداث السيرة العطرة، وعلى غيرها من كتب الحديث النبوي. ولعل ما جاء في فصل "في فضل الجهاد والمجاهدين في سبيل الله" خير دليل على اعتماده على الحديث النبوي في كتابه، إذ يقول في نهاية الفصل: "فهذه أربعون حديثاً، عشرون منها من "الصحيحين"، عشرة من المتفق عليه، وخمسة من إفراد "البخاري" وخمسة من إفراد "مسلم"، وعشرون حديثاً من غيرهما من كتب الحديث المعتمدة، صحيحاً وحسناً"[3].

وحرص ابن الديبع على الحكم على الأحاديث التي أوردها ومن ثم كثرت عنده عبارات: "بإسناد حسن"[4] و"صحيح الإسناد"[5] و"حديث حسن صحيح"[6] و"بإسناد جيد"[7] و"برواة ثقات"[8]. وقلّ أن أورد حديثاً دون تخريج أو ذكر لدرجته[9]، ومن ذلك ما رواه من أحاديث رواها ابن السُنى[10]. وقد وقد اعتمد ابن

---

[1] راجع: صحيح مسلم، 393/1 ومسند أحمد، 190/20-196 وسنن الدارمي، 20/1-21. وقد أشار البخاري (صحيح البخاري، 66/5-67) إلى حادثة شقّ صدر النبي صلّى الله عليه وسلّم قبل رحلة الإسراء والمعراج.

[2] راجع: حدائق الأنوار، القسم الثانى، ص449-470

[3] المصدر السابق، ص470

[4] المصدر السابق، 461/2 وص 463 و469 و849 و918

[5] المصدر السابق، ص 920

[6] المصدر السابق، ص461 و 875 و 876 و 916

[7] المصدر السابق، ص468

[8] المصدر السابق، ص464 و467

[9] المصدر السابق، 931/2 و938 و947 و948

[10] ابن السنى إمام حافظ ثقة، ولد في دينور حدود سنة ثمانين ومائتين وارتحل في طلب الحديث النبوي وجمع وصنف كتاب "يوم وليلة" وهو من المرويات الجيدة، واختصر سنن النسائي وسمّاه "المجتبى"، وتوفي الإمام أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق المشهور

ابن الديبع أيضاً على سنن أبي داود[1] والترمذي[2] والنسائي[3] وابن ماجه[4]، ومسند الإمام أحمد[5] وسنن البيهقي[6]، والدار قطني[7]، ومستدرك الحاكم[8]، وصحيح ابن حبان[9] وابن خزيمة[10] وغير ذلك[11].

وبالرغم من اشتهار ابن الديبع بعلم الحديث النبوي، والبراعة في تمييز الصحيح من الضعيف والموضوع إلا أنه نقل بعض الأحاديث الموضوعة ومنها حديث رد الشمس بعد مغيبها[12]، وقد أفاض ابن كثير في بيان وضعه على أيدي الروافض[13]. كما بين ابن كثير ضعف حديث آخر، ذكره ابن الديبع وهو حديث إحياء أم النبي صلّى الله عليه وسلّم وإيمانها به[14].

وهكذا كان ابن الديبع حريصاً كل الحرص على إيراد الأحاديث الصحيحة، وتخريجها وهو يورد أحداث السيرة العطرة إلاّ أنه خالف ذلك المنهج في مرات قليلة، فأورد بعض الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة[15].

التدخل بالتعليق والترجيح:

بالسنى سنة 364هـ. راجع: سير أعلام النبلاء، 16/255-257 والعبر في خبر من غبر، 2/338-339

[1] حدائق الأنوار، 2/461 و469

[2] المصدر السابق، 2/461 و463 و916 وكذا، 1/85 و94 و119

[3] المصدر السابق، ص 461

[4] المصدر السابق، ص 461

[5] المصدر السابق، ص 462 و464 و916

[6] المصدر السابق، ص 466 و918

[7] المصدر السابق، ص 920 و932

[8] المصدر السابق، 2/918 و919 و920

[9] المصدر السابق، 2/462 و466 و916

[10] المصدر السابق، 2/915 و916

[11] المصدر السابق، 1/208 وكذا 2/463 و932

[12] المصدر السابق، 1/193-194

[13] راجع ابن كثير: البداية والنهاية، 3/6/552-555 وراجع حتى ص 564

[14] حدائق الأنوار، 1/148-149

[15] المصدر السابق، 1/110

لم يكن ابن الديبع ممن يسردون السيرة النبوية المباركة دون تعليق على بعض أحداثها بالدعاء أو بقول الشعر أو بالترجيح أو بذكر أمور في عصره لها صلة بالسيرة النبوية الشريفة. ومن ذلك تعليقه على ولادة النبي صلّى الله عليه وسلّم بالدعوة إلى تقوى الله والتقرب إليه، بتعظيم شأن النبي صلّى الله عليه وسلّم، ومعرفة حرمته عند الله تعالى[1].

ورجح ابن الديبع وفاة والد النبي صلّى الله عليه وسلّم (عبد الله) والنبي حملٌ، وذكر أن ذلك هو الصحيح[2]. وكذا أدلى بدلوه في قضايا مهمة من قضايا السيرة النبوية المباركة، فكتب فيها كتابات واضحة، ظهرت فيها مقدرته العلمية الفائقة وقدرته الاستيعابية المحيطة بعلوم الدين، ومن هذه القضايا: "إثبات النبوة"[3] و"القرآن الكريم أعظم معجزات النبي صلّى الله عليه وسلّم"[4]. و"الفرق بين المعجزة والكرامة والسحر"[5] وغير ذلك من قضايا ظهرت شخصية ابن الديبع فيها ظهوراً واضحاً، وكشفت عن علمه الواسع وقدرته على الاختيار والترجيح.

وعلّق ابن الديبع على حادثة الإسراء بالنبي صلّى الله عليه وسلّم بأنه لا خلاف بين أئمة المسلمين وعلماء الدين في صحة الإسراء به، إذ هو نص "القرآن العظيم"، ورواه جماعة من الصحابة، كما أخرجه "الحافظ" في "أصول الإسلام المشهورة" ولكن أكملها ترتيباً ووضعاً ما رواه مسلم في صحيحه[6]. وأظهر ابن الديبع حكماً عديدة لكل حادثة من حوادث الإسراء ومنها: "ركوب البراق" والإسراء إلى بيت المقدس ولقاء النبي صلّى الله عليه وسلّم بالأنبياء، واختصاص من لقيه منهم صلّى الله عليه وسلّم في كل سماء وهم "آدم" و"عيسى" و"يوسف" و"إدريس" و"هارون" و"موسى" و"إبراهيم" بحسب تفاوتهم في الدرجات. فآدم في "سماء الدنيا" لأنه أول الأنبياء، ثم "عيسى" في الثانية، لأنه أقرب الأنبياء عهداً بمحمد صلّى الله عليه وسلّم و"يوسف" في الثالثة، لأن "أمة محمد" يدخلون على صورته، و"إدريس" في الرابعة لأنها

---

[1] المصدر السابق، 19/1
[2] المصدر السابق، 147/1
[3] راجعها عند ابن الديبع في حدائق الأنوار، 163/1-170
[4] المصدر السابق، 173/1-177 وراجع من ص171
[5] المصدر السابق، 183/1-186
[6] المصدر السابق 383/1

الوسطى وقد رفعه الله مكاناً علياً، و"هارون" في الخامسة لقربه من أخيه موسى، و"موسى" في السادسة لفضله بالتكليم و"إبراهيم" في السابعة لأنه أفضل الأنبياء بعد "محمد" صلّى الله عليه وسلّم[1].

وذكر ابن الديبع أن الحكمة في ركوب البراق مع قدرة الله تعالى على تقريب المسافة للنبي صلّى الله عليه وسلّم، إنما لإكرامه بما جرت به العادة إذ الملوك يبعثون لمن استدعوه بمركوب[2].

ونقل ابن الديبع من أقوال ابن عباس وكعب الأحبار والماوردي وأبو الحسن الأشعري، وغيرهم ما يؤكد على رؤية النبي صلّى الله عليه وسلّم لربه سبحانه وتعالى ليلة المعراج[3]. ولابن قيم الجوزية تحقيق مماثل لهذه المسألة، انتهى فيه إلى أن النبي صلّى الله عليه وسلّم لم ير ربه ليلة المعراج، وإنما رآه صلّى الله عليه وسلّم في منامه في المدينة المنورة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح، ولأن رؤيا الأنبياء حق، فقد رآه النبي صلّى الله عليه وسلّم حقا[4].

وقد رجح ابن الديبع وقوع غزوة بني المصطلق قبل غزوة الخندق على أساس أن سعد بن معاذ رضي الله عنه كان قائماً بأمر الدفاع عن السيدة عائشة رضي الله عنها في أمر حادث الإفك وعرض على النبي صلّى الله عليه وسلّم ضرب عنق الخائضين في هذا الكذب المبين، وكان بالخندق مصاباً وتوفي متأثراً بجراحه[5]. وهذا الترتيب للغزوتين ورد لدى ابن قيم[6] والمقريزي[7] والعمري[8]، والعمري[8]، في حين أن ابن هشام قدّم غزوة الخندق على غزوة بني المصطلق[9].

المصطلق[9].

---

[1] المصدر السابق، 1/389-391
[2] المصدر السابق، 1/396
[3] المصدر السابق، 1/405-407
[4] زاد المعاد، 3/36-38
[5] حدائق الأنوار، 2/567-568 و577
[6] زاد المعاد، 3/256-276
[7] إمتاع الأسماع، ص195-241
[8] مسالك الأبصار في مسالك الأمصار، 25/119
[9] السيرة النبوية لابن هشام، 3/127-196

وهكذا فإن ابن الديبع اهتم وهو يسرد السيرة الزكية بالترجيح والإدلاء بدلوه في أحداثها المباركة؛ شرحاً، وتعليقاً، وترجيحاً، وربطاً بين أحداثها المباركة وبين تعظيم المسلمين لها في عصره[1].

ضبط الأعلام والأماكن والتعريف بها:

اهتم ابن الديبع بضبط الأعلام المطلوب ضبطهم في كتابه، وكذلك الأماكن التي وردت في مؤلفه وعرّف بكل الأماكن والمواضع التي يصعب على قراء كتابه معرفتها والوقوف عليها. ومن ذلك تشكيله للموبذان عالم الفرس، حيث ذكر ابن الديبع رؤيا الموبذان وقال: "بفتح الموحدة وبذال معجمة"[2]. وبالمثل ضبط الراهب عيصا فقال: "بمهْمَلتين بينهما تحتسبة"[3]، وضبط نسطوراً الراهب[4]، وهكذا[5].

وفيما يتصل بضبط الأماكن وتعرضها فأمثلها كثيرة جداً، منها ضبط وتعريف الأبواء[6]، وسَرف[7] والمويسيع[8]، وغيرها. وهذا من شأنه أن يُعرّف القارئ للسيرة النبوية المشرفة بالأماكن التي شهدت أحداثها المباركة دون حاجة إلى مصدر جغرافي يحدّد هذه الأماكن.

تعدّد المصادر وتنوّعها:

على الرغم من أنّ ابن الديبع اعتمد في تسجيل السيرة العطرة على مصادرها الأساسية وهي – بعد كتاب الله – كتب السنن جميعها، إلاّ أنه أضاف إليها من مصادر السيرة النبوية الأخرى، ومنها سيرة ابن إسحاق[9] وطبقات ابن سَعد[1]

---

[1] حدائق الأنوار، 130/1

[2] المصدر السابق، 115/1

[3] المصدر السابق، 116/1

[4] المصدر السابق، 120/1

[5] المصدر السابق، 130/1 و61 و62 و87

[6] المصدر السابق، 147/1

[7] المصدر السابق، 60/1

[8] المصدر السابق، 50/1

[9] المصدر السابق، 130/1 و136 و142 و144

والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض[2] والتذكرة للقرطبي[3] والروض الأنف للسهيلي[4]، وصرح بكتب هؤلاء العلماء جميعاً وهو ينقل عنهم، كما اعتمد على مصادر أخرى عديدة منها ما هو مشهور[5]، وما هو غير مشهور[6]. وقلما أغفل ابن الديبع مصادره، معبراً عن ذلك بقوله: "قال علماء السير"[7].

وأظن أن تعدد مصادر ابن الديبع وتنوعها هو الذي أدّى إلى انفراد الكتاب ببعض أخبار جديدة لم ترد في كتب السيرة[8]، لعل أبرزها ما ذكره ابن الديبع من أن الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم قد مارس العوم في بئر بني عدي بيثرب حتى أحسنه وكان في السادسة من عمره عندما اصطحبته أمه السيدة آمنة لزيارة أخواله من بني عدي بني النجار بيثرب، فمكث فيها لمدة شهر، يمارس العوم هناك حتى أتقنه[9]. وهذا الخبر المهمّ لم يرد في مصادر السيرة والتاريخ الأخرى التي دوّنت السيرة الزكية، اللهم ما جاء لدى المؤرخ النويري[10] من ذكر للخبر نفسه. ومن ثم يجوز أن يكون ابن الديبع قد أخذ هذا الخبر من المؤرخ النويري أو أنهما معاً أخذا الخبر من مصدر ضائع أو غير معروف. وفي جميع الأحوال فإنّ ذكر ابن الديبع لهذا الخبر وإسناده إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم من خلال حديث لم يشر إلى مصدره يؤكد على سعة اطلاع ابن الديبع، وقدرته على تخيّر الأخبار والروايات، وقد ظهرت هذه القدرة في ذكر كثير من البشارات برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، التي لم ترد بهذا الكم في

---

[1] المصدر السابق، 95/1

[2] المصدر السابق، 90/1 و283 و381

[3] المصدر السابق، 148/1 و149 و150

[4] المصدر السابق، 149/1

[5] المصدر السابق، 148/1 و183 و382

[6] المصدر السابق، 148/1 وكذا 791/2

[7] المصدر السابق، 97/1 و109 و112 و113 و116 و129 و135 و375

[8] المصدر السابق، 150/1 و156

[9] المصدر السابق، 146/1

[10] راجع: نهاية الأرب، 87/16

مصادر أخرى[1]. وكذلك ذكره لفضائل ومناقب أجداد النبي صلّى الله عليه وسلّم وما مدحوا به من شعر[2].

وخلاصة القول: يُعدّ كتاب (حدائق الأنوار) لابن الديبع كتاباً مهمّاً من كتب السيرة النبوية المشرفة بسبب اعتماد مؤلفه على ما صحّ من أخبار وروايات عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، وبسبب منهج ابن الديبع في تدوينه للسيرة الشريفة، الذي أكسب الكتاب قيمة علمية فائقة فوق قيمته العالية.

مصادر البحث

1. ابن الديبع (عبد الرحمن بن علي): حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله المصطفين الأخيار (تحقيق: الشيخ عبد الله الأنصاري)، دولة قطر
2. ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتبة التجارية، لبنان
3. ابن قيم (محمد بن أبي بكر): زاد المعاد في هدى خير العباد (تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط)، مؤسسة الرسالة
4. ابن هشام (عبد الملك بن هشام): السيرة النبوية (قدّم لها وعلّق عليها: طه عبد الرءوف سعد)، دار الجيل، بيروت
5. أحمد بن حنبل: الفتح الرباني، ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (تحقيق وشرح: الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا)، دار الشهاب
6. البخاري (محمد بن إسماعيل): صحيح البخاري، دار ومطابع الشعب
7. الدارمي: سنن الدارمي (تحقيق: فؤاد زمرلي وخالد السبع)، دار الكتاب العربي
8. الذهبي (محمد بن أحمد): سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة
9. السخاوي (محمد بن عبد الرحمن): الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، مكتبة الصحابة

[1] حدائق الأنوار، 110/1-123

[2] المصدر السابق، 96/1 و97 و102 و103 و104 و105 وكذا، ص91 و97 و125

10. الشوكاني (محمد بن علي): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، لبنان
11. العمري (أحمد بن يحيى): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (تحقيق: د. محمد خريسان ود. عصام عقلة ود. يوسف ياسين)، مركز زايد للتراث والتاريخ
12. الغزي (نجم الدين الغزي): الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (تحقيق: د. جبرائيل سليمان جبور)، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت
13. مسلم (مسلم بن الحجاج): صحيح مسلم (تحقيق: عبد الله أبو زينة)، مطبعة الشعب
14. المقريزي (أحمد بن علي): إمتاع الأسماع لما للرسول صلّى الله عليه وسلّم من الحفدة والأبناء والمتاع (تحقيق: الشيخ أحمد شاكر)، طبعة دولة قطر
15. النويري (أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب في فنون الأرب، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر

حرية الفكر والرأي في الإسلام وأوضاع المجتمع الإسلامي

- د. وارث المظهري

الإنسان حيوان ناطق فطر على حرية الفكر والرأي، ورزق له العقل وقوة التفكير فيميز بهما خيره من شره. وفطرته هذه تتطلب منه أن يبحث عن مقصد خلقته متفكراً في نفسه وما في الكون. وحرّض الله سبحانه وتعالى الإنسان على التعقل والتفكر في عشرات آيات من كتابه المبين ونهاهم عن التقاليد العمياء. والذين نبذوا عقولهم وأفكارهم وراء ظهورهم هم أسوأ من الحيوانات كما يشير إليه جلّ وعلا في محكم تنزيله {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} (سورة الأعراف:179). وعلى هذا يمكن أن نطلق على الإسلام اسم دين العقل والفكر بالنسبة إلى المذاهب الأخرى الكبيرة. وفي الحقيقة أن العقل الإنساني كان مكبلاً بسلاسل التقاليد والنزعات المحافظة والأساطير والأوهام والخزعبلات قبل مجئ الإسلام، ويعود الفضل إلى هذا الدين في التاريخ الإنساني لتحرير الإنسانية من رقبة العبودية التقليدية. وأجاز الجهاد والقتال مبادرة لاستئصال الفتن ضد التعذيب الديني من قبل الحكام المستبدين على الذي كان لا يتبع طريقهم ولا يحذو حذوهم ولا يتمثل القول السائر "الناس على دين ملوكهم" بل يخالفهم ويتغنى بحرية التفكير والتعبير. وكلّف الإسلام كل فرد مسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما يطالب له بحرية الفكر و الرأي الكاملة حتى قال رسول الله ﷺ "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"[1].

والتعددية الفكرية هي من مقتضيات الطبيعة الإنسانية في ضوء الإسلام وموافقة لخريطة الكون، سواء تتعلق بحياة الإنسان والمشاهدة العالمية أو تتعلق بالعقائد

[1] سنن أبي داؤود، رقم الحديث: 4344

الأخرى غير العقيدة الإسلامية ولذا لا يمكن التحدي لهذه الخريطة ولا تعديلها. حتى ذكرت هذه الفكرة في آيات متعددة من القرآن الكريم فيقول الله تعالى {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ} (سورة الكهف:29) و {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}(سورة يونس:99). وقال في موضع آخر {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} (سورة المائدة: 48) و {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} (سورة التغابن: 2). هكذا اعترف القرآن نفسه أن يكون الإنسان كافراً أو مؤمناً وهو في الواقع أمر أبدي وطبيعي إلا أن الفضل بالإسلام بدون الإكراه.

تعدّ أصول المشاورة كأساس مهم للتفكير والتعبير في الإسلام ولها أمثلة مضيئة متعددة، نجدها في حياة رسول الله ﷺ، حيث كان يشاور أصحابه فعمل حسب مشاورات أصحابه الكرام في الحروب المختلفة حتى كان يشاور مع زوجاته المطهرة[1] فقد عمل حسب مشورة زوجته المكرمة أم سلمة رضي الله عنها عند صلح الحديبية. وكان يؤكد على المشاورة والعمل به في أحاديثه. وبالإضافة إلى المشورة كان يحثّ ﷺ أصحابه على اختيار طريق الاجتهاد كما ورد في حديث شهير بأن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له "كيف تقضي" قال: أقضي بكتاب الله! قال: "فإن لم يكن في كتاب الله" قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ" قال: أجتهد رأيي ولا آلو، قال: فضرب صدري وقال: "الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ"[2].

وكما قال رسول الله ﷺ لعقبة بن عامر ولرجل من الصحابة: "اجتهدا فإن أصبتما فلكما عشر حسنات وإن أخطأتما فلكما حسنة"[3]. وكثير من الروايات متوفرة في الأحاديث النبوية في هذا الباب.

---

[1] أما حديث: "شاورهن وخالفوهن" فهو لا يصح، ضعّفه السخاوي في المقاصد الحسنة، والشوكاني في الفوائد وحكم عليه بعض العلماء بالوضع. والله أعلم

[2] مسند أحمد بن حنبل، 230/5 و276

[3] المستصفي في علم الأصول، 355/2

يكتب الدكتور طه جابر العلواني أن القرآن الكريم قد أكّد على حرية العقيدة في أكثر من مائتي آية[1]. وتحتاج قضية عقوبة الارتداد إلى المناقشة والبحث في الفقه الإسلامي فيما يتعلق بحرية العقيدة. وتقول جماعة من العلماء إن الأحاديث التي وردت بقتل المرتد لا تشير إلى حد القتل بحال من الأحوال إلا أنه ذهب الجمهور إلى القول بوجوب قتل المرتد وثبت من أحاديث رسول الله ﷺ أنه لم يقتل أحداً في هذه الجريمة. ويكتب الدكتور طه جابر العلواني: إنه من الثابت المستفيض أن رسول الله ﷺ لم يقتل مرتداً طيلة حياته الشريفة[2]. وقال ابن الطلاع في أحكامه: "لم يقع في شيئ من المصنفات المشهورة أنه ﷺ قتل مرتداً ولا زنديقاً"[3]. ولذا رأى عمر الفاروق رضي الله عنه من الصحابة والإمام النخعي وسفيان الثوري من الفقهاء: أنه يستتاب أبداً ولا يقتل"[4]. وللردة قسمان عند يوسف القرضاوي "ردة صامتة" وهي تتعلق بذات شخص واحد و"ردة مجاهرة" إذا أصبح المرتدون دعاة إلى ردتهم فالمرتدون من القسم الثاني يجب قتلهم لأنهم يمثلون خطراً على هوية المجتمع، ولا يتعرض بالمرتدين من القسم الأول[5]. ولكن الفقهاء اتفقوا على أن المرأة المرتدة لا تقتل كالرجل وهذا الأمر يعزّز الموقف بقتل المرتدين الذين يحاربون الله ورسوله. ولكن هذا الموضوع يقتضي التفكر فيه والبحث عنه. ولا يمكن هنا استيعاب الجوانب الأخرى بخصوص هذه المسألة.

نجد عدة من الوقائع في سيرة رسول الله ﷺ الطيبة، تثبت أنه ﷺ كان يمنح حرية التفكير والتعبير الكاملة لكل شخص ولا يحبّ الإكراه في الدين. وروى أبو داود عن ابن عباس بشأن نزول الآية {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي} (سورة البقرة:256) قال: نزلت هذه الآية في الأنصار، كانت تكون المرأة مقلاتا[6] فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده؛ فلما أجليت بنو النضير

---

[1] إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم، ص 138
[2] نفس المصدر ص: 165
[3] نفس المصدر، ص 166 نقلاً عن عمدة القاري، 235/11
[4] في فقه الأولويات، ص 140
[5] نفس المصدر والصفحة
[6] المقلات: التي لا يعيش لها ولد

كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله تعالى{لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي[1]}.

المثل العليا من الحضارة الإسلامية: يوجد كثير من المثل العليا من حرية الفكر والرأي في العهد النبوي وفي عهد الصحابة والتابعين والذين جاءوا من بعدهم في عهد المسلمين الذهبي وفي عهد الارتقاء الحضاري. وهناك كثير من الوقائع الشهيرة عن حرية الفكر والرأي في عهد عمر الفاروق رضي الله عنه ولا نحتاج إلى عدّها هنا. وقد روى الإمام أبو يوسف في كتابه الخراج عن عمر رضي الله عنه بأن: جاءه يوماً رجل فقال له على رؤوس الأشهاد: اتق الله يا عمر وكرّر عدة مرات فغضب بعض الحاضرين من قوله وأرادوا أن يسكتوه عن الكلام فقال لهم عمر رضي الله عنه: "دعوه فلا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها"[2].

هذا جدير بالذكر والفكر أن هناك أقوالاً ومراسيم مشهورة منقولة ومنسوبة إلى بعض الشخصيات المكرمة من الصحابة والتابعين، يمكن أن يحكم على حامليها بالكفر بسهولة الأخطر من البدعة والزندقة (نعوذ بالله من ذلك). فكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما لا يقبل المعوذتين من أجزاء المصحف الكريم بل كان يعتبرهما كدعاء نزل للرقية[3]. وقال عبد الله بن عمر: لا يجوز الزواج من الكتابية وبالطبع هو مدلل من النص القرآني، وقال أبو طلحة إن أكل البرد لا يفطر، كما استباح أبو حذيفة أكل السحور حتى تطلع الشمس[4]. وقال عمر، وعبد وعبد الله بن مسعود، وأبو هريرة، وعبد الله بن عباس والإمام الشعبي من التابعين وابن قيم الجوزية من العلماء المعاصرين إن جهنم ستفنى ويدخل الكفار الجنة[5]. وكان أبو ذر الغفاري يعتبر ادخار المال لأكثر يوم كنزاً ويعدّه حراماً وغير مشروع. وكتب ابن قيم في "إعلام الموقعين" أن عبد الله بن مسعود

---

[1] الجامع لأحكام القرآن، 3/183-182
[2] كتاب الخراج، ص 12
[3] القرطبي، 172/20
[4] قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ص 104-103
[5] حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ص 247

اختلف مع عمر رضي الله عنه في نحو مائة مسألة[1] ولكن يحسبه عمر رضي الله عنه كُنَيفاً مُلِئَ فقهاً وعلماً.

كثرت الفرق الباطلة في عهد الإسلام الذهبي، وكانت فرقة الخوارج أكثر تشدداً من فرق المعتزلة والجهمية والحشوية والقدرية. ولكن لم يكفرهم علماء أهل السنة والجماعة. ونقل ابن تيمية أن الإمام أحمد بن حنبل لم يكفر هذه الفرق (القدرية والجهمية وغيرها) بل صلّى (أحمد بن حنبل) رضي الله عنه خلف بعض الجمهمية وبعض القدرية وأن أكبر ما توصف به كل تلك الفرق عند ابن تيمية هو الفسق[2].

وكان من مصانعة المحدثين والمفسرين أنهم ضمّوا رواياتهم إلى كتبهم بمن فيهم الإمام البخاري بنفسه. إنه أدخل روايات أهل البدعة والشيعة في جامعه الصحيح. ومن أمثاله المدهشة المتعددة أن عمران بن حطان هو من رواة البخاري. إنه كان إمام الخوراج، فلما قتل ابن ملجم علياً رضي الله عنه اغتبط وقرض مرثية على موت ابن ملجم ويذكر هنا شعران منها يدلّان على بغضه عن علي رضي الله عنه وهما كما يلي:

يا ضربةً من تقيّ ما أراد بها ألا ليَبْلُغَ مِن ذي العرش رضوانا

إنّي لأذكـــره يوماً فأحسِـبُه أوفَـى البـريّـةِ عند الله مـيـزانـا[3]

ومن المهم أن توجد روايتا عمران بن حطان في صحيح البخاري في كتاب اللباس[4]. وكذا ضمّ الإمام أبو داؤد والإمام النسائي رواياتهم في سننهما، ويكتب

---

[1] أدب الخلاف، ص 63

[2] راجع: حرية الفكر والاعتقاد في الإسلام لجمال بنا

[3] سير أعلام النبلاء، نقلاً عن: http://ar.wikisource.org واقرأ المزيد على موقع:

http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?=283236

[4] الجامع الصحيح: كتاب اللباس، باب لبس الحرير وافتراشه للرجال وقدر ما يجوز منه، 45/7

وكتب ابن الحجر العسقلاني في فتح الباري عن عمران بن حطان: وعمران هو السدوسي كان أحد الخوارج من العقدية بل هو رئيسهم وشاعرهم وهو الذي مدح ابن ملجم قاتل علي رضي الله عنه بالأبيات المشهورة وأبو حطان.... وأنما أخرج له البخاري على قاعدته في تخريج أحاديث المبتدع إذا كان صادق اللهجة متدينا وقد قيل إن عمران تاب من بدعته وهو

المفتي سعيد من باكستان: "قد أخذ أئمة الحديث والتفسير والفقه والتاريخ من أهل السنة والجماعة روايات عديدة من أهل البدعة والفرق الباطلة منها الخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرها. وهذه هي حقيقة لا ينكرها أحدٌ من المفسرين والمحدثين والفقهاء والمؤرخين الذين لهم دراسة واسعة وكذا يتم تصديق قولنا إذا درس أحدٌ أحوالَ الشخصيات البارزة مثل إبان بن تغلب وسعيد بن فيروز وسعيد بن عمرو الهمداني وعبد الله بن عيسى الكوفي وعدي بن ثابت ومحمد بن جحادة وزاذان الكندي وغيرهم في كتب أسماء الرجال"[1].

قد ذكر ابن حجر العسقلاني في "هدي الساري" مقدمة فتح الباري ثماني عشرة رواية من الرواة الشيعة[2] كما توجد رواياتهم في الجامع الصحيح[3]. وتوجد في صحيح البخاري رواية على الأقل من الروافض. وأخذ المحدثون عامة روايات من رجال التشيع واحترزوا من أخذ روايات الرافضة مفرّقين بين التشيع والرفض. والرافضي هو الراوي أبو سعيد عباد بن يعقوب الرواجني الكوفي. ويذكر عنه ابن حجر العسقلاني في مقدمة فتح الباري: "عباد بن يعقوب الرواجني رافضي مشهور إلا أنه كان صدوقاً وثّقه أبو حاتم، وقال الحاكم كان ابن خزيمة إذا حدث عنه يقول حدثنا الثقة في روايته، المتهم في رأيه عباد بن يعقوب. وقال ابن حبان كان رافضياً داعية وقال صالح بن محمد كان يشتم عثمان رضي الله عنه. قلت روى عنه البخاري في كتاب التوحيد حديثاً واحداً مقروناً وهو حديث ابن مسعود أيّ العمل أفضل وله عند البخاري طرق أخرى من رواية غيره"[4]. والجدير بالذكر أن رواية الرافضي موجودة في أصحّ كتب الأحاديث صحيح البخاري وهو في أهمّ جزء "كتاب التوحيد". وقد أخذ المحدثون روايات أهل البدع والهوى في كتبهم بتبيين حال الراوي بكونه محترزاً عن الكذب وصدوقاً ولا يدعو إلى مذهبه. ونقل ابن حجر العسقلاني أقوالاً متعددة من المحدثين والعلماء بهذا الصدد ومنها: "أن

بعيد. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، 338/8 وقال أبوداود: (ليس في أهل الأهواء أصح حديثا من الخوارج). سير أعلام النبلاء، 214/4

[1] مقالة: "اهل بدعت کی روایات" (روايات أهل البدع) بالأردية، مجلة "الندوة" الشهرية، ديسمبر، 2011، ص 11

[2] هدي الساري مقدمة فتح الباري، انظر الفصل التاسع ص 540-535

[3] صحيح البخاري، رقم الحديث: 3197

[4] هدي الساري مقدمة فتح الباري، ص 466-465

يكون داعية لبدعته أو غير داعية، فيقبل غير داعية ويرد حديث الداعية. وهذا المذهب هو الأعدل وصارت إليه طوائف من الأئمة وادعى ابن حبان إجماع أهل النقل عليه لكن في دعوى ذلك نظر"[1].

أوضاع المجتمع الإسلامي الراهنة: وهنا سؤال مهم؛ ما هو واقع حرية الفكر والرأي في مجتمعنا؟ ولا شك أن الإسلام يدعو إلى حرية الفكر والرأي. وتوجد لها المثل العليا في العهد الإسلامي الذهبي، وأثر على حضارات معاصرة أثراً بالغاً. أما المجتمع الإسلامي المعاصر فالحقيقة أنه يتهرب من أن يسلك على الطريق الذي مهّده لنا الإسلام. وأن الحرية السياسية والفكرية كلتاهما مليئة بالمخاوف والأخطار وأما الحالة السياسية للدول الإسلامية فيعجز عنها الوصف بالنسبة إلى الدول الأخرى. ومع الانتقاد على الحضارة الغربية السلبية من حرية الأب والأم والإباحيات الأخرى يجب علينا أن نتفحص ونقيم أحوال بيوتنا. أما الأوساط الفكرية فقد سادت فيهم بشكل غير شعوري بأن الله تعالى لا يخلق أشخاصاً مثل الأسلاف الكرام الذين كانوا يتحملون مواهب علمية وكفاءات عديدة، لأنه لم تبق الآن حاجة إلى مثل هؤلاء الناس وما بقيت أية ناحية من الدين والشريعة، لم يمسّها السلف الصالح من خلال أفكارهم ونظرياتهم ويتركوا أيّ مجال فيها للأخلاف، كما يظن ذلك الأذهان المتدينة الساذجة. وقد قيل: كم ترك الأول للآخر؟ واستحكمت هذه النظرية إلى حد أقصى بعد إغلاق باب الاجتهاد المزعوم بمقولة "ما أغلقه السلف لا يفتحه الخلف". ووفقاً لأغلب ميول الأوساط الإسلامية كأن هذه المسألة ليست جديرة بالملاحظة والتفكير فيها وهي تتعلق بالعمل فقط. وفي الحقيقة هذه هي تقصيراتنا العملية التي أوقعتنا في هاوية التنزل من منارات الرقي والازدهار. وكما ظهرت من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأمة المسلمة ستقع في هاوية التنزل بسبب الانشقاق والتفكك الفكري وقال ﷺ: "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم"[2]. وقيل في بعض الأحاديث بسبب رفع العلم وظهور الجهل.

---

[1] نفس المصدر، ص 455

[2] صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن، 89/8

في الوقت الراهن لا يمكن لك أن تجرأ على التحدث حياداً عن الفكر الغالب فإذا جرأت فلا تُتهم بالكفر والزندقة فحسب بل ستُعَدّ من طغاة الإسلام والمسلمين ويمكن قياسها بواسطة الأمثلة الجديدة المتعددة من الهند وباكستان وهي كما يلي:

* إن السيد جاويد أحمد الغامدي من الشخصيات البارزة الباكستانية، هو يبرع في مواضيع المسائل الاجتماعية الإسلامية والحديث والسنة. صنّف عدة كتب ويعدّ واحداً من مغترفي الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، حتى تعكر الجوّ من وطنه طيلة سنوات بسبب بعض تفرداته وفي الأخير إنه حصل على النجاة بشرط أن يترك الوطن بالفور. والآن يسكن هو في دولة ماليزيا. وهناك شخصية أخرى من باكستان كانت تعدّ من أئمة البريلوية قبل سنوات وهو اشتهر بدراسته الواسعة الخاصة حتى حكم عليه بالكفر وأجيز إهراق دمه وسدّد له الطريق إلى باكستان لأنه تحدث خلاف قتل "سلمان تاثير" وندّد به وكذا نطق ضد إنهاء التعنف والصراع بين المذاهب المختلفة والمدارس الفكرية. وتعتبره كافراً أو أقرب منه أغلبية ذلك المذهب في الهند أيضاً. وكانت تدور مثل هذه الأنباء بين الأوساط الصحفية عن الشيخ تقي العثماني قبل عدة أيام، وكتب خورشيد نديم كاتب العمود في الصحيفة الأردية اليومية "أوصاف" عن أنباء تركه الوطن. ويمتلك الكاتب نسخة إلكترونية من كتاب "مجھے ہے حکم اذاں"[1] تم تأليفه خلاف الشيخ العثماني. وتمت فيه محاولة خلق الجوّ خلافه كما وقع بشأن اثنين من أصحاب الفكر سبق ذكرهما.

وما زالت تظهر المنازعات بين عدد من المصنفين والكاتبين بسبب ثرثرة على مُحكمات دينية من قبل الذين يحبّون الإباحية الفكرية من جهة ويتحمّلون عقلية تكفيرية من جهة أخرى في أرجاء العالم الإسلامي الأخرى خاصة في جمهورية مصر العربية. واغتيل بعض منهم بشمول فرج فودة (من مصر) ومهدي عامل وحسين مروة (كلاهما من لبنان) وأجبر بعضهم الآخر على مغادرة الوطن بسبب اتهامهم بالكفر والزندقة. ومنهم نصر حامد أبو زيد (من مصر). ولا شك أن اعتداء الذين يقعون في الإباحية الفكرية يسبّب بالفساد في المسائل العديدة وليس هناك أحدٌ من الكاتبين المذكورين، لم يقع فيها. ولكن تتشوه صورة

[1] ألّفه محمد عيسى الأنصاري، مكتبة فهم القرآن والسنة، لاهور، 2011م

الإسلام والمسلمين بسبب اتخاذ الاتجاهات المتشددة في مثل هذه المسائل. وعامل بالحكمة والكياسة عديدٌ من علماء الأزهر المحنّكين في عدة القضايا من هذه النوعية وقدّموا نتائج جيدة. توجد أمثلتها في كتاب طه جابر العلواني "إشكالية الردة والمرتدين" وكتب أخرى. وجاء كاتب مصري إسماعيل أدهم بكتابه "لماذا أنا ملحد" في عام 1937م. وقد أجاب عنها علماء الأزهر بهدوء من خلال تصنيف الكتب. وتخطى العلماء والمفكرون من مصر خطوة حكيمة بشأن حسن الحنفي ونجيب محفوظ (كلاهما من مصر) ولم يتركوا مجالاً للناس أن يصبحوا متعطشين لنفوسهم وحاولوا لمعالجة القضية بجدية.

وتوجد في الهند عدة أمثلة بأن بعض المدارس الدينية قد طردت بعض الأشخاص بسبب نظريتهم العلمية والاجتهادية. وهناك عالم ومصنّف ألّف كتاباً أنكر فيه حدّ الرجم فعزلته المدرسة حتى لجأ إلى جنوب الهند. كما توجد بعض الشخصيات التي عانت من الهجمات الفتاكة وأصبحت منبوذة من الأوساط العلمية.

هذه المثل ليست بجديدة جداً في مجتمعاتنا حتى توجد في العهد الإسلامي الذهبي ولكن ما كان ينشأ الانشقاق والتفكك في المجتمع ولا يختل التوازن ولا تتأثر الأواصر المشتركة. وما أجمل ما قال يونس الصدفي: "ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة"[1].

ولكن الوضع اليوم هو أنّ من لا ينسجم مع أفكارنا الخاصة فهو ليس منا. والآن تنشر مئات من الصحف والمجلات من الأوساط الدينية وربما لا تكون هناك أية صحيفة أو مجلة تؤيد التعددية الفكرية حتى تهتم عند نشر الرسائل بأن لا يصطدم رأي المراسل مع أفكارها؛ مع أنها تذكر في الرسائل "ليس من الضروري أن تتفق الإدارة مع رأي المراسل".

واقع المدارس الدينية: على المستوى القولي تدعي المدارس الدينية بأن "اختلاف أمتي رحمة"، وتستخدم الأمثلة المدهشة من عهد الإسلام الأول في الخطابة والكتابة بهذا الصدد حتى تثير على المناقشة ولكن لا تجيز على المستوى التطبيقي بأن تجرؤوا على مخالفة الأكابر من مذهبكم في المسائل

[1] سير أعلام النبلاء، 16/10

الاجتهادية. ولا تسمح لكم فقط بل تشجّع على أن تقدحوا في المحدثين والأئمة الذين ينتمون إلى مكاتب فقهية أخرى في توجيه وترجيح فكرتكم المذهبية، وتجعلوهم هدفاً للنقد. ويمكن القول هنا إنهم يرعون مكانتهم عند النقد في المناقشة في آراء الفقهاء والمحدثين الآخرين. وهذا الأمر ليس بجيّد كلياً. ولكن السؤال؛ هل تجوز لنا طلاقة اللسان والقدح والردّ على رجالنا الكبار من مدرستنا في آرائهم الفقهية العلمية كما يعتبر هذا الأمر جائزاً بل عملاً صالحاً ضد الشخصيات الكبيرة من المذاهب الفقهية الأخرى؟ فلا يأتي جوابه إلا بالنفي. وفي الحقيقة أن هذه الشخصيات المقتديات وأئمتنا هي احتلت مكان الدلائل والبراهين لنا، وقد استحكمت بيننا رواية "انظروا إلى من قال" بالرغم من "انظروا إلى ما قال". وكتب الإمام الغزالي في كتابه "فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة" في الرد على مظاهر التكفير: "إن أنصفت علمت أنّ من جعل الحقائق وقفاً على واحد من النظار بعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب"[1].

تفكّروا في مسيرة حياتكم العلمية تجاه التجانس والانسجام الاجتماعي والفكري، ومن المؤسف جداً أنّ مؤسسة علمية عالية طردت رجلاً فاضلاً من أكاديمتها التحقيقية بسبب أنه قد كتب رسالة في صحيفة عن ضرروة تعديل مقرراتها الدراسية وكذا يتطلع مئات من الأفراد على أن مدير نفس المؤسسة طرد صحفياً من مائدة عامة في اجتماع بسبب أنه كتب مقالة في مجلة شهرية صادرة من مدينة دلهي عن تعديل مقرراتها الدراسية، حتى منعت عدة المدارس عن وضع الكتب من المكاتب الفكرية الأخرى ودراستها.

والحقيقة أن النزاع المذهبي له دور كبير في إنهاء حرية الفكر والرأي في المدارس الدينية، والذي يستمر حتى الآن منذ أواخر القرن التاسع عشر. وبصرف النظر عن الأمثلة لا تمثل آثار نتوقع منها أن ينقص التعنف المذهبي في هذا الزمن. ولا يمكن أن تتغير الحالة الموجودة من قيود الفكر والنظر في الهند وباكستان إلا أن يهتم بتدريس الفقه الإسلامي الخالص أو الفقه المقارن بالرغم من التركيز على فقه معيّن من مذهب خاص وبتعديل المقررات الدراسية للمدارس تعديلاً موافقاً وبتثبيت الصبغة الإسلامية بالرغم من التحزب والتمسك بمسلك خاصّ ومذهب معيّن.

---

[1] فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ص 61 و23

ظاهرة التكفير: إن ظاهرة التكفير من أخطر الظواهر التي تعاني منها أمتنا الإسلامية في العصر الراهن وهي بواسطة تقييد سلاسل حرية الفكر والنظر بين أوساطنا العلمية والدينية. ولا نجد وقائعها في عهد الصحابة المثالي في التاريخ الإسلامي الذهبي مع وجود خلافات فكرية عقائدية شديدة وربما كانت تصبح أشد اختلافاً. وقدامة بن مظعون الذي كان صحابياً بدرياً وخال أم المؤمنين السيدة حفصة رضي الله عنها، شرب الخمر مرة فلما سأله عمر رضي الله عنه عن الأمر استدل قدامة في جواز العمل الحرام من الآية الكريمة {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا} (سورة المائدة:93) فأقام عمر رضي الله عنه عليه الحدّ بالتشاور مع الصحابة الكرام بمن فيهم علي وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ولم يكفّره[1]. وقد بدّلت الخلافات بين علي ومعاوية رضي الله عنهما مجرى التاريخ الإسلامي على وجه سياسي ولكن لم يحكم أحد على أحد بالتكفير. وكان الخوارج يكفّرون أكثر من الصحابة بمن فيهم علي وعثمان رضي الله عنهما ويستبيحون دماءهم وأما علي رضي الله عنه فلم يكفّرهم. ولذلك لما سئل عنهم من قبل بعض الناس (أكفار هم؟ قال: من الكفر فروا، فسئل؛ أ مناقون هم؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً فسئل؛ ما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا)[2]. وكان المحدثون والفقهاء يتخذون الحذر فيها ويحكمون بالظواهر ويولون إلى الله السرائر ولذا من كان يسمّيه نفسه بمسلم بواسطة الإيمان بعقائد الدين الأساسية يعتبرونه مسلماً وكذا اتفق علماء أهل السنة والجماعة بأنهم لن يكفروا فرق الخوارج والمعتزلة والجهمية والقدرية بعد ظهور ضلالتهم بالرغم من اختلافهم.

ولكن عندما حدث الجمود التقليدي بين العلماء المتأخرين وسرى حبّ الدنيا في دماء بعضهم أو في طبقة منهم وجعلوا يدرّسون الفقه للحصول على المناصب الحكومية العليا فابتدأ التحزب بين العلماء فنقدهم الإمام الغزالي نقداً شديداً[3]. ووقع الانشقاق في الفقه في العصور المتأخرة وتمّت إضافة ضخمة إليها فبدأت هذه الناحية تصيب من التنزل والانحطاط. وتم استخدام أصول التكفير كأسلحة

[1] القرطبي، ص 192
[2] مصنف عبد الرزاق، 150/10
[3] إحياء العلوم، 22/1

في بيئة التصارع. وكتب الإمام الغزالي في كتابه "الاقتصاد في الاعتقاد" (الخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم)[1]. وكتب في "فيصل التفرقة" (فإن التكفير فيه خطر والسكوت لا خطر فيه)[2].

فماذا نفعل؟ تحتاج حرية الفكر والرأي إلى إجراءات جريئة لإعادتها عملياً على مستويات مختلفة في أوساطنا العلمية والدينية. وفي الحقيقة نصرخ فقط بأننا مؤيدون ومدعون لها مبدئياً، ولكن لسنا من المستعدين عملياً. وتتخوف دوائرنا العلمية والدينية من أن حرية الفكر والرأي ستطرح المجتمع الإسلامي على طريق الغرب فينفتح باب الإباحية الفكرية للمجتمع الإسلامي على طراز المغرب. ولا شك أن حرية الفكر والرأي الكاملة على طراز الغرب هي اسم آخر للإباحية، وسيبيد تقليد الغرب في هذا الأمرمستويات الأقدار الإنسانية والمثل العليا الدينية والشرافة والحضارة. ومن المهم أن تراث الحضارة الإسلامية بهذا الخصوص ثري وواسع جداً. ومن الممكن أن يوجد الإفراط والتفريط أيضاً في بعض العصور ولكن مع الاعتدال إلى حد أقصى. وكثرت فرق المانوية والديصانية والراوندية في العهد العباسي حتى أنشأ الخليفة العباسي مهدي قسماً خاصاً لمعالجة هذه القضية رسمياً. بالنتيجة كان يتم إقامة القضية ضده في المحكمة من جهة وكان العلماء يردون عليها من خلال تصنيف الكتب الفكرية من جهة أخرى[3]. ويتصدر كثير من الزنادقة المشهورين في هذا العصر مثل حماد عجرد وحماد الراوية ومطيع ابن اياس وابن أبي العوجاء وصالح بن عبد القدوس وبابك الخرمي وغيرهم[4]. وكان هؤلاء الناس يستهدفون المحكمات الإسلامية متأثرين بأفكار الأعاجم الهندوس والإغريق ولكن تلاشت كتبهم وفق فطرة الله "أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض" أو أصبحت اليوم زينة المكتبات للمطالعة والتحقيق فقط، وما بقيت آثارهم على المجتمع الإسلامي من بعد.

---

[1] الاقتصاد في الاعتقاد، ص 211

[2] فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ص 61 ، وقف الإمام الغزالي من العلماء السلف موقفاً معتدلاً في هذا الكتاب. وانظر مقالة الكاتب للدراسة التحليلية لموقف الغزالي "غزالى اور مسأله تكفير" (الغزالي ومسألة التكفير) بالأردية، السلسة الكتابية السنوية "الإحسان"، 2012م

[3] ضحى الإسلام، 1/141-140

[4] نفس المصدر

ومن الضروري أن يتم التركيز على إعادة حرية الفكر والرأي في أوساطنا العلمية خاصة في المدارس الدينية والجامعات والمؤسسات الفكرية. ويتم ترويج النقد الذاتي وتنقيح تراثنا العلمي والثقافي، ولا يمكن هذا العمل إلا بحرية الفكر والنظر. وحسب ملاحظات وخبرات طه جابر العلواني[1] ونجاة الله الصديقي أن الدول العربية لا تجيز الطلبة أن يكتبوا "هذا رأيي على مسألة فلان"، حتى يتم إلغاء أطروحة الدكتوراه لمثل هؤلاء الطلاب الذين يتجرؤون على إظهار رأيهم عند المناقشة. وهذا يحدث في بعض أوساط الهند وباكستان أيضاً.

والحقيقة ما دامت لا تتغير هذه الحالة على وجه الاعتدال فلا تتقدم مسيرتنا على طريقها ولا يمكن أن نتوقع أن الأمة المسلمة تنقذ نفسها من إطار التنزل الحضاري الذي فرضته الأمة بنفسها.

ترجمة من الأردوية: رضوان أحمد نور محمد

فهرس المصادر والمراجع

1. ابن تيمية: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، إدارة ترجمان السنة، لاهور، سنة الطبع لم تذكر
2. ابن قيّم: هادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، مكتبة المتنبي، القاهرة، سنة الطبع لم تذكر
3. أبو حامد الاقتصاد في الاعتقاد، (ضبطه وقدم له: مونس الفوزي الجسر)، اسم المطبع لم يذكر، الطبعة الأولى، 1994م
4. أبو حامد الغزالي: إحياء العلوم، مكتبة كرياطه فوترا، سماراغ، إندونيسيا، سنة الطبع لم تذكر
5. أبو حامد الغزالي: المستصفي في علم الأصول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413ھ
6. أبو حامد الغزالي: فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، (تعليق وتخريج: محمود بيجو)، مكتبة دار البيروتي، الطبعة الأولى، 1992م

[1] جديد فكرى بحران نشاندہى اور حل (ترجمة أردية: عبد الحفيظ الرحماني)، ص 42-41

7. أبو يوسف: كتاب الخراج، مكتبة مشكاة الإسلامية، تفاصيل المطبع لا توجد
8. أحمد أمين: ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،
9. أحمد بن حنبل: مسند أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008م
10. جمال بنا: حرية الفكر والاعتقاد في الإسلام، دار الفكر الإسلامي، القاهرة، سنة الطبع لم تذكر
11. السلسة الكتابية السنوية "الإحسان" الله آباد، شاه صفي أكيدمي، 2012م
12. شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، الرياض، 1985م
13. طه جابر العلواني: أدب الخلاف، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ورجينيا، أمريكا، 1991م
14. طه جابر العلواني: إشكالية الردة و المرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2006م
15. طه جابر العلواني: جديد فكرى بحران نشاندہی اور حل (ترجم بالأردية: عبد الحفيظ الرحماني)، قاضى پبلشرز، نيو دلهي، 1994م
16. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م
17. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م
18. مجلة "الندوة" الشهرية، إسلام آباد، ديسمبر، 2011م
19. محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح، دار عالم الكتب، الرياض، 1996م
20. هدى الساري مقدمة فتح الباري، مكتبة شيخ الهند، ديوبند، 2006م
21. يوسف القرضاوي: فتاوى معاصرة (ترجم بالأردية: السيد زاهد أصغر الفلاحي)، مركزى مكتبه اسلامى، نيو دلهي، 2005م
22. يوسف القرضاوي: في فقه الأولويات، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، القاهرة، 2005م

إسهام علماء الهند في نصح وإرشاد ملوك سلطنة دهلي، دراسة تاريخية

ـ صاحب عالم الأعظمي الندوي

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واتبع هداه بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

من المعلوم تاريخياً أن للنصيحة والإرشاد شأناً عظيماً في حياة الملوك والسلاطين في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية؛ وذلك منذ العهد النبوي إلى أن سقطت الدول الإسلامية في الشرق والغرب، وهناك أحاديث جامعة تبيّن مفهوم النصيحة الشرعية وحدودها والتي قام بنشرها الصحابة والتابعون ثم العلماء المسلمون في العصور التاريخية الإسلامية. وكانت الغاية المرجوة من نشر ثقافة النصيحة والإرشاد تقويم الملوك والسلاطين دينياً وخلقياً واجتماعياً مع بذل ما يستطاع في إرشادهم للقيام بواجبهم وما ينفعهم وينفع الناس، معتبراً النصيحة والإرشاد عماد الدين، ومن المعلوم أن الشعب والمجتمع على دين ملوكهم.

وقد دخلت ثقافة النصيحة والإرشاد مع الثقافة الإسلامية الأخرى إلى كل البلدان التي دخلها المسلمون عبر قنوات التجارة الدولية أو من خلال الفتوحات الإسلامية، ومن هذه البلدان الإسلامية شبه القارة الهندية التي حكم المسلمون فيها ثمانية قرون متتالية، وأعطت الثقافة الإسلامية للهند والهنود، ذلك من خلال الدول الإسلامية والإمارات الإسلامية المستقلة، طيلة هذه الفترة المذكورة أعلاه أحسن ما عندها من الدين والعقيدة والأخلاق الحسنة كما طوّرت العلوم الهندية ونشرتها بين عامة الناس والتي كانت حكراً للملوك ورجال الدين.

والعلماء الذين لعبوا دوراً بارزاً في مجال النصيحة والإرشاد في عصر سلطنة دهلي هم كثيرون معظمهم قاموا بذلك مع الإخلاص الكامل متجردين عن الهوى والأغراض الشخصية والنوايا السيئة التي قد تحبط الأعمال، مع استخدام طرق الرفق والحكمة والبصيرة، مع اختيار أسلوب النصح المتزن البعيد عن الانفعالات وانتقاء الكلم الطيب والوجه البشوش والصدر الرحب، مع اختيار الزمان والمكان المناسب لنجاح عملية النصيحة والإرشاد. وبسبب اختيار مثل هذه المناهج السليمة والسير عليها نجحتْ في معظم الأحيان المجهوداتُ التي بذلها العلماء المخلصون في تقويم السلاطين دينياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً مما انعكس على المجتمع الهندي، كما أثرت سماحة هؤلاء السلاطين الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية في نفوس غير المسلمين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي دون إكراه، وبجانب آخر وفّرت مثل هذه الأجواء الدينية الفرص للدعاة والعلماء ورجال الدين تفعيل عملية نشر الإسلام في ربوع الهند من خلال المدارس الإسلامية والمراكز الدينية.

وهناك نماذج عديدة في المصادر المعاصرة والتي تؤكد على الحوار الديني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي بين السلاطين والعلماء، والتي تفيد أيضاً جرأة هؤلاء العلماء في نصيحة السلاطين وإرشادهم بين الرفق والشدة، وكان السلاطين لا يفارقون العلماء سفراً ولا حضراً، وكانوا يسندون إلى العلماء المسئوليات الدينية والسياسية والاجتماعية الاقتصادية بجانب الاستشارات الخاصة في أمور الشرع والدين والحكم.

وبسبب علاقة سلطنة دهلي بالدولة العباسية كان هناك دائماً اهتمام خاص لدى سلاطين دهلي بعلماء العرب القادمين إلى الهند، فكان السلاطين يعينونهم في المناصب العليا مثل القضاء ومنهم ابن بطوطة (ت 799هـ/1402م)، وقد حدثت هجرات عظمى إلى الهند خصوصاً بعد سقوط بغداد على يد المغول في عام 656هـ/1258م، ولدى وصول آلاف من الأسر العربية والتركية من العلماء والمشايخ أمر السلطان غياث الدين بلبن (ت 684هـ/1286م) المعاصر لأحداث سقوط بغداد بإنشاء أحياء خاصة بأسماء عربية في دهلي للقادمين.

وهكذا مصادر عصر سلطنة دهلي مليئة بأمثال النصائح والإرشادات من العلماء والصالحين حيال سلاطين دهلي، ستأتي أمثال عديدة بإذن الله في

الصفحات التالية من العلماء الهنود والعلماء النازحين من العرب الذين لعبوا دوراً محورياً في إصلاح وتقويم سلاطين دهلي دينياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً.

هذا وسيتضمن البحث النقاط التالية:

1. تعريف موجز للنصيحة والإرشاد أي مفهومها وأنواعها وشروطها.
2. تعريف موجز لسلطنة دهلي وسلاطينها.
3. أقسام العلماء ومناهجهم في عملية النصح والإرشاد.
4. مكانة العلماء والفقهاء في البلاط السلطاني ومواقفهم في النصح والإرشاد.
5. نتائج البحث والملاحق وقائمة المصادر والمراجع.

(1) تعريف موجز للنصيحة

النصيحة في اللغة:

النصيحة معناها قول فيه دعاء إلى صلاح ونهي عن فساد وهي مأخوذة من فعل "نصح" بمعنى خلص، ويقال "نصحت توبته" أي خلصت من شوائب العزم على الرجوع، ويقال أيضاً "نصح قلبه" أي خلا من الغش، ويقال نصح له أي أرشده إلى ما فيه من خير وصلاح.[1]

النصيحة في الاصطلاح:

تفيد المصادر أن النصيحة كلمة يعبّر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له ولا يمكن أن يعبّر هذا المعنى بكلمة تحصرها وتجمع معناها غيرها[2]، فهي فعل وقول فيهما صلاح صاحبه.

أهمية النصيحة وحكمها:

والنصح أساس في حياة البشر وهي من سنن المرسلين صلوات الله عليهم، فالأنبياء عليهم السلام جاءوا ناصحين لقومهم فهذا نبي الله نوح عليه السلام

---

[1] المعجم الوسيط، مادة: نصح

[2] معالم السنن شرح سنن الإمام أبي داوود، 126/125/4

يقول لقومه:" {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}الأعراف62، ويقول في مكان آخر {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}هود34، ويقول النبي هود عليه السلام {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ}الأعراف68، ونبي الله صالح يقول {وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}الأعراف79. فهولاء الأنبياء وغيرهم نصحوا قومهم لعبادة الله، ولترك الأوثان وعدم الإشراك مع الله، وقد ورث نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلم نصيحة القول والفعل، فنصح أمته فكان خير ناصح لهم، دلّهم إلى ما يسعدهم في الدنيا والآخرة، وجعل النصيحة شرطاً في الدين الإسلامي، ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال: "بايعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم".[1] وهكذا أصبحت النصيحة في حكم فرض عين وأكّد على ذلك الإمام ابن حزم فيقول "النصيحة لكل مسلم فرض".[2] ويعتبر الحديث النبوي "الدين النصيحة" من جوامع كلمات النبي ﷺ، وروى هذا الحديث معظم المحدثين والفقهاء والأئمة في أعمالهم[3]، فلا ريب أن الدين النصيحة أمرٌ مهمٌ في الشريعة الإسلامية.

شروط النصيحة: يجب أن تتوفر في الناصح والمنصوح الشروط التالية:

1. الإسلام أي لا بدّ أن يكون الناصح مسلماً، أما المنصوح فيرى بعض العلماء أنه لا بد أن يكون مسلماً، بينما يرى البعض عدم اشتراط الإسلام، وفي هذا يقول ابن حجر رحمه لله "النصح للكافر معتبرٌ بأن يُدعى إلى الإسلام، ويشار عليه بالصواب.[4]
2. البلوغ والعقل.
3. ولا بد أن النصيحة تقوم للاعوجاج وتصحيح للأخطاء، وإيقاف للباطل، وإيقاظ للهمم، وهي أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وإذا خرجت

---

[1] صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: 2157

[2] رسائل ابن حزم الأندلسي، 363/1

[3] قال رسول الله صل الله عليه وسلم: "الدين النصيحة ثلاثاً. قالوا: لمن يا رسول الله ؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"، منهاج السنة، الصفحة أو الرقم: 146/5

[4] فتح الباري، 140/1

النصيحة عن التوضيح والتسديد إلى التشهير والتوبيخ أو إلى النصح بفعل المحرم شرعاً، انقلبت من النصيحة إلى الفضيحة.[1]

آداب النصيحة: لا بد أن يتحلى الناصح بآداب النصيحة حتى يقبل نصيحته المنصوح ويعمل بها، ومن أهمها:

1. أن يقصد وجه الله، 2. أن لا يقصد التشهير، 3. أن يكون النصح في السرّ وليس في العلن، 4. أن يكون النصح بلطف وأدب ورفق، 5. عدم إلزام غيره بما ينصحه به، 6. اختيار الوقت المناسب للإرشاد والنصيحة، 7. الحذر من النقد المباشر، 8. احترام آراء الآخرين.[2]

وتوحي هذه الآداب المذكورة في عملية النصح والإرشاد إلى أن عملية الإصلاح تحتاج إلى علم وحكمة وفطنة وتخطيط وأسلوب تنفيذ مناسب حتى تعطي الثمرة المرجوة.

لمن تكون النصيحة: ونظراً لما جاء في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أن النصحية دين، وتعبّر عن أصول الدين وفروعه، فلا بد أن تكون النصيحة لله ولرسوله في الأوامر والنواهي كافة، وكذلك تكون لأئمة المسلمين من الخلفاء وعلماء الدين، كما تكون لعامة المسلمين، أما النصيحة لولاة الأمور من الحكام، وهو موضوع بحثنا، فيندرج تحتها أمور مهمة ومنها أن تكون شريحة خاصة من تعاون الحكام في الفرق بين الحق والباطل، وتنبههم عند الغفلة وتسد خلتهم عند الهفوة، وتقوم جمع الكلمة عليهم، وتدفعهم عن الظلم، وتحثهم على الخير بالتي هي أحسن، وأما النصيحة لأهل العلم والعلماء، فتقع المسئولية على الملوك والسلاطين ثم على عامة الشعب أن تبث علومهم ويتم نشر مناقبهم، ويقبل ما قدّموا من الخير والعلم، والأعمال الحسنة، ويتمّ إجلالهم وتوقيرهم بما يجب لهم.[3]

---

[1] رسائل ابن حزم الأندلسي، 364/1

[2] يقول ابن القيم رحمه الله (ت751هـ/1351م): "والنصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة والشفقة عليه والغيرة له، وعليه فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة، مراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه... راجع للنص الكامل "الروح"، ص347

[3] بدائع السلوك في طبائع الملوك، ص201-209، تحت باب "بذل النصيحة".

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الكتب التراثية العربية مليئة بنماذج حية للنصائح قدّمها سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين للملوك والأمراء في التاريخ الإسلامي العربي[1]، وقد انتقل كثير من هذه النماذج الرائقة إلى شبه القارة الهندية، خصوصاً في فترة البحث؛ وذلك بيد العلماء والشيوخ الذين هاجروا من الدول العربية إلى الهند ولا توجد نصائحهم –على حدّ علمي- في الكتب العربية إلا قليلاً والتي دوّنها علماء الهند في أعمالهم العربية، وهذا يحوجنا إلى ذكر نماذج لنصائح بعض هؤلاء العلماء في نهاية هذا البحث إن شاء الله تعالى.

(2) تعريف موجز لسلطنة دهلي

تمتد فترة البحث من الأسرة المملوكية إلى الأسرة التغلقية، حيث هناك أربعة أسر (أسرة مملوكية، أسرة غياثية، أسرة خلجية، أسرة تغلقية) يطلق عليها سلطنة دهلي، والتي حكمت معظم شبه القارة الهندية خلال عام 602-932هـ/1205-1526م، وهي تعتبر أول أسرة حاكمة ذات ثقافة فارسية حكمت الهند مستقلة دون تبعية للخلافة العباسية، واستقرّ خلالها الحكم الإسلامي بصورة فعالة وعميقة،أسّسها السلطان محمد الغوري (ت602هـ/1205م)، الذي ولّى غلامه قطب الدين أيبك كنائب له، ولكن بعد وفاة السلطان محمد الغوري استقل قطب الدين وأعلن قيام دولة المماليك في عام 603هـ/1206م، والتي استمرت في الحكم من بين 603-688هـ/1206-1290م.

ويعتبر خلفه السلطان شمس الدين ألتتمش (607-633هـ/1210-1236م)، أعظم سلاطين هذه الدولة، حيث بذل حياته في توحيد الهند، وقام بتحسين الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، مما جعل مدينة دهلي مركزاً مهماً للثقافة الإسلامية، وقد أعقبت وفاة السلطان شمس الدين ألتتمش تولية عدة سلاطين أثبتوا أنهم غير جديرين بالحكم، حيث اشتغل بعضهم باللهو والمرح والبعض الآخر بالزهد والتقشف تاركين بذلك الفرصة لبعض أمراء المماليك الانفراد بشئون الحكم.

[1] راجع مثلاً أبي حامد الغزالي (ت 505هـ/1112م): التبر المسبوك في نصيحة الملوك، 1/195-305.

وكاد أن ينهدم ذلك الصرح العظيم الذي شيّده السلطان ألتتمش، إلى أن جلس السلطان غياث الدين بلبن (664-684هـ/1266-1287م) على عرش سلطنة دهلي، وحكم عشرين عاماً، وكان من اختيار السلطان، حيث نجح في الجبهات العديدة لاستقرار الهند سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، ومن أهم إنجازاته أنه تمكن من القضاء على الفتن الداخلية وتقوية الجبهة السياسية الداخلية مما جعله أن يقف في وجه الغارات المغولية بكل صمود، وبالإضافة إلى ذلك بذل المجهودات المضنية في تحسين الإدارة العامة وركز خصوصاً على نشر العدل والإنصاف للرعية، ولتحقيق هذه البغية بنى داراً سمّاها "دار الأمن"، وبذلك أصبح قدوة لملوك وسلاطين الهند فيما بعد، وعلى الرغم من أن سلالته لم تدم طويلاً بعد فإن السلطنة نفسها كانت وطيدة الجذور عند موته.

وخلفت أسرته، غير القادرة على الحفاظ على الدولة الغياثية، سلالة خلجية 689-720هـ1290-1321م) ذات الجذور الأفغانية، وقد حوّل السلطان علاء الخلجي هذه الأسرة الحاكمة إلى إمبراطورية عظيمة؛ حيث استطاع أن يستولي على معظم الأراضي الهندية، ومن أهم إنجازاته ضمّ المناطق الجنوبية إلى سلطنة دهلي، كما قام بتغييرات جذرية في الشئون الإدارية والمالية بما فيها التحكم في الأسعار ووضع القواعد والقوانين المالية الخاصة بضبط الأسعار ومنع الاحتكار، بالإضافة إلى ذلك قضى على العناصر الإجرامية، وكافح أنواع المفاسد والمنكرات بما فيها منع الناس عن شرب الخمر من خلال سنّ القوانين الصارمة، وقد ترعرعت الثقافة الإسلامية واللغة الفارسية في أنحاء سلطنة دهلي في عهده، ولم يتمكن من جاء بعده من أسرة خلجية أن يحافظ على كيانه، فقضي على الدولة التغلقية، ذات الجذور التركية الهندية، في عام 720هـ/1321م واستمرت إلى عام 815هـ/1413م، حكم خلال هذه الفترة عددٌ من السلاطين، أشهرهم محمد بن تغلق (723-752هـ/1324-1351م). وقد بلغت الهند في عهده ذروتها في تحسين الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فقد ازدهرت الزراعة والصناعة والحرف والتجارة الداخلية والخارجية أيّما ازدهار، فقد بذل السلطان المذكور في حلّ كافة القضايا المتعلقة بالسياسة والاقتصاد والتجارة.

وقد اعترف المؤرخون الهندوس وغيرهم بأن الفتوحات الإسلامية والاستقرار السياسي للمسلمين في الهند جعلهم جزءًا لا يتجزأ من أرض الهند، ولا ريب أنهم اتخذوها وطناً وسكناً ومعاشاً ومدفناً، ووهبوا لهذا البلد أفضل ما عندهم من عقيدة ورسالة وأخلاق وسجايا ومقدرة وكفاية وتنظيم وإدارة، فنقلوها من طور البداوة إلى طور الحضارة.

هذا، وقد اخترت في هذا البحث سلطاناً عظيماً من كل هذه الأسرة المالكة لتمثيل دولته حول العلاقات مع العلماء والفقهاء ودورهم في نصح وإرشاد ذلك السلطان، مع الإشارة إلى مواقف العلماء المشهودة مع سلاطين عصرهم، ومن الصعب أن يتسع مثل هذا البحث لمواقفهم جميعاً، وأرجو أن يغنينا ذكر بعض المواقف عن ذكر مواقف كثيرة مشابهة لمواقف نظرائهم.[1]

(3) أقسام العلماء ومناهجهم في عملية نصح وإرشاد السلاطين

إن المتتبع لتاريخ الدول الإسلامية شرقاً وغرباً سيتبين له كيف ازدهرت الحضارة الإسلامية بفضل الله وقوة إيمان العلماء وإخلاصهم حيال نصح وإرشاد الطبقة الأرستقراطية وعامة الناس فكانوا يستخدمون أساليب ووسائل ومناهج مختلفة ومنها التوعية والنصح وتبصير السلاطين والشعوب على دين ملوكهم، وهذا ما حدث مع سلطنة دهلي، وكان من عادة سلاطين دهلي استخدام العلماء والفقهاء من أهل العلم والصلاح على المناصب العليا مثل صدر الصدور، ومنصب شيخ الإسلام، ومناصب القضاء. فكان السلاطين يعلمون جيداً أن تنظيم أمور الدين والآخرة لن يتم إلا بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة، ومن هنا جاءت الفرصة للعلماء أن يكونوا مستشارين وندماء للسلاطين الذين كانوا يأخذون بآرائهم في كل كبيرة وصغيرة.[2]

ويذكر لنا المؤرخ العمري أن العلماء كانوا يحضرون مجلس السلطان محمد بن تغلق (ت724هـ/1324م)، وأنه كان يأخذ بأطراف الحديث على كل من حضر على كثرة العلماء، وذلك بأن يذكر مسألة ما ثم يتجاذب أطراف الجماعة البحث فيها

[1] راجع للاستزادة حول هذه الأسر الحاكمة: معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص422-426 والهند في العهد الإسلامي، ص164-179

[2] الميول الدينية لدى سلاطين، ص109

بحضرة السلطان وهو كواحد منهم يتكلم معهم ويبحث ويُرد عليه.[1] وكان هناك أقسام من علماء الدين والدنيا، أما القسم الأول فكان دائماً يجتنب الاختلاط مع السلاطين والأمراء، ولكن عند الحاجة كانوا يعبّرون عن الحق والباطل بجرأتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانت المواقف المهمة دائماً تثير حمية هؤلاء العلماء الغيورين على الدين الإسلامي، فكثير منهم غامروا مراراً بحياتهم وشرفهم وآثروا الموت على الحياة لكي يعملوا على مبدأ "أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر" كلما دعت إليه الحاجة واقتضت الظروف. ومن هؤلاء العلماء مولانا علاء الدين أصول، ومولانا دولت يار، ومولانا برهان الدين نسفي، ومولانا شادي، ومولانا شهاب الدين حق گو وغيرهم.[2] أما العلماء من القسم الثاني فكانوا يطمعون في مناصب الحكم وهدايا السلاطين من أراضٍ وإقطاعات والجاه والمال؛ مما كان يدفعهم إلى قول آمنّا وصدّقنا على كل ما يقوم السلاطين من الغث والسمين، ومن هؤلاء العلماء شيخ الإسلام نجم الدين صغرى، ومولانا منهاج السراج (ت658هـ/1260م) وغيرهما.[3] أما القسم الثالث من العلماء فهم الذين لم يترددوا في قبول الوظائف الإدارية والمراكز الدينية والدنيوية لا طمعاً فيها ولا جرياً وراء زخرف الحياة ومباهجها، ولكن لمنع تسرب المتسلقين وذوي النفوس الضعيفة من شغل هذه الوظائف، وبذلك نجدهم لا يخافون البتة من الانتقاد لأعمال السلاطين غير الشرعية، ويأتي في هذه الزمرة كلٌّ من القاضي وجيه الدين كاشاني، والسيد نور الدين مبارك الغزنوي (ت632هـ/ 1234م)، والقاضي مغيث ومولانا عبد الله وغيرهم.[4]

هذا وقد نجد أنه تم تقسيم كل من هؤلاء العلماء إلى جماعات عديدة؛ ذلك حسب النظريات والآراء الدينية، فكانوا يقومون بتوجيه السلاطين إلى الأمور السياسية والدينية من خلال هذه النظريات الدينية والسياسية، ما كان يؤدّي إلى تصادم رغبات بعضهم ببعض في البلاط السلطاني وإلى وضع السلاطين في فخ الصراع الفكري، فمثلاً كانت ترى جماعة من بعض العلماء المشرعين أن الآداب غير الشرعية والبدع والخرافات السائدة في البلاط لا بد أن يقضى عليها

---

[1] مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الثالث، ص67

[2] راجع فوائد الفوائد (ملفوظات شيخ نظام الدين أولياء)، ص158-165 وأخبار الأخيار، ص129

[3] لترجمتهم راجع: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، 129/1

[4] لترجمتهم راجع: المرجع السابق، 116/1-130

جملة وتفصيلاً، بينما ترى العناصر الدينية التركية أنه لا بد من رسم وإحياء الآداب الإيرانية الساسانية التي توحي إلى التفوق الطبقي بين أقرانهم، بينما كانت الجماعة الثالثة تعتقد في عدم إعطاء حقوق الذميين للهندوس، والأخرى ترفض هذه النظرية وكانت تحاول توطيد العلاقات الثقافية والاجتماعية معهم، ثمة فئة من الفقهاء كانت تطالب السلاطين بمنع الصوفية من السماع والرقص، وترفض الجماعة الموالية للصوفية قائلة إنه لا يجوز التدخل في أمور العقائد الدينية، والجماعات الأخرى كانت تريد من السلاطين عدم مصاحبة الفلاسفة. وسنرى كل هذه الأمثلة من العلماء في الصفحات التالية.

(4) مكانة العلماء والفقهاء في البلاط السلطاني ومواقفهم في النصح والإرشاد

بلاط السلطان قطب الدين أيبك(ت607هـ/ 1210م)[1]

يعتبر قطب الدين أيبك المؤسس الحقيقي للدولة المملوكية في الهند، وذكر المؤرخون ثلاث خصال لهذا السلطان، وهي العدل، والشجاعة، والسخاء، فكان يعطي الناس أكثر مما يستحقونه، وقد أثنى عليه علماء عصره واعتبروه لا يضاهيه أحدٌ فيما يتمتع به من الجود والكرم شرقاً أو غرباً.[2] وتفيد المصادر أن السلطان دائماً يحرص على توطيد العلاقات مع العلماء والفقهاء، وكان دائماً مستجيباً لهم، يقول المؤرخ المعاصر: "أمر السلطان بتوفير مال الهدايا والهبات إلى العلماء والفقهاء والقرّاء والزهّاد والصالحين، وأعطى من خزانته الخاصة مالاً كثيراً من الذهب والغلات لتوزيعهما على الفقراء والمساكين.[3] وبسبب تقديره واحترامه وتوقيره للعلم والعلماء أصبحت مدينة لاهور، حيث كان أميراً عليها، مركزاً علمياً مهماً للعلم والعلماء، فكانت تشدّ الرحال إليها.[4]

---

[1] جلب من تركستان في صغر سنه، فاشتراه القاضي فخر الدين بن عبد العزيز الكوفي بنيساپور، وعلمه القرآن والخط، ولما توفي القاضي اشتراه واحد من التجار المسلمين من أبناء القاضي وعرضه على السلطان شهاب الدين الغوري(ت602هـ/1205م)، فاشتراه وجعله من خواصه فتدرج إلى الإمارة، راجع الإعلام، 115/1

[2] تاريخ فخر الدين مبارك شاه، ص54-60

[3] المصدر السابق، ص35

[4] تاج المآثر، ص466

ونال كثير من العلماء الحظوة والاحترام عنده ومنهم على سبيل المثال القاضي حميد الدين افتخار، وعلي بن عمر المحمودي، فخر مدبر، صدر الدين حسن نظامي، ومولانا بهاء الدين أوشي.[1]

وبسبب تفاعل السلطان مع العلماء والفقهاء كان يرغب في إحياء السنة النبوية، وكان يحترم شخصياً الشعائر الإسلامية غاية الاحترام والتقدير، كما تجاوب مع العلماء في قضية المكوس والضرائب غير الشرعية، فبناءً على نصيحتهم الدينية أمر السلطان بإلغاء الضرائب غير الشرعية من ذمة المسلمين وأخذ العشر منهم على حسب الشريعة الإسلامية. وقد أعطي السلطان ألقاباً عديدة بما فيها، كهف الإسلام والمسلمين، ناصر الإسلام، ركن الإسلام وغيره.[2]

بلاط السلطان شمس الدين إيلتتمش(607-633هـ/1210-1235م)[3]

يعتبر السلطان شمس الدين إيلتتمش أول من جلس على عرش الهند مستقلاً، وحكمها خمساً وعشرين عاماً، بكل عظمة وفخامة، وهو أول ما حاول توحيد المناطق الهندية المفتوحة في ظل الحكم الإسلامي، ورسخ دعائم الحكم في المناطق التي فتحها سلفه وسيده قطب الدين أيبك، وبجانب الفتوحات الإسلامية ركز أيضاً على الرعاية الخاصة بنشر العلوم والفنون والثقافة، وقام بإصلاح الجهاز الإداري، وحرص خصوصاً على إقرار العدالة والإنصاف في عهده، ويذكر لنا الرحالة ابن بطوطة (ت779هـ/1377م) أنه أقام على باب قصره تمثالين لأسدين موضوعين على برجين وفي أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير، يدقه المظلوم وحينئذ يسمح السلطان بمثوله بين يديه، وينظر في أمره للحين وينصفه.[4]

موقف العلماء من جلوسه على عرش سلطنة دهلي: تذكر المصادر أنه لما جلس أيلتتمش على كرسي الحكم، تردد العلماء والفقهاء في عملية البيعة، فكانوا

---

[1] حول ترجمتهم راجع: لباب الألباب، ص203

[2] راجع: تاج المآثر، 4/ تاريخ فخرالدين، ص32-34/ وراجع لترجتمه: الإعلام، 115/1

[3] أصله مملوك، ابتاعه السلطان قطب الدين أيبك من غزنة وحمله معه إلى الهند، ولمس فيه نبل الأخلاق والفضيلة والذكاء والشجاعة، فجعله رئيساً لحرسه، ثم أسند إليه حكم ولايات الهند، راجع: الإعلام، 102/1

[4] تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، 121/3-122

يشكّكون في أنه جلس على الكرسي دون الحصول على مرسوم الحرية من عتقه من سيده، ولذا حضر وفد من العلماء والفقهاء تحت قيادة القاضي وجيه الدين الكاشاني الذي كان أكبر قضاة الهند في عهد السلطان أيبك[1]، ولدى وصولهم فوجئوا لما قدم السلطان مرسوم الحرية إليهم دون أي استفسار في ذلك، فبايع العلماء والفقهاء في ساعته،[2] ولم تؤدّ هذه الواقعة التي وقعت في بداية عهده، إلى خلق الشعور لدى السلطان حيال نفوذ العلماء وقوتهم السياسية والدينية فحسب؛ بل حدّدت هذه الواقعة نوعية العلاقات مع هذه الشريحة.

وتفيد المصادر رغبة السلطان الدينية والغيرة عليها بجانب ورعه وتقواه، وتؤكد على أن أعماله الحربية والسياسية لم تمنعه من انشغاله بالشئون الدينية، فكان يواظب على الصلوات الخمس في السفر والحضر، وكان يصطحب الأئمة والوعاظ في العمليات العسكرية كافة.[3] وبسبب يقظة العلماء وتجاوبهم مع السلطان كان بلاطه يشهد المجالس والحلقات الدينية والعلمية، فكانت هذه الحلقات توفر للعلماء والفقهاء أيسر الطرق لمخاطبة السلطان بشكل مباشر، وتمدّنا المصادر إلى ثلاثة أنواع من الحلقات الدينية، 1. حلقة النصيحة والإرشاد. 2. حلقة البحث والمناقشة العلمية. 3. حلقة الأذكار والمناجاة، فكان من عادة السلطان أنه كان يستمع ثلاثة أيام إلى من ينصحه ويذكره ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، فكانت حلقة النصح والإرشاد تنعقد ثلاثة أيام في أسبوع، ولكن في أيام رمضان كانت تنعقد بصورة يومية.[4]

نصائح العالم السيد نور الدين مبارك الغزنوي(ت632هـ/1234م)[5]: كان السيد نور الدين من العلماء الأجلاء، وخير مثال من العلماء الذين يقولون كلمة حق

---

[1] راجع لترجمته: الإعلام، 130/1

[2] المصدر السابق، 121/3

[3] أفاض صاحب طبقات أكبري، فيقول: "كان السلطان مولعاً بالطاعة والعبادة، وكان يذهب إلى المسجد في أيام الجمع، ويقوم بأداء الفرائض والنوافل..." راجع: طبقات أكبري، 70/1

[4] طبقات ناصري، ص175، وجاء في المصدر نفسه أن حلقات النصح والإرشاد تنعقد أيضاً في أيام المهمات العسكرية تحت إشراف العلماء الكبار في البلاط، راجع: المصدر نفسه، ص175، وكذلك كان السلطان يشارك في الحلقات الدينية العامة التي كانت تنعقد بعد كل صلاة الجمعة تحت رعاية العلماء والفقهاء لنصح العامة، راجع: الميول الدينية، ص109.

[5] هو الشيخ الإمام نور الدين المبارك بن عبد الله بن شرف الحسيني الغزنوي وهو من ذرية الحسين ذي الدمعة. ولد ونشأ بغزنة وأخذ عن خاله الشيخ عبد الواحد بن الشهاب أحمد

لدى السلاطين والملوك ولايخافون لومة لائم، وكان أهل دهلي يحترمونه ويكرمونه، ولقبه "مير دهلي"، وكان السلطان أيضاً يكرمه غاية الإكرام، وقام الشيخ مرات عديدة بإلقاء كلمة الوعظ والنصح في حلقات السلطان العلمية والدينية، وانتقده على اتخاذ الآداب السلطانية غير الشرعية، وبجرأة فائقة من أجل أن تبقى كلمة الحق عالية وعزيزة، وعلي أن أذكر هنا ملخص النصائح التي وجهها الشيخ مباشرة إلى السلطان وهي كالآتي:

1. الآداب السلطانية التي اتخذها السلطان مثل آداب الأكل والشرب وآداب البلاط، كلها غير شرعية جملة وتفصيلاً.
2. هناك أربعة أشياء أقدّمها لحضرة السلطان، وينبغي على سيادتكم العمل بها:

أ: إعلاء كلمة الحق والمحاولة في نشر الشعائر الإسلامية، والقضاء على الشرك والكفر، والتعامل الشديد مع غير المسلمين.

ب: مكافحة الفسق والفجور والعصيان والمفاسد والمنكرات.

ج: نشر الأحكام الشرعية وتعيين الكوادر المعنية من العلماء والأتقياء والزهاد لتحقيق هذه البغية، وطرد الفلاسفة من السلطنة، وعدم تعيين العناصر غير الإسلامية على المناصب العليا.

د: القيام ببذل المجهودات الحثيثة لتحقيق العدل والإنصاف مع العزم على القضاء على الظلم والتعدي من المجتمع. ويستزيد المؤرخ قائلاً: إن السيد نور الدين كان يعتقد أن السلطان إذا عمل على هذه النصائح فسيعتبر من أولياء الله، وسيكون له مكان بين الأنبياء والرسل، ولكن لو لم يقم بذلك فمهما يكون متديناً وقواماً وصواماً في حياته الخاصة فلن يسمن ولن يغني من جوع، وفي نهاية المطاف مصيره سيكون بطبيعة الحال إلى النار.[1]

الغزنوي، ثم سافر إلى بغداد وأخذ عن الشهاب عمر بن محمد السهروردي وصحبه زمناً ثم عاد إلى غزنة فتبرك به شهاب الدين الغوري في غزوات الهند وولّاه مشيخة الإسلام، وسار على نهجه الملوك فأبقوه بمكانته يتبركون به .. مات سنة 632هـ ودفن في دهلي القديمة شرق الحوض الشمسي، راجع: الإعلام، 116/1

[1] راجع للتفصيل: تاريخ فيروز شاهي، ص41-44

وجود العلماء الفاسدين وتأثيرهم السلبي: بجانب العلماء المخلصين الصالحين نجد جماعة من العلماء الفاسدين في بلاط السلطان والتي تركت أثراً سيئاً في نفوس السلطان، كما أجبر العلماء والشيوخ المخلصين والمتدينين على ترك البلاط والمناصب العليا وهجرة عاصمة دهلي للمناطق الهندية الأخرى، وأذكر هنا مثالاً واحداً لإلقاء الضوء على مثل هذه الشريحة من العلماء التي أسهمت في تقليل شأن العلماء في نظر السلاطين والشعب؛ ذلك لأنهم انتزعوا من لباس التقوى والورع ما أبعدهم عن جادة الصواب إلى طرق الأبواب من أجل الدنيا وهو الأمر الذي منعهم عن نيل الحظوة والاحترام من السلطان، ومن الشريحة الفاسدة مولانا نجم الدين صغرى الذي جعله السلطان شيخ الإسلام ولكنه لم يمنع نفسه عن التفكير في إيذاء العلماء والشيوخ.[1] ومنهم الشيخ جلال الدين تبريزي الذي تعرض للأذى على يد شيخ الإسلام نجم الدين الصغرى الذي كان يحسد من الأخير ويكره بسبب شعبيته بين العام والخاص، وتحامل على الشيخ جلال الدين تبريزي، وقذف بالباطل على الحق، مستخدماً الراقصة التي اتهمت الشيخ المذكور باتهامات سيئة للغاية، ووصلت القضية إلى السلطان الذي طلب الاجتماع في مسجد الجامع من العلماء والفقهاء للوصول إلى الحقيقة، وبعد التحقيق اعترفت الراقصة أنها قد دفع لها الشيخ نجم الدين صغرى مالاً لهتك عزة الشيخ والاستخفاف بأمره لدى السلطان، وأكّدت على أن كل ذلك محض كذب وافتراء والشيخ بريء من كل هذه التهم، وهكذا كشف أمر شيخ الإسلام نجم الدين صغرى الذي عزله السلطان على الفور من الشياخة، وقد تأثر الشيخ جلال الدين تبريزي بهذه الواقعة المريرة ورحل من دهلي قائلاً:"لقد جئت إلى هذه المدينة وكنت ذهباً إبريزاً، ثم تحوّلت إلى الفضة، ولا أعلم ماذا سيحصل لي في المستقبل لو مكثت هنا برهة من الزمان".[2]

ولا شك أن السلطان كان يحمل قلباً نابضاً حيال الإسلام والشريعة الإسلامية كما يهتم بالعلماء والشيوخ[3]، وقام بخلق البيئة الصالحة في دهلي للرقي بالحضارة

---

[1] هناك أمثلة عديدة لمواقفه السلبية مع العلماء والشيوخ، للمزيد راجع: سير الأولياء، ص54-55 وما بعدها.

[2] راجع: سير العارفين، ص169/ أيضاً: فوائد الفوائد، ص113

[3] وتجدر الإشارة إلى أنه بسبب اهتمام السلطان بالعلماء والمشايخ هاجرت الأسر العلمية من شرق ووسط آسيا قاصداً إلى الهند، وكان السلطان يستقبل هذه الأسر العلمية استقبالاً حاراً ما جعلها تستقر وسكنت دهلي، وتفيد المصادر أنه قد خرج كثير من الأحيان لاستقبال العلماء

الإسلامية وازدهارها، ولكن في الواقع أفكاره الدينية لم تتعدّ أكثر من قضية إنقاذه الشخصية، يستطيع الباحث اليوم أن يتساءل عن ذلك من خلال الانتقادات التي وجّهها السيد نور مبارك في نصائحه حيال السلطان، لماذا فشلت تلك المجالس العلمية والحوارات الدينية والمناقشات القيّمة في تغيير نظريات السلطان السياسية والدينية والتي كانت باستطاعتها أن تغيّر دعائم الأنظمة السياسية مع الأسس الدينية الصحيحة[1]، تفيد المصادر أن الأمراء ذات الجذور الأرستقراطية كانوا يسخرون في بلاطه من الموظفين ذوي الأصول الوضعية، كما كان السلطان يقوم بعزلهم عن المناصب.[2]

ولا شك أن سلطة السلطان الدينية والسياسية قد امتدت وقويت بسبب العلاقات مع العلماء والشيوخ، ولكن ذلك الأمر ترك أثراً سيئاً للغاية على أخلاق العلماء ومواقفهم الصريحة، ما أدّت إلى ذبول شجاعتهم وصرامتهم ومبدأ كلمة حق عند سلطان جائر في بوتقة البلاط، والذين ضربوا بالأمس أمثلة رائعة في الشجاعة والصرامة والصدع بالحق؛ حيث وصلوا إلى البلاط بعد جلوس السلطان للتأكيد على حصوله على مرسوم عتقه، ولكن تلك الروح الدينية قد خمدتها نضارة البلاط ورونقها، وبذلك لما خلف السلطان ابنته رضية سلطانة، لم يجترئ أحدٌ من العلماء أن يقف ضده، وأصاب مولانا عبد الحق محدث الدهلوي فيما قال:"إنه من العجيب أن السلطان إيلتتمش ولّى ابنته على سلطنة دهلي وذلك ضد الأحكام الشرعية، وقبل ذلك العلماء والفقهاء دون أي اعتراض شرعي.[3]

بلاط السلطان غياث الدين بلبن[4] (664- 684هـ/1266-1287م)

خارج مدينة دهلي، ومنهم جلال الدين تبريزي الذي جاء من بغداد. راجع: طبقات ناصري، ص166-167/ أيضا: سير العارفين، ص165

[1] راجع: الميول الدينية لدى سلاطين دهلي، ص131-132

[2] تاريخ فيروز شاهي، ص38-39

[3] راجع: تاريخ حقي، مخطوط، مكتبة جامعة عليگره، ص9ب، نقلاً عن الميول الدينية لدي سلاطين دهلي، ص132

[4] كان بلبن ينتمي إلى إحدى القبائل التركية، وقع وهو صبي في أسر المغول، ثم اشتراه منهم أحد التجار، ونقله إلى دهلي حيث ابتاعه السلطان شمس الدين إيلتتمش، فنال لديه الحظوة، وظل بلبن موالياً لسيده حتى وفاته، ونتيجة لإخلاصه فقد ارتفعت مكانته في فترة حكم أبناء سيده، وقد ظهرت براعة بلبن الإدارية في عهد انحطاط هذه الأسرة المالكة، وذلك عندما عهد

اعتبر المؤرخ برني عهد بلبن "خير العصور"، وفي الواقع لا يحتل عهده مكانة في التاريخ الإسلامي الشرقي فحسب، بل يحظى بمكانة خاصة في التاريخ الإسلامي العام، لأن الدول الإسلامية شرقاً وغرباً سقطت أمام جحافل التتار، وكان السلطان بلبن وحيداً الذي تمكّن من الحفاظ على كيان سلطنة دهلي من أخطار المغول الهمجيين، كما أثبت أنه ذو مهارة وكفاءة عالية في إدارة شئون البلاد، فطوال فترة حكمه التي استمرّت اثنين وعشرين عاماً نعمت الدولة بازدهار لم تشهد له مثيلاً في تاريخ الهند الإسلامي، وارتفعت مكانة العلماء والأدباء، وتقدم فن العمارة وعمّ السلام والأمن وانتشر العدل والنظام وتوحدت معظم المناطق الهندية ودخلت جميعها تحت ظل سلطنة دهلي.[1]

دور العلماء في توجيهه وتقويمه: تفيد المصادر أن السلطان بلبن في أيام إمارته كان يرغب في الخمر والميسر، وكان دائماً في مجلسه الخدام والمطربون والظرفاء، ولكن بعد أن صار سلطاناً لم يرغب في هذه الأعمال، وأبطل المحرمات والخمور والمعازف، واهتم بحضور الحلقات الدينية في البلاط وفي المساجد العامة، وبدأ يهتمّ بصيام النفل وقيام الليل، والمواظبة على الصلوات الخمس بالجماعة وصلاة الضحى والتهجد، وماكان يترك نفسه دون وضوء قط.[2] وتمدّنا المصادر أنه كان يرغّب أبناءه في أداء الصلوات، وكان صارماً جداً معهم في هذه المسألة، حيث لدى معرفته عن عدم قيام أحد أبنائه بصلاة الفجر أو الصلوات الأخرى ما كان يكلمهم شهراً كاملاً، ودائماً كان يلقي الأحاديث لهم حول أهمية الصلاة بالجماعة، "الجماعة من سنن الهدى لا يتخلف عنها إلا منافق"[3]، و"تارك الجماعة ملعون"، و"التكبيرة الأولى مع الإمام خير من الدنيا وما فيها".[4]

وقد حدثت كل هذه التغييرات في حياة السلطان بسبب اختلاطه مع العلماء ومصاحبتهم سفراً وحضراً، وقد أفاض صاحب تاريخ فيروز شاهي في أنه كان

إليه بمنصب الوزارة، وهذا مادفع الأمراء والنواب إلى رفعه على كرسي الحكم عام 664هـ/1266م، راجع: تاريخ فرشتة، 130/1

[1] للتفصيل حول إنجازاته السياسية والعسكرية، راجع: طبقات أكبري، 82/1

[2] تاريخ فيرز شاهي، ص45-46 ومآثر رحيمي، 305/1

[3] الدراية - الصفحة أو الرقم: 166/1

[4] تاريخ فيروز شاهي، ص46-47

يحبّ المشاركة في المجالس والحلقات الدينية، وما كان يمدّ يده إلى طعامه دون حضور ومشاركة العلماء والفضلاء، وأثناء تناول الطعام كان يتحقق من العلماء في المسائل الشرعية، وكان يذهب إلى منـزل مولانا برهان الدين بلخي[1] لحضوره في مجلس الوعظ والنصيحة في كل يوم الجمعة[2]، وتذكر بعض المصادر إنه إذا علم أثناء الركوب أن في المكان الفلاني مجلس وعظ ونصيحة، كان ينـزل في ساعته وكان يستمع النصائح ويبكي.[3]

موقف السلطان من العلماء والفقهاء: وعلى الرغم من علاقاته مع العلماء والفقهاء والقضاة، كان دائماً يشتكي عن قلة العلماء الربانيين، وكان يحزن كثيراً من انغماس العلماء في شئون الدنيا، وكان يكره العلماء المداهنين والمتملقين، وكان يقسم العلماء إلى قسمين: علماء الدين والدنيا، وكان دائماً يقول إنه لا بد من مصاحبة علماء الدين وتقديرهم، وينبغي للسلطان أن يتلقى التعليمات والأوامر من العلماء المخلصين للدين والدولة لإدارة شئون البلاد[4]، وبسبب اهتمامه وعنايته بالعلماء والفقهاء والشيوخ، كان يستطيع أن يفرّق بين الغث والسمين، وتفيد المصادر أنه كان يقول: "لدي ثلاثة قضاة، واحد منهم يخشى من الله فقط، أما الثاني فيخاف مني فقط، وأما الثالث فلا يخشى من الله ولا يخاف مني، والحمد لله أن قاضي العسكر يخشى من الله ولا يخاف مني.[5]

موقف العلماء من السلطان: وبسبب تشجيع السلطان للعلماء والفقهاء، وعنايته بهم، ومشاركته في مجالسهم وحلقاتهم الدينية، كل ذلك أدّى إلى تحويل بلاطه إلى ملتقى العلماء والفضلاء[6]، وكثيرون منهم قبلوا الوظائف الإدارية والمراكز

---

[1] أحد كبار الفقهاء في عصر السلطان بلبن، كان يدرس العلوم الشرعية، وهو من تلاميذ مولانا رضي الدين الصغاني (ت650هـ/1252م)، راجع لترجمته: أخبار الأخيار، ص45-46

[2] تاريخ فيروز شاهي، ص46

[3] المصدر السابق، ص102 وطبقات أكبري، 85/1

[4] المصدر السابق، ص154

[5] الميول الدينية، ص161، هذا وكان المعروف عنه أنه ما كان يدع شئون الدولة إلا للأكابر والعلماء والفقهاء، ولم يسمح البتة لعلماء الدنيا والأراذل بالتدخل في شئون الدولة، مآثر رحيمي، 305/1

[6] وتجدر الإشارة إلى أن الهجرات العظمى من الأسر العربية والتركية أدّت إلى ازدياد العلماء الذين ضمّوا بلاط السلطان، وقد أحسن السلطان استقبالهم، وخصّص لهم محلات في

الدينية والدنيوية، لأنهم كانوا يرون أن ابتعاد العلماء عن مثل هذه الوظائف هروب من أداء واجبهم بل هروب من الوقوف إلى جانب السلطان والشعب، لذلك أقبلوا وقبلوا تعيينهم في وظائف القضاء والوزارة والاستشارة وولاية الدواوين والتدريس وإدارة الأوقاف والخطابة والكتابة، وعدد العلماء كثير، ومن أشهر العلماء والفقهاء الذين كان السلطان يحبهم وينحنون لهم احتراماً وتوقيراً، هم الفقيه "برهان الدين البلخي"، و"القاضي شرف الدين"، و"مولانا سراج الدين سنجري"، ومولانا نجم الدين الدمشقي الذي كان تلميذًا نابهاً للإمام فخر الدين الرازي.[1] ولكن هذا لا يمنعنا أن نذكر أنه كان هناك بعض العلماء الذين ما كانوا يحبون أن يختلفوا إلى البلاط الملكي أويشاركوا في المجالس السلطانية أو حتى يقبلوا الوظائف في المصالح الحكومية، ومنهم مولانا كمال الدين زاهد أحد العلماء المحدثين المبرزين، طلب إليه السلطان قبول منصب الإمام في القصر ولكن مولانا المذكور لم يوافق على ذلك ورفض طلب السلطان قائلًا: "ليس لدينا إلا الصلاة فهل يريد السلطان أن ينزعها منا".[2]

وهكذا قامت كل هذه الشرائح من العلماء بدورهم خير قيام مما أدّى وضع التوازن بين العلماء الذين قبلوا الوظائف الإدارية لتوجيه السلطان عن قرب، أما العلماء الذين فضلوا توجيه الشعب من خلال القيام بمجالسهم الإرشادية بين الشعب، وكل ذلك أدّى إلى النهضة الثقافية واستقرار الأمن والعدالة في عهد السلطان غياث الدين بلبن.

بلاط السلطان علاء الدين الخلجي (695- 715هـ/1296-1316م)

يعدّ عهد السلطان علاء الدين تكميلاً لما بدأه كل من السلطان إيلتتمش وبلبن من الفتوحات الإسلامية وتوسيع نطاق السيادة الإسلامية، وفي عهده بدأت سلطنة دهلي إطلاق أيادٍ إصلاحية من الإدارة المركزية إلى الإدارات المحلية مع ترك البصمات الإسلامية العميقة في الشعوب غير الإسلامية القاطنة في المناطق

نواحي العاصمة، وأطلق عليها أسماء مدنهم مثل: محلة خوارزم، عباسي، بخارى، يمني، موصلي...إلخ وصل عدد هذه المحلات إلى خمس عشرة محلة، راجع: تاريخ فرشتة، 75/1

[1] تاريخ فيروز شاهي، ص46-111

[2] سير الأولياء، ص106 وأخبار الأخيار، ص71

الريفية، ولم يكن باستطاعة سلطنة دهلي ذلك دون تأثير علماء الدين في الشئون الإدارية وتفاعل السلطان الإيجابي مع العلماء والفقهاء.

موقف السلطان من العلماء والفقهاء: عصر السلطان علاء الدين الخلجي زاخرٌ بالعلماء والفقهاء المتخصصين في العلوم والفنون المتنوعة، ووصل عددهم طبقاً لبعض المصادر إلى ستة وأربعين عالماً،[1] ولكن السلطان ما كان يحبّ، على حسب رواية بعض المصادر، جماعة العلماء وما كان يشارك حلقاتهم الدينية ومجالسهم العلمية[2]، ذلك لأنه رأى بنفسه دورهم السلبي في عهد انحطاط الدولة الغياثية، ومن هنا قبل أن يفكر في إدخالهم في الوظائف الإدارية قرّر أن ينتزعهم من الحياة السياسية الفاسدة التي كانت سائدة قبل جلوسه على كرسي السلطنة، ومن خلال السير على السياسة الخاصة دفعهم إلى رعاية الشئون العلمية والدينية بعيداً عن المجال السياسي، الأمر الذي ترتب عليه النتائج المرجوة، وأصبحت هذه الشريحة من العلماء والفقهاء آليات التربية والإصلاح للسلطان والشعب معاً، ونالوا في نصف الثاني من عهد السلطان المذكور ما ضاع منهم الحظوة والاحترام بسبب إعادة مواقفهم وجرأتهم في قول الحق والدفاع عنه، فعاد السلطان نفسه ينحني لهم احتراماً وتقديراً.[3]

موقف العلماء من السلطان: بعدما أصبحت جماعة العلماء أعلام التربية الروحية والإصلاح والإرشاد، بدأت تؤثر من خلال مواقفها في السلطان والرعية سواء بسواء، وأصبح العلماء حامية الدين وحماية للرعية، وتبصيراً للسلطان بحقوق رعيته وبواجباته عليهم، ومن ناحية أخرى وجودهم بين حاشية السلطان منحهم الفرصة للنصيحة والموعظة الحسنة، فها هو السلطان الذي كان يقيم الحفلات في المدينة ويوزع الخمور في مجالسه[4]، وكان يصرف أموالاً طائلة في اللهو والطرب وشرب الخمر، تاب وواظب على الصلاة وعضّ عليها بالنواجذ طوال حياته، ونشأ فيه حب الدين وإجلاله، وصحت توبته، والتزم العبادات كلها، وعزف عن الشهوات، ونجح في أعماله الإصلاحية من مكافحة

---

[1] تاريخ فيروز شاهي، ص353-354 وطبقات أكبري، 146/1-148

[2] تاريخ فيروز شاهي، ص262-289

[3] للتفصيل راجع: الميول الدينية، ص231

[4] راجع: طبقات أكبري، 123/1 وتاريخ مبارك شاهي، ص74-75

أنواع المفاسد والمنكرات، فأبطل الخمور ووضع على شاربها عقوبات قاسية، وأمر بإراقة خموره وأدواته من "مجلس خانه خاص"، وأمر بغلق الحانات العامة والخاصة، وأمر بتفعيل إدارة الحسبة تحت إشراف المحتسب العالي خواجه ضياء الدين سنامي.[1]

وقد أدّت هذه الإصلاحات إلى أن السنوات الأخيرة من عهده امتازت بكساد سوق المنكرات من الخمر والميسر والفسق والفجور بجميع أنواعها، ولم يكن موقف السلطان هذا نابعاً من فراغ فبالإضافة إلى ورع السلطان وتقواه وحرصه على الإصلاح السياسي والديني والاجتماعي، كان هناك بعض الشخصيات العلمية التي أثرت تأثيراً خطيراً في سياسة السلطان، وأخذت موقفاً صارماً من السلطان، ومنهم القاضي علاء الملك الذي أيقظه من أحلامه الضالة حول فتح العالم بجنده، وتأسيس الدين الجديد، فذكَّره بأن النبوة قد انتهى زمانها، ورده إلى جادة الصواب، فعاد إليه عقله، وانتبه من غفلته.[2] والمثال الثاني من مواقف العلماء من السلطان، حوار القاضي مغيث الدين البيانوي[3] الذي تحاور معه السلطان في المسائل الشرعية المتعلقة بالمال والنظم الإسلامية، فعرض فيه القاضي ما يوافق كتب الشريعة، ولم يوافق آراء السلطان المخالفة للشريعة الإسلامية.[4]

فإن بعض هذه الأمثلة توضّح ثمرة جهود العلماء والفقهاء، وتأثيرهم على السلطان وحاشيته، وتجاوبه معهم في قمع المخالفات والمفاسد دون أن يجد في استجابتهم أي غضاضة، وقد وجدت نصائح العلماء صداها عند السلطان؛ ما انعكست على اهتمامه بشؤون دولته والعمل على نهضتها، ووضع النظم

---

[1] تاريخ فيروز شاهي، ص284-285 ولترجمة المحتسب العالي، راجع: أخبار الأخيار، ص108

[2] للحوار الكامل راجع: المصدر السابق، ص265-267 وطبقات أكبري، 1/127-128

[3] هو أحد كبار الفقهاء الحنفية، عاش في عهد السلطان علاء الدين الذي كان يقربه إلى نفسه ويخلو به ويدعوه إلى مائدة الطعام، وكان القاضي لا يخاف منه في قول الحق، راجع: تاريخ فيروز شاه، ص290-926 والإعلام، 1/212-213 وطبقات أكبري، 1/134

[4] أفادت بعض المصادر أن السلطان بعد إجراء الحوار الطويل مع القاضي، طلبه في يومه التالي ولاطفه كثيراً، وأنعم عليه بألف تنكة وقال أنا مسلم لكن كل هذه الشدة والعنف اللذين يظهران مني من أجل صلاح الملك، ولا أعلم ماذا سيحدث لي غداً بيوم القيامة. راجع: المصدر السابق، ص926

الإدارية والمالية التي تصلح من شأن مملكته، وقُدِّر لها أن تلقى قدراً كبيراً من النجاح؛ فعم البلاد الرخاء، ونَعِمَ الناس بالأمن.

بلاط السلطان محمد بن تغلق(723-752هـ/1324- 1351م)

قامت الدولة التغلقية على أنقاض الدولة الخلجية التي سقطت بسبب التدهور السياسي والاقتصادي والديني، وذلك بعدما تولّى عدة سلاطين غير جديرين، ما أدّى إلى وصول العناصر الهندوسية إلى المناصب العليا وأطماعهم في تهنيد الدولة والقضاء على الشعائر الإسلامية[1]. وبذلك كانت سلطنة دهلي بحاجة ماسة إلى الأسرة الحاكمة التي تتمكن من الحفاظ على الكيان الإسلامي، وفي الوقت نفسه تقوم بالجهاد الإسلامي لاسترجاع الهوية الإسلامية وللقضاء على البدع والمنكرات، وبمجرد قيام الدولة التغلقية استعادت تلك الروح الإسلامية، وانتشر نداء العدل والإنصاف ونامت الفتن ثانية، وذلك كله تحت قيادة السلطان غياث الدين تغلق شاه، الذي أنجز من مصالح الناس ما لم يتيسر للآخرين في سنوات عديدة.[2]

دور العلماء في تكوين نظريات السلطان محمد بن تغلق الدينية والسياسية[3]:

وخلف السلطان غياث الدين ابنه محمد تغلق شاه الذي كان يضرب به المثل في داخل الهند وخارجها في الكرم والشجاعة والتواضع، وفي إقامة العدل والإنصاف[4]، وتؤكد المصادر على أن شعائر الدين عنده محفوظة، وكان شديداً

---

[1] تقول المصادر: "ولما كان أكثر العناصر الهندوسية في البلاط، خفضوا شعار المسلمين، وازدهرت العادات والتقاليد الهندوسية، وشاع تخريب المساجد وعبادة الأوثان والأصنام"، راجع: تاريخ مبارك شاهي، ص88/برني، ص411-412

[2] راجع: طبقات أكبري، 162/1

[3] قد تمت تربية السلطان تربية دينية، ووسع دراسته في المعقول والمنقول، وتفيد المصادر أنه حفظ القرآن، وكتاب الهداية كاملاً، راجع: مسالك الأبصار، 3/66-67، وكان يستعين بهما لدى المنظارات الدينية والنصائح، يقول ابن بطوطة: نصحني السلطان محمد بن تغلق بعدم صرف الأموال فوق الطاقة وعدم أخذ الدين، والإنفاق على قدر ما يعطيني من المال، وذلك مستشهداً بآيات قرآنية {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}الإسراء: 29، {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُوا}الأعراف: 31، {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً}الفرقان:67، راجع: عجائب الأسفار، 243/3

[4] كان يريد إحياء سنن الخلفاء الراشدين، تفيد المصادر المعاصرة إنه ادعى عليه رجل من كبار الهندوس أنه أي السلطان قتل أخاه من غير موجب ودعاه إلى القاضي، فسلم، وكان قد

في أمر الصلاة والعقوبة على تركها، وكان يلتزم التزاماً تاماً بأداء الصلاة والصوم وقيام النوافل والمستحبات والاشتغال بالأوراد[1]، وكان يسعى سعياً جاداً في اجتناب المناهي والمسكرات وسائر ما يؤدي إلى المعصية.[2] وكذلك أمر برفع الضرائب غير الشرعية، مؤكداً على أخذ ما شرع في الشريعة الإسلامية من الزكاة، والعشر، وكان يجلس بنفسه للنظر في المظالم يوم الاثنين والخميس، كما عيّن الكوادر الخاصة لإدارة ديوان المظالم.[3] وقد كانت هذه أول محاولة جادة في تاريخ الهند الإسلامي في إقامة الشرع عبر القنوات الشرعية.

وكان ميول علماء الهند آنذاك إلى العلوم الفقهية أكثر من العلوم الأخرى، فدوّنت كتب كثيرة في هذا المجال[4]، حتى السلطان نفسه تأثر بهذه الميول الفقهية فحفظ كتاب الهداية، وكان يصطحب الفقهاء والعلماء سفراً وحضراً للبحث والمناقشة حول أمور الشريعة الإسلامية والقانون، وكان دائماً يبحث عما يأتي بكتب فقهية من الدول الإسلامية، ومع ولعه الشديد في الفقه كان يحب الحكمة والفلسفة[5]، ما

أمر القاضي قبل ذلك إنه إذا جاءه إلى مجلسه فلا يقوم ولا يتحرك، فصعد إلى المجلس ووقف بين يدي القاضي فحكم عليه أن يرضي خصمه عن دم أخيه فأرضاه السلطان بدية، راجع: عجائب الأسفار، 182/3

[1] تفيد المصادر المعاصرة أنه أمر بأداء الصلوات بالجماعة، وبالمعاقبة لمن تركها أشد العقاب، وكان يبعث برجال الحسبة إلى الأسواق فمن وجد بها عند إقامة الصلاة عوقب... وطلب من الناس أن يتعلموا فرائض الوضوء والصلاة وشروط الإسلام، راجع: عجائب الأسفار، 182/3-183

[2] راجع: فتوح السلاطين، ص605، وتروي المصادر أنه لم يكن أحد يتجاسر أن يشرب الخمر سراً أو علانية، وكان السلطان يبالغ في تأديب من يتعاطاه من المقربين إليه، وقد حدث أنه علم بأن بعض الأمراء الكبار يشرب الخمر، فغضب عليهم غضباً شديداً، وصادر أموالهم وممتلكاتهم، مسالك الأبصار، 67/3-68

[3] راجع: عجائب الأسفار، 183/3

[4] Khaliq Ahmed Nizami: Studies in Medieval Indian history, P. Aligarh India 1956, Pp. 67-68

[5] ذكر الصفدي حول اهتمامه بالعلم والعلماء في كتابه فيقول: "إن ابن قاضي شيراز أتاه (السلطان) بكتب حكمية منها كتاب الشفاء لابن سينا بخط ياقوت في مجلدة، فأجازه عن ذلك جائزة عظيمة، ثم إنه أمر بإدخاله إلى خزائنه ليأخذ منها ما يريد." راجع: 485/4 وتفيد بعض المصادر أن في بداية حكمه تأثر السلطان بالمنطق والفلسفة بسبب بعض العلماء الملحدين المقربين إليه، وكان لهم باع طويل في المنطق والفلسفة، راجع: فيروز شاهي، ص465، وحدث في ذلك الوقت أن السلطان تحت تأثير مثل هذه الأفكار قال لشيخ شهاب الدين الملقب بـالصادق، لا يقبل العقل مسألة ختم النبوة، فاغتاظ به الشيخ ولم يملك نفسه فخلع

ساعده على تحرير ذهنه من التقليد الأعمى، فحاول فتح باب الاجتهاد والتجديد الديني، وكان ذلك لم يأت بالفراغ بل وصل هو إلى هذه المرحلة بسبب صلاته واستجابته بدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت728هـ/1327م)، والتي وصلت إلى بلاطه من خلال تلامذة شيخ الإسلام الشاميين والمصريين، وكان لهم أثر بالغ في تكوين نظريات السلطان الدينية والسياسية، وعلى رأس هؤلاء التلامذة العلامة عبد العزيز الأردبيلي الذي لم يحسن إليه السلطان وأكرمه فحسب، بل تذكر المصادر أنه قبل قدمي الفقيه المذكور بعدما أعجب بموعظة الحسنى، وقد اطلع السلطان على أعمال شيخ الإسلام والتي دفعته بدورها إلى بحث ومناقشة قضية استماع الموسيقى، والقضاء على النظم الخانقاهية[1]، وتفيد بعض المصادر أنه كان يشمئز من لباس الصوفية، وكان يأمر في ساعته باستبدال لباسهم بأخرى.[2] فلا شك أنه رغب بالفعل في اختيار منهج شيخ الإسلام لإحياء ما اندثرت من شعائر الإسلام، وكما رفض شيخ الإسلام فكرة فصل الدين عن الدولة والتي تؤيدها معظم الطرق الصوفية بما فيها الطريقة الچشتية في شبه القارة الهندية، فإن وجهة نظر محمد بن تغلق المشهورة بأن الدين والدولة توءمان، ومحاولاته الحثيثة في إجبار العلماء والصوفية للانخراط في الأجهزة الحكومية وتبنيه ألقاباً مثل "المجاهد في سبيل الله" و"محيي السنن النبوية" و"محيي سنن خاتم النبيين" وكتابتها على العملات[3]، كانت جميع هذه النظريات تنتمي إلى نظريات شيخ الإسلام الدينية والسياسية[4].

وبما أن بعض العلماء والمؤرخين في عهد السلطان لم يكونوا مطلعين على التيارات الفكرية السائدة في العالم الإسلامي آنذاك، أساءوا فهم مواقف السلطان

نعله وضرب به وجه السلطان، فغضب الأخير وأمر بإلقائه من القلعة، راجع: گلزار أبرار، مخطوط، نقلاً عن الميول الدينية، ص328

[1] Jamal Malik: Islam in south Asia, A short history, P. Brill, Leiden 2008, Pp.104-105

[2] راجع: الميول الدينية، ص337

[3] H. Nelson Wright:The Coinage and Metrology of the Sulṭāns of Dehlī, Delhi 1936, Pp.120

[4] لقد ناقش مولانا أبو الكلام آزاد تأثير شيخ الإسلام في نظريات السلطان الدينية والسياسية في كتابه مناقشة قيمة وطويلة، راجع: تذكرة، ص154-192

محمد تغلق.[1] وكان السلطان ينظر، من خلال نظرياته الدينية والسياسية، إلى الخلافة الإسلامية كأكبر رمز ديني، وكان يعتقد أن الحكم حرام دون موافقته وإذنه.[2]

علاقة السلطان مع العلماء: تفيد المصادر أن بلاطه كان يتضمن قاضي القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوي، وقاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارف، وجماعة كبيرة من العلماء والفقهاء الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمغربيين، وكانت هذه الجماعة تجلس في الصف الأول في البلاط وعلى مائدة السلطان[3]. وكانت هناك أربع جماعات من العلماء في عهده، وكانت علاقاته تختلف مع كل هذه الجماعات، وهي كالآتي:

الأول: تتكوّن هذه الجماعة من العلماء الذين كانوا يسهمون في ازدهار التعليم والتربية، بعيداً عن الشئون السياسية والإدارية، وكان السلطان ما يحبّ أن يتدخل في حياتهم وشئونهم التعليمية، ولا يوجد مثال عن صراع السلطان مع هذه الجماعة[4].

والثاني: أما الجماعة الثانية فكانت تشمل علماء كانوا يراعون السلطان وأرباب الجهات المعنية، فكانوا يؤيّدونه في الخير والشر، مما اعترف به أحد علماء

---

[1] K.A. Nizami: The Impact of Iben Taimyya on south Asia, Published in journal of Islamic studies, 1. 1990, Lodon, Pp.120-125-134

[2] تفيد المصادر أنه أمر السلطان بإيقاف صلاة الجمعة والعيد، وبايع الخليفة غيابيًا إلى أن جاءت السفارة مع الرسوم والخلعة من جانب الخليفة من مصر عام 744هـ/1343م، وخرج السلطان مع جميع الأمراء والعلماء والمشايخ لاستقبالها، وعندما اقتربت ترجل ووضع مرسوم الخليفة على رأسه، ثم سمح بأداء صلاة الجمعة والأعياد التي كانت موقوفة، وقرأ الخطبة باسم الخليفة، وكان يضع دائمًا المصحف الشريف وكتب الأحاديث ومرسوم الخليفة أمامه، راجع: للتفصيل فتوح السلاطين، ص515، كما أمر بصك العملات الجديدة مع وضع اسم الخليفة فقط دون اسمه، راجع: H. Nelson Wright, p149-152

[3] عجائب الأسفار، 3/158-164

[4] يأتي في هذه الزمرة كل من مولانا ضياء الدين نخشبي (ت751هـ 1350م)، وكان له يد طولى في تدريس وتأليف الكتب الطبية، ومعين العمراني الذي كان يصرف جميع أوقاته في الدرس والتدريس والإفادة، ودوّن كتباً كثيرة في الفقه والمعاني والبيان، راجع: الإعلام، 1/169-212

بلاطه، فيقول: "كنا نعاونه ضد الأحكام الدينية، وما كنا نبلغه الوقائع الصحيحة.[1]

والثالث: تحتوي هذه الجماعة على العلماء والشيوخ الذين ما كانوا على علاقة جيدة مع السلطان، وكانت تمنع هذه الفئة أنفسها من الانخراط في الأعمال السياسية والإدارية، وكانت تتآمر ضد الحكومة كلما سنحت لها فرصة بذلك تحت ذريعة سياسة السلطان دينية كانت أم سياسية.[2]

لقد حاول بعض المؤرخين المتأخرين توضيح علاقات السلطان المتدهورة مع العلماء والفقهاء والشيوخ، مؤكداً على أنهم لم يكونوا راضين بالقيام بخدمة لا ترضي ضمائرهم أو تمسّ كرامتهم أو تنال من سمتعهم، وهو الأمر الذي أدّى إلى قيام الصراع الطويل بين السلطان والعلماء والشيوخ، ولترويج هذه الإشاعات اعتمد هؤلاء المؤرخون على ما كتبه الرحالة المغربي ابن بطوطة حول الوظائف الإدارية، فهم لم يفهموا العبارة التالية التي تقول: "فلما ولّي السلطان محمد بن تغلق أراد أن يخدم الشيخ في بعض خدمته، فإن عادته أن يخدم الفقهاء والمشايخ والصالحين محتجاً أن الصدر الأول (أي الخلفاء الراشدين) رضي الله عنهم لم يكونوا يستعملون إلا أهل العلم والصلاح".[3] وتفيد هذه العبارة أن السلطان أراد أن يوظّف الشيخ على بعض الوظائف الإدارية، مثلما كان يقوم الخلفاء الراشدون باستخدام أهل العلم والصلاح، وبسبب عدم فهم هذه العبارة ترجمها المؤرخون بالخدمة الشخصية في القصر الملكي، وفي الواقع عدم تعاون العلماء مع السلطان في الشئون السياسية والإدارية ثم التمرد ضد الدولة كان سبباً حقيقياً في قتل بعض العلماء والشيوخ.[4]

---

[1] تاريخ فيروز شاهي، ص466

[2] See K.A. Nizami: Early Indo-Muslim mystics, Islamic culture studies, 1. 1990, Pp.125-134

[3] راجع: عجائب الأسفار، 185/3

[4] الميول الدينية لدى سلاطين دهلي، ص337 وأيضاً: لمحات من تاريخ الهند الوسطى، ص210-211، ومن هؤلاء الشيوخ شهاب الدين الجامي (ت742هـ/1340م) الذي عرض عليه السلطان الوظيفة الإدارية الدينية فرفض بشدة، فغضب السلطان منه، وبدلاً من أن يرجع الشيخ عن قوله، تمرد وعصى ضد السلطان ما دفع السلطان إلى قتله، راجع الواقعة الكاملة في عجائب الأسفار، 185/3-186 ولترجمة الشيخ راجع: الإعلام، 165/1 وهناك أمثلة

والرابع: وكانت هناك جماعة أخرى من العلماء والفقهاء الذين هاجروا إلى الهند واستقروا فيها، وذلك بسبب اهتمام السلطان واحترامه الشديد حيالهم[1]، وكان السلطان يحرص على تقوية علاقته مع هؤلاء العلماء وعيّنهم في وظائف القضاء والوزارة والاستشارة والتدريس وإدارة الأوقاف والخطابة وغيرها من أعمال الإدارة الدينية، وبسبب تشجيعه واهتمامه بالعلماء، نال السلطان سمعة رفيعة، وذاع صيته في مصر والعراق وخراسان والشام والجزيرة العربية.[2] ومن العلماء الذين يميل السلطان إليهم أكثر هم ناصر الدين الواعظ الترمذي، والمحدث الفقيه عبد العزيز الأردبيلي.[3]

وكان السلطان يهتمّ باجتذاب العلماء من الخارج بسبب رغبته العلمية[4]، وتفيد المصادر المعاصرة أن السلطان أرسل البعثة العلمية تحت قيادة الشيخ أبي بكر إلى سمرقند لإتيان الشيخ الواعظ برهان الدين أحمد الصاغر جي، وأرسل معه أربعين ألف دينار لتزويد الشيخ للوصول إلى الهند، وقال لرئيس البعثة: "وإن لم

أخرى قدّمها ابن بطوطة للشيوخ الذين كانوا يتآمرون ضد السلطان من خلال تنسيق العناصر الإجرامية، راجع: 191/3

[1] يذكر ابن بطوطة اهتمام السلطان بالعلماء المهاجرين فيقول: "يستدعينا للطعام بين يديه، ويسأل عن أحوالنا ويخاطبنا بأجمل كلام، وكان يقول كثير من الأحيان، أنتم شرّفتمونا بقدومكم فما نقدر على مكافأتكم، فالكبير منكم مقام والدي، والكهل مقام أخي، والصغير مقام ولدي، وما في ملكي أعظم من مدينتي هذه أعطيكم إياها"، 232/3

[2] يروي المؤرخ شهاب الدين العمري فيقول: "حدثني الفقيه أبو الصفاء عمر بن إسحاق الشبلي أن هذا السلطان لا يفارق العلماء سفراً وحضراً، قال: كنا معه في بعض غزواته، فلما كنا في أثناء الطريق جاءته من مقدمة عساكره رسالة البشرى بالفتوح...فقال هذا ببركة هؤلاء العلماء، ثم أمر بأن يدخلوا بيت المال، ويحملوا منه ما قدروا عليه، ومن كان منهم ضعيفاً يستعين بمن يحمل من ذلك المال منه، راجع: مسالك الأبصار، 73/3

[3] راجع: عجائب الأسفار، 168/3-169، يذكر ابن بطوطة عن ناصر الدين الواعظ، أنه كان يخطب خطبة بليغة وينصح ويذكر، وكان السلطان يجلس في حلقته الدينية، وأمر مرة بعد انتهاء الوعظ، بعدما عانقه، بركوبه على الفيل، وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه، وكنت في جملتهم، راجع المصدر نفسه، 169/3

[4] وبسبب اهتمامه بالعلم والعلماء كان علماء العرب المعاصرون ينظرون إليه بنظرة الاحترام والتقدير، ودونوا ترجمته في أعمالهم، ومنهم ابن حجر العسقلاني (ت825هـ/1421م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 204/5 وصلاح الدين الصفدي (ت764هـ1362م): أعيان العصر وأعوان النصر، 481/5-485

تجدوه أعطوا هذا المبلغ لأهله، ليوصلوه إليه إذا جاء".[1] وقد أصاب بعض المستشرقين فيما أكدوا على أنه دأب على بذل جهود أكبر مما بذله أي حاكم مسلم في اجتذاب العلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامي لإدخالهم في خدمته".[2] وكان الهدف الرئيسي وراء اجتذاب هؤلاء العلماء وإدخالهم في سلك التدريس وتربية الأجيال، وقد بدا ذلك واضحاً من خلال العدد الهائل من المدارس والكتاتيب التي تم تأسيسها في العاصمة وفي المدن الأخرى، وتفيد المصادر المعاصرة أنه قام بتعيين ألف فقيه في الكتاتيب لتعليم الأيتام وأولاد الناس القراءة والكتابة، وكانوا يقبضون رواتبهم من بيت المال[3]، وبجانب هذه الكتاتيب كانت هناك مدارس كبيرة، حيث تفيد بعض المصادر أنه كانت في مدينة دهلي فقط ألف مدرسة، مدرسة واحدة للشافعية وباقيها للحنفية.[4]

إسهامات السلطان في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية: تفيد المصادر المعاصرة واللاحقة أن السلطان كان ينبض في قلبه المشاعر الجياشة لتفعيل الآليات من العلماء لتبليغ الدعوة الإسلامية في ربوع الهند، ولتحقيق هذه الغاية بذل المجهودات المضنية في إرسال العلماء والمبلغين إلى المناطق البعيدة الخالية من سكان المسلمين، وكان يرى من خلال نظرياته الدينية أنه لولا يزيد عدد سكان المسلمين في هذه المناطق لتذهب المجهودات كافة في إرسال دعائم النظم السياسية الإسلامية في السدى، وبذلك لما فكر في المناطق الجنوبية فوصل إلى هذه النتيجة أن أسلافه من السلاطين لم يتمكنوا من الحكم المباشر على هذه المنطقة بسبب هذا الخلل الكبير أي عدم وجود سكان المسلمين في هذه المنطقة، ومن هنا قرّر في إعمار جنوب الهند من أسر العلماء والفقهاء والشيوخ، ذلك لترسيخ العادات والتقاليد الإسلامية بجانب تفعيل الآليات الإسلامية للتبليغ والدعوة، وبذلك نستطيع أن نقول أن اتهام المؤرخين بنقل العاصمة إلى دولت آباد في جنوب الهند مردود، إنما الحقيقة تكمن في أنه كان

---

[1] راجع: عجائب الأسفار، 170/3-171 ومسالك الأبصار، 72/3-73، وجاء في المصدر نفسه أنه أرسل العالم الشيخ زادة الدمشقي مع عشرة آلاف دينار لإتيان القاضي مجد الدين إسماعيل بن خذاداد من شيراز، عجائب الأسفار، 170/3

[2] سلطنة دهلي تاريخ سياسي وعسكري، ص513

[3] مسالك الأبصار، 68/3-69

[4] صبح الأعشى، 69/5

سعياً مشكوراً لترويج وترسيخ الحضارة الإسلامية وازدهارها بصورة منظمة ومدروسة، وتؤكد المصادر على أنه لم ينقل الإدارة المركزية من دهلي إلى دولت آباد[1]، بل أرسل الجاليات الإسلامية من العلماء والفقهاء والشيوخ فقط[2]، تفيد بعض المصادر أنه لما وصل العالم مولانا فخر الدين زرادي (ت748هـ/1347م) إلى ديو گير[3]، غلب عليه شوق زيارة الحرمين الشريفين، فاستشار القاضي كمال الدين صدر جهان حول ذلك فقال له: "لا يجوز أن تسافر دون أن تأخذ الإذن من السلطان، لأنه يريد الأخير عمران هذه المنطقة وازدهارها بصبغة إسلامية، وهو يرجو أن تكون مدينة علمية زاخرة بالعلماء والفضلاء ويذيع صيتها في جميع أنحاء العالم"[4]، ولإعطاء الطابع الإسلامي أمر السلطان بصك العملات ذات الشعائر الإسلامية، مثل "قبة دين إسلام"، و"بدر الإسلام"، و"دار الإسلام"، وكان الهدف وراء ذلك إرسال رسالته إلى عامة الناس.[5]

وبجانب اهتمامه بجنوب الهند أرسل أيضاً العلماء والمشايخ للتبليغ والدعوة إلى المناطق الهندية الأخرى، وتفيد بعض المصادر أنه دعا مولانا شمس الدين يحيى العالم الكبير في ذلك الوقت، وقال له: "ماذا يعمل هنا العالم مثلك؟ عليك الذهاب إلى كشمير وتفعيل الدعوة الإسلامية هناك بين الناس بالتي هي أحسن"[6]، وهناك أمثلة أخرى كثيرة، ولكن نكتفي بهذا القدر، وتؤكد هذه الأمثلة

---

[1] كانت مدينة دولة آباد محافظة لمنطقة ديوگير، وهي تقع الآن في مدنية أورنگ آباد التابعة لولاية مهاراشتر، راجع: الهند في العهد الإسلامي، ص108

[2] راجع: سير الأولياء ص271 وفيروز شاهي، 474 وفتوح السلاطين، ص452 وحول تخطيط مدينة دولت آباد راجع العمري، حيث يقول: "مدينة دهلي هي قاعدة الملك، ثم بعدها قبة الإسلام وهي مدينة "ديوگير" جددها هذا السلطان، وسمّاها قبة الإسلام... وقسمها على أن تبنى محلات لأهل كل طائفة، الجند في محلة، والوزراء في محلة، والكتاب في محلة، والقضاة في محلة والعلماء في محلة، والمشايخ والفقراء في محلة... وفي كل محلة ما يحتاج إليه من المساجد والمآذن...، المسالك والممالك، 3/47-48

[3] لترجمته راجع: الإعلام، 185/1

[4] راجع: سير الأولياء، ص274

[5] Edward Thomas: The Chronicles of the Pathan Kings of Delhi, P. London 1871, P.209/ R. P. Tripathi: Some Aspects of Muslim Administration, P. Allahabad 1936, P. 61

[6] سير الأولياء، ص288

على ما تفضل المؤرخ الشامي حيث يقول: "وقد بلغ مبلغاً عظيماً في إعلاء كلمة الله، ونشر الإسلام في تلك الأقطار حتى سطع في ذلك السواد ضوء الإسلام، وبرقت في تلك الأنواء بوارق الهدى."[1]

مما سبق نجد أن هناك تفاعلاً إيجابياً بين السلطان والعلماء والفقهاء وقبول بعضهم بعضاً، وإذا نجح العلماء من خلال نصحهم وإرشادهم في تقويم السلطان دينياً وثقافياً وسياسياً فنجح هو أيضاً في إدخالهم في الوظائف الإدارية وقبولهم بالمراكز والوظائف الدينية المختلفة، وكانت البغية من وراء ذلك المصلحة الدينية ومساندة الدولة، وهل هناك أفضل من التعاون والتعاضد بين العلماء والحكام لقيادة مركب الأمة، ولا شك أن العلماء دعاة بألسنتهم وأصحاب السلاطين دعاة بألسنتهم وسلطانهم وباتفاق العلماء وأصحاب السلطان وتعاونهم تتقدم الأمة، ويصلح أمر البلاد والعباد، فالعلماء ورثوا عن مقام النبوة العلم، وأهل السلطان ورثوا من مقام النبوة القوة، وقيل: إن العدل أساس الملك، والتقوى أساس العلم، فبالعدل والتقوى تبنى الأمم ويسود الأمم وبغيرها يكون خراب العباد والبلاد، قال تعالى: {وتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} المائدة: 2

نتائج عامة

يمكن تلخيص النتائج التي توصل إليها البحث خلال هذه الرحلة العلمية:

1. يؤكد البحث من خلال تعريف النصيحة على أهميتها البالغة في حياة الفرد والجماعة، فهي من معالم الحكمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حيث تلعب دوراً محورياً في تقويم الشرائح الإنسانية وإصلاحها كافة، بما فيهم السلاطين والعلماء، ذلك مع وضع الشروط والمعايير المحددة للنصيحة والتي من أهمّها الإخلاص لله إلى جانب فهم آداب النصح والإرشاد.
2. ألقى البحث الضوء على تاريخ سلطنة دهلي السياسية، وكيفية قيامها وأهميتها في تاريخ الهند الإسلامي، مع الإشارة إلى السلاطين العمالقة الذين لعبوا دوراً رائداً في ترسيخ دعائمها وتوسيع كيانها سياسياً وحضارياً.

[1] المسالك والممالك، 3/73-74

3. تناول البحث الوضع الديني العام وأقسام العلماء وعلاقتهم بسلاطين دهلي، مع الإشارة إلى المناهج التي سار عليها العلماء في قيام عملية النصح والإرشاد، مع توضيح ردّ فعل السلاطين على نصائحهم وطبيعة موقفهم من العلماء والفقهاء.
4. اقتصرت الدراسة على الجهود الإيجابية والسلبية لبعض العلماء من أجل نصح السلاطين وإصلاحهم، وليس جميعها لأن الأمر ليس بمقدور في هذه الصفحات القليلة.
5. اختار البحث سلطاناً عظمياً من كل أسرة حاكمة لتمثيل عصر تلك الأسرة، مع الإشارة إلى سيرة ذلك السلطان الذاتية بإيجازٍ، وتوضيح ميوله السياسية والدينية والثقافية والفكرية، ثم تناول موقف ذلك السلطان من العلماء المحليين والخارجيين ومدى تجاوبه معهم في إنجاح عملية النصح والإشاد على المستوى الشخصي والاجتماعي.
6. تعرض البحث لموقف العلماء من السلاطين في عملية النصح والإرشاد، موضحاً إلى أي مدى كانوا مخلصين في النصح والإرشاد ومحاسبة السلاطين وإنكار سوء أفعالهم، وتناول البحث أيضاً تعاون العلماء والقضاة والشيوخ أو عدمه مع السلاطين في إقامة الشرع ونشر الخير والفضيلة وإصلاح السلاطين أنفسهم، عن طريق تولّي المناصب المختلفة، سواء كانت في سلك القضاء أو التدريس أو الوعظ والإرشاد والخطابة.
7. وقد تبيّن من الدراسة أن معظم هؤلاء السلاطين موالون للإسلام، يطبقون أحكامه، ولا يستكبرون عنها، وأن كل ما جرى في هذه الفترة كان صراعاً بين الفضيلة والرذيلة، وكان لنجاح عملية النصح والإرشاد الأثر الكبير في تغليب إحداهما على الأخرى.

ملحق

تفيد المصادر أن الوعظ والإرشاد في عصر سلطنة دهلي لم يقتصر على عقد المجالس فقط، وإنما تعدّاه إلى تأليف الكتب ووضع النشرات والرسائل وتوزيعها، وكذلك لم يكتفِ بأخذ النصائح من العلماء والعمل عليها، بل حاولوا استخدام تلك النصائح عند تربية أبنائهم، وأذكر هنا بعض النماذج من تلك النصائح.

النموذج الأول: رسالة شمس الدين ابن الحريري إلى السلطان علاء الدين الخلجي[1]

كتب في رسالته الموجهة إلى السلطان، لقد جئت قاصداً مدينة دهلي وسلطانها، وكان الهدف وراء هذا السفر الطويل ترويج علوم الحديث وتدريسها لله ورسوله، ذلك لإخراج مسلمي الهند من براثن الفقهاء والعلماء من أهل البدع، ولكن لما علمت أن السلطان غير منتظم في فروض العبادات، فقرّرت أنه لا داعي لرؤية هذا السلطان، وعليّ أن أعود إلى حيث أتيت، هذا وسمعت بعض الأخبار عن السلطان ما أسعدتني، وبعضها أحزنتني، ومنها:

- لقد سمعت أن السلطان رخص أسعار المواد الغذائية، وقام برقابة شديدة على الأسواق، ويعاقب التجار المدلسين ويمنعهم من الاحتكار، مما أدّى إلى الرخاء العام، وهذا العمل شاقّ للغاية، وحاول كثير من الملوك والسلاطين ولكنهم لم يتمكنوا بذلك، وكيف قدر لك من النجاح؟
- أحييك بعد ما سمعت أن السلطان العادل أبطل المحرمات والخمور والمعازف، ولا أحد يتجاسر أن ينقل ملء كف خمراً إلى دهلي إلا بالحيلة.
- وسمعت أيضاً أن السلطان نجح في تطهير دهلي من الخمور والخواطي والقمار والمخانيث والمظالم، وكافح العناصر الفاسدة حتى لجأت إلى حفر الفئران، فبارك الله فيك، فهذه الأعمال لم ينجح فيها أحد من السلاطين.
- لقد عينت رجلاً غير مؤهل ولا قيمة له كرئيس القضاة في ملتان، هو رجل غير صالح وصاحب الدنيا، وأنت تعلم أن هذه الوظيفة حساسة للغاية، فعليك أن تختار الكوادر الصالحة لتفعيل مثل هذه الأجهزة الحكومية المهمّة.
- وقد سمعت أن أحاديث النبي صلّى الله عليه وسلم مهجورة ومتروكة وغير مرغوبة في بلدكم، وتؤخذ العلوم الفقهية كسند للعمل في المسائل الدينية

[1] وهو من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، كان قاضي الحنفية بمصر، وكتب في حق شيخ الإسلام محضراً في الثناء عليه بالعلم والفهم، فبلغ ذلك ابن مخلوف القاضي فسعى في عزل ابن الحريري فعزل، راجع شهاب الدين محمد ابن حجر العسقلاني (825هـ/1449م): الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، 1/171-172، قدم الهند عام 708هـ/1308م في عهد السلطان علاء الدين الخلجي، وجاء معه بأربعة مائة كتاب في الحديث النبوي، ولدى وصوله إلى ملتان سمع أن السلطان غير مواظب على الصلوات، فقرّر ألا يذهب إلى دهلي، ولكن كتب رسالتين إحداهما شرح في أصول الحديث، وأخراهما في النصح والإرشاد الموجهة إلى السلطان، راجع: تاريخ فيروز شاهي، ص297

الشرعية، يا للعجب! كيف كانت للمدينة أن تنجو من الخراب والدمار، التي يفضّل أهلها العلوم الفقهية على الأحاديث النبوية.

- لقد علمت أن هناك عناصر فاسدة من العلماء والفقهاء؛ تأخذ الرشوى وتحرّر الفتاوى، ولا تصل إليك أخبارهم لأن القاضي مرتشٍ هو الآخر.[1]

نصائح السلطان غياث الدين بلبن لأبنائه:

النصيحة الأولى: لا تفرق بين الداني والقاصي في العدل والإنصاف، ولا تستهن بشئون الملك، ولا تبدّل عزة الأمر الجليل بالذل والفحش بارتكاب قبائح الأعمال ورذائل الأوصاف.

النصيحة الثانية: لا تدع للسطوة والقهر أن يسيطر عليك، وتجنب أعداء نفسك، ولا تعمل إلا لله، وتصرف أموال بيت المال، وهي من العطايا الربانية، على إعلاء كلمة الله والحق ولرفاهية الشعب.

النصيحة الثالثة: لا تتخاذل ولا تهمل أعداء الدين والعناصر الإجرامية، وعليك أن تكون ملمّاً بما يجري في أنحاء البلد، وما يجري في المصالح الحكومية المركزية والمحلية، وترغب العناصر الإدارية في قيام الأفعال الحسنة والتزويد بالفضائل والأخلاق.

النصيحة الرابعة: وعليك أن تعيّن العلماء والفقهاء والقضاة والأمراء الأتقياء المتدينين على شئون الشعب حتى يروج الدين الإسلامي وتزدهر الثقافة الإسلامية.

النصيحة الخامسة: عليك أن تراعي وتكرم وتنعم على المواطنين أهل الهمة وحسني التفكير وشاكري النعمة، ولا تهمل أفكارهم، وأن تهتم بإعداد الآليات من رجال الصالحين والفضل والعقل وهم موجبون بتشجيع كامل، ولا تهتم بالذين لا يخافون الله واعلم أن صلاح الملك والدين في تجنب وأبعاد هذه العناصر الفاسدة.

[1] راجع للتفصيل: تاريخ فيروز شاهي، ص298-299

النصيحة السادسة: أن الهمة والسلطنة لازمة وملزمة لبعضها بعضاً، ويقول الحكماء إنه ينبغي لهمة السلطان أن تكون عالية، ويقال أن همة السلطان إذا كانت مثل همم سائر الناس فلن يكون هناك فرق بينه وبين الناس جميعاً.

النصيحة السابعة: لا تعزم على فعل الأمر أبداً دون مشورة العلماء والعقلاء، وأحكم في الأمور الوسطى لأن هناك نفوراً عاماً من القهر والظلم، والمتمردون يطغون من وجود التعب والعجز، وأعمل طوال الوقت في المحافظة التي تضمن الإصلاح العام، واملأ بلاطك بالحراس والحجّاب المخلصين من أهل الثقة.[1]

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر والمراجع العربية:

1. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ستة أجزاء، دائرة المعارف العثمانية، الهند، 1392هـ/1972م.
2. ابن حزم الأندلسي: رسائل ابن حزم الأندلسي، أربعة مجلدات، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 2، بيروت.
3. أبو العباس القلقشندي: صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، 14 مجلداً، طبعة أميرية، القاهرة، 1333هـ/1915م.
4. أبو حامد الغزالي: التبر المسبوك في نصيحة الملوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، دون تاريخ.
5. أبو سليمان الخطابي البستي: معالم السنن شرح سنن الإمام أبي داؤد، تصحيح: محمد راغب الطباخ، أربعة مجلدات، حلب، سوريا، 1351هـ/1932م.
6. أبو عبد الله ابن الأزرق: بدائع السلوك في طبائع الملوك، تحقيق: محمد بن يوسف القاضي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007م.
7. بيتر جاكسون: سلطنة دلهي تاريخ سياسي وعسكري، تعريب: فاضل جتكر، مكتبة العبيكان السعودية، 2003م.
8. زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة: زكي محمد حسن بك ورفقائه، دار الرائد العربي، بيروت، 1400هـ/1980م.

[1] راجع: تاريخ فيرزو شاهي، ص 44-71-72-73

9. سيد بن حسين العفاني: زهر البساتين من مواقف العلماء والربانيين، ستة مجلدات، دار العفاني، القاهرة دون تاريخ.
10. شمس الدين أبي عبد الله المقلب بـابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبد الهادي التازي، ستة مجلدات، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ/1997م.
11. شهاب الدين العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الثالث، تحقيق: أحمد عبد القادر الشاذلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، 1424هـ/2003م.
12. صلاح الدين الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، ستة مجلدات، تحقيق: علي أبو زيد ورفقائه، دار الفكر، دمشق، 1418هـ/1998م.
13. عبد الحي الحسني: الهند في العهد الإسلامي، دار عرفات، الهند، 1422هـ/2011م.
14. عبد الحي الحسني: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، ثلاثة مجلدات، دار ابن حزم، بيروت، 1420هـ/1999م.
15. محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية: الروح، تحقيق: محمد إسكندر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1402هـ/1982م.
16. المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 1426هـ/2005م.
17. نظام الدين أحمد بخشي الهروي: طبقات أكبري، ثلاثة مجلدات، ترجمة: أحمد عبد القادر الشاذلي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، مصر العربية، 1995م.

المصادر والمراجع الفارسية والأردية:

1. أبو عمر منهاج الدين عثمان جوزجاني: طبقات ناصري، الجمعية الآسيوية، كلكتا، 1862م.
2. خليق أحمد نظامي: سلاطين دهلي کے مذهبي رجحانات (الميول الدينية لدى سلاطين دهلي)، إدارة أدبيات دهلي، 1958م.
3. السيد صباح الدين عبد الرحمن: ہندوستان کے عہد وسطی کی ایک ایک جھلک (لمحات من تاريخ الهند الوسطى)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند.
4. السيد محمد مبارك كرماني: سير الأولياء، مطبع محب هند، دهلي، 1302هـ/1884م.
5. شيخ نظام الدين أولياء: فوائد الفواد، تحقيق: أمير حسن سجزي، مطبعة نول كشور، لكهنؤ، 1302هـ/1884م.
6. صدر الدين حسن نظامي: تاج المآثر، الهند، دون تاريخ.

7. ضياء الدين برني: تاريخ فيروز شاهي، تحقيق: سيد أحمد خان، الجمعية الآسوية، بنگال، 1862م.
8. عبد الحق محدث دهلوي: أخبار الأخيار، مطبع مجتبائي، دهلي، 1309م.
9. عبدالباقي نهاوندي: مآثر رحيمي، الجمعية الآسيوية، كلكتا.
10. عصامي: فتوح السلاطين، تحقيق: مهدي حسن، الهند، 1938م.
11. فخر مدبر: تاريخ فخر الدين مبارك شاه، تصحيح: سرديني سن راس، لندن، 1927م.
12. محمد عوفي: لباب الألباب، تحقيق: براؤن ومرزا محمد، لندن، 1906م.
13. محمد قاسم هندو شاه فرشتة: تاريخ فرشتة، مجلدان، مطبع نول كشور، لكهنؤ، 1281هـ/1864م.
14. مولانا أبو الكلام آزاد: تذكرة، كتابي دنيا، لاهور.
15. مولانا جمالي: سير العارفين، مطبع رضوي، دهلي، 1311هـ/1893م.

المصادر الإنجليزية:

1. Edward Thomas: The Chronicles of the Pathan Kings of Delhi, P. London 1871.
2. H. Nelson Wright:The Coinage and Metrology of the Sulṭāns of Dehlī, Delhi 1936.
3. Jamal Malik: Islam in south Asia, A short history, P. Brill, Leiden 2008.
4. K.A. Nizami: Early Indo-Muslim mystics, Islamic culture studies, 1. 1990.
5. K.A. Nizami: The Impact of Iben Taimyya on south Asia, Published in journal of Islamic studies, 1. 1990, Lodon.
6. Khaliq Ahmed Nizami: Studies in Medieval Indian history, P. Aligarh India 1956.
7. Tripathi: Some Aspects of Muslim Administration, P. Allahabad 1936.

مساهمة فرنغي محل
في تطور الدراسات العربية والإسلامية

- أ. د. فيضان الله الفاروقي

طلع الإسلام في شبه الجزيرة العربية وما لبث أنْ أنارت أشعتها مشارق الأرض ومغاربها، وتواصلت باكورة ثمارها العلمية والروحية تغذي العقل والروح للنفوس السعيدة التي عاشت في أنحاء الأرض من سواحل إسبانيا غرباً إلى أرض الصين شرقاً، وذلك كله في مدة أقلّ من قرن واحد. شمّر المسلمون من الصحابة وأتباعهم عن ساق الجدّ في توجيه القلوب وتزكية النفوس وتحويل قبلة الروح والقلب من الدنيا الدنية إلى الله العزيز الحكيم. وبذلك تغلغلت الأرض بصدى "قال الله هكذا" و"قال الرسول هكذا" فمنهم من يروي الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومنهم من كان يصغي إليه ثم يروي نفس الحديث إلى الجمع الكثير. هكذا انتشرت الأحاديث النبوية عبر البلاد في القرن الأوّل من الهجرة على أيدي الصحابة والتابعين وأتباعهم وهذا هو العصر الذي تنوّرت فيه شبه القارة الهندية بشعاع الإسلام ولا تزال مهداً للعروبة والإسلام منذ ذلك العصر إلى يومنا هذا.

أما الحكم السياسي على الهند فقد بدأ في سنة اثنتين وتسعين من الهجرة على يد محمّد بن قاسم الثقفي وبلغت القوات الإسلامية من حدود السند إلى قنوج في سنة خمس وتسعين للهجرة، واستقلّ الحكم السياسي للمسليمن في الهند على يد السلطان شهاب الدين الغوري في سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة ولكن دخول المسلمين والدراسات الإسلامية أقدم. لهذا الحكم السياسي نجد أثراً كبيراً في انتشار الإسلام والدراسات الإسلامية في الهند وظهر جمعٌ من العلماء والأدباء على بسط الأزمنة، طار صيتهم عبر العالم الإسلامي. يقول الشيخ أبو الحسن علي الندوي: إنتاجات علماء الهند لا تقل كمية ولا قيمة من علماء الأندلس إلا أنه لم يعتنِ المؤرخون بجمع أحوالهم ونشر أعمالهم القيمة. نجد معظم أعمالهم في صورة النسخ القلمية في المكتبات والمتاحف". ويقول أبو القاسم فرشته في تاريخه: كانت في عصر غياث الدين بلبن فوق ألف مدرسة في عاصمة دلهي وحدها". وكذا كان شأن المدن الأخرى كما صرّح به المؤرخون وبما أنّ هذا الموجز لا يتحمّل الإطالة فاكتفي بذكر بعض الأعيان:

برز أبو حفص ربيع بن صبيح السندي البصري من بين أتباع التابعين، روى الحديث عن حسن البصري وروى عنه سفيان الثوري وغيره من كبار المحدّثين وهو أوّل من صنّف في الإسلام (تذكرة رحمان علي وكشف الظنون والمصادر الأخرى) وتوفّي مجاهداً في إحدى جزائر الهند سنة ستين ومائة (طبقات ابن سعد) ومنهم أبو معشر نجيع السندي (م 170ه) أقام بالمدينة المنوّرة وكان يعتبر إماماً للسير والمغازي ومنهم رجاء السندي المعروف بالإصفهاني، يقول الحاكم عنه: كان واحداً من أعمدة الحديث (تهذيب التهذيب، 267/3) وكثير من رجال السند الأوائل، جمعهم القاضي أطهر المباركفوري في كتابه "رجال السند والهند" ومنهم أبو العطاء السندي الذي نال الشهرة في الشعر العربي بين العرب. ولم تنقطع هذه السلسلة الذهبية ففي كل عصر برز علماء كبار اعترف بفضلهم العرب فالشيخ إسماعيل نشر الحديث والتفسير في لاهور وأسلم على يده عدد كبير من الناس ومنهم الشيخ داتا غنج بخش الهجويري صاحب "كشف المحجوب" والقاضي حميد الدين الناغوري صاحب تصانيف عديدة منها "اللوائح" و"طوالع الشموس" ومنهم الشيخ علي بن شيخ أحمد المهائمي صاحب "تفسير الرحمن"، لا نظير له في العالم الإسلامي في ربط الآيات والسور ومنهم الشيخ طاهر فتني صاحب "كنز العمال" في الحديث ومنهم علي المتقي صاحب "جمع الجوامع" في الحديث ومنهم الملا محمود الجونفوري صاحب "الشمس البازغة" في الفلسفة، إنه شرح فيه بعض آراء أرسطو عجز عن فهمها ابنُ رشد ومحقّق الطوسي ومنهم شاه وليّ الله المحدّث الدهلوي صاحب تصانيف قيّمة منها "حجة الله البالغة" في أسرار الشريعة، أورد فيه بحوثاً لم تخطر ببال أحد من علماء الأمة مثل سرّ التكاليف الشرعية ومسئلة الجبر والقدر وله "المسوّى شرح المؤطأ للإمام مالك".

وللمدارس الإسلامية دورٌ هامّ في نشر التعاليم الإسلامية وإعداد رجال الدين والعلم، نجد شبكة للمدارس العربية الإسلامية طول البلاد وعرضها، وبجنب المدارس كانت هناك أسر علمية في مختلف العصور والمدن اختصّت بحال علمي مخصوص وكانت أيضاً مدن وقرًى أنجبت كثيراً من مهرة العلوم ومن الأسر كانت أسرة شاه وليّ الله المحدّث الدهلوي وأبناؤة وأحفاده، امتازت في تفسير معارف الحديث والتفسير في عاصمة دلهي وأسر علماء خيراباد امتازوا في نشر الفلسفة اليونانية بصفة إخضاعها للإسلام ومن بين هذه الأسر كانت أسرة فرنغي محل التي برزت على مسرح الوجود في مستهل القرن الثاني عشر الهجري وكان مسقط رأسها مدينة لكناؤ في شمال الهند. نلخّص ما وجدنا عنها وعن أبنائها فيما يلي:

"فرنغي محلي" وإسهاماته في تطوير الدراسات العربية والإسلامية

طلع في مستهل القرن الثاني عشر الهجري شمسٌ على آفاق سهالي وأضاءت أشعتها أنحاء لكناؤ ولم تمض مدة طويلة إلا وأحاطت بكل أنحاء البلاد الهندية وهي حتى الآن تنشر أنوارها. إنني أعني بذلك المركز العلمي الشهير "فرنغي محلي" (Firangi Mahal). ألخّص تاريخه فيما يلي:

سكنت عشيرة مكرَّمة من الأنصار في سهالي، قرية تقع على بعد نحو 22 كلو متراً من لكناؤ في مدينة باره بنكي. أقام فرع من هذه العشيرة في باني بت (Pani pat). كان الشاعر والكاتب الأردوي مولانا ألطاف حسين حالي عضواً من هذه العشيرة كما كان قطب الدين السهالوي، الذي كان تلميذاً للملا عبد السلام الديوي والملا دانيال التشورسي، عضواً بارزاً لفرع هذه العشيرة. إنه أقام بسهالي. ثم قتل الملا قطب الدين من قبل الشيوخ الإقطاعيين العثمانيين المحليين نتيجة للتقاتل في 19 من شهر رجب سنة 1103ھ/ 27 من شهر مارس عام 1694م. وقع هذا في عهد أورنغ زيب. ولما أخبر السلطان عن هذا كله أصدر أحكامه الشديدة ضد قاتلي الملا.[1] "تسلم الحكام الأحكام الملكية بصفة فورية لمعاقبة قاتلي الملا قطب الدين عن طريق هدم بيوتهم وقتل كل من ارتكب الجريمة".

كان للملا أربعة أولاد: محمد أسعد ومحمد سعيد ونظام الدين ومحمد رضا. تمتع محمد سعيد بالإذن بالدخول على ديوان أورنغ زيب. كان نظام الدين ثالث أشقائه الأربعة. إنه كان ابن 14 سنة حينما قتل أبوه فكان شاهد عين لقتل أبيه.

أصدر أورنغ زيب بعد قتل الملا قطب الدين بعامين حكماً أعطي، حسب ذلك، مساكن فرنغي محل كتبرع لأولاد الملا قطب الدين للسكن فيها.[2] نذكر تاريخ فرنغي محل طبقاً لبيان أدلى به مير أفسوس وعبد الحليم شرر:

"كان هناك تاجر فرنساوي للفرس في عهد الإمبراطور أكبر. لما لم يوسع في إجازة رخصته على نهاية السنة الأولى أصرّ على القيام بدوان إجازة. فصودرت عقاراته عقابا لذلك. فهذه البيوت الجميلة أعطيت كمنحة لعشيرة الملا قطب الدين من قبل أورنغ زيب للسكن فيها".

يضيف شرر إلى ذلك قائلاً في كتابه "غذشته لكناؤ":

---

[1] بانئ درس نظامي، ص27، بناء على "عمدة وسائل النجاة" ص68 (مخطوط)

[2] عرائش محفل، ص120-121

"لما زار أورنغ زيب أيودهيا نزل في لكناؤ في عودته إلى دلهي. لا شك في أنه وهب هذه القصور الملا نظام الدين بتلك المناسبة".

إن البيان خاطئ لسببين: أحدهما: إن الحكم ختم عليه في السنة السابعة والثلاثين للجلوس وفي الواقع إنه كان آنذاك في الهند الجنوبية ولا أثر يوجد في التاريخ بأن أورنغ زيب ذهب إلى لكناؤ في تلك الأيام والثاني إنه خاطئ في ضوء الحكم الذي وهب به أورنغ زيب تلك المباني فانه لا يوجد أي ذكر للملا نظام الدين بينما يوجد فيه أسماء كبير أشقاء الملا نظام الدين: الملا أسعد والملا سعيد وهكذا يقول آصف بن علي أصغر فيضي في أحد مقالاته الذي تمت ترجمته إلى الأردوية باسم "هندوستان مين مذهب إسلام بر نظر ثاني كي ضرورت" (الحاجة إلى إعادة النظر في الإسلام في البلاد الهندية):

"تم تأسيس مدرسة في 1105ه حينما كان الملا نظام الدين ابن 15 سنة بأمر من أورنغ زيب باسم "فرنغي محل" و أوقفت بعض البيوت والآراضي لهذه المدرسة. لما أتم نظام الدين دراساته عيّن أستاذاً في هذه المدرسة وبقي أستاذاً مساعداً لأبيه الملا قطب الدين".[1]

إنه خاطئ لسببين: أحدهما أن الأمر[2] يوضِّح جلياً أن تلك الأماكن أعطيت للغرض السكني لا لتأسيس مدرسة والثاني أن الملا قطب الدين مات قبل إصدار هذا الحكم بعامين.

سكن الملا نظام الدين مع أعضاء عشيرته في شقق التاجر الفرنساوي حسب شهرة هذه المباني في تلك الأيام ولكنه ذهب للحضور في محاضرات الملا علي قلي الجائسي والحافظ أمان الله البنارسي لإتمام دراساته. إنه أكمل دراساته على الملا غلام نقشبند وبدأ يدرس ويدرِّس في "فرنغي محل" في عمر يبلغ 45 سنة. أسفر تدريسه المحتوي على خمسين عاماً عن تطوير محلة صغيرة محدودة للكناؤ كجامعة للدراسات الإسلامية.

---

[1] بانئ درس نظامي، ص69-70

[2] "يا ايها الناس أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. مهر أبو مظفر محمد محيي الدين عالمكير بادشاه غازي..." درين وقت ميمنت أقران فرمان والاشان واجب الإذعان صادر شد كه يك منـزله حويلي فرنكي به متعلقة آن واقع بلده لكنؤ مضاف به صوبه أودهـ كه از أمكنه نزولى است، براى بودن شيخ محمد أسعد ومحمد سعيد بسران ملا قطب الدين شهيد حسب الضمن مقرر فرموديم بايد كه حكام وعمال ومتصديان مهمات حال واستقبال وجاكير داران وكرويان به آن مشار اليهما معاف ومرفوع القلم دانسته بوجه من الوجوه مزاحم ومعترض نه شوند وأندرين باب سند مجدد نه طلبند" بانئ درس نظامي، ص67

إن دائرة الملا غلام نقشبند الذي كان أستاذاً بجانب كونه معلماً روحياً، اشتهر خلال عصره كمركز للدراسات الإسلامية. لما توفي في 1126ھ/1714م تحولت هذه الدرجة المركزية إلى معهد الملا نظام الدين وفي وقت قليل انتشر منهاج هذه المدرسة الدراسي في كافة أنحاء البلاد الهندية. اعترف بذلك كلٌ من المترجمين من غلام علي آزاد إلى عبد الحليم شرر والعلامة شبلي النعماني في تراجمهم وكتبهم التاريخية.

يمكن أن يسأل أحد: لم صار منهاج دراسي الملا نظام الدين شهيرا للغاية بينما كان في نفس العصر علماء كبار آخرون. يجيب الملا ولي الله الفرنغي محلي على هذا السوال بأنه كان "الدرس الكثير في الوقت القصير".[1]

يتحدث عبد الحليم شرر:

"يقال أن المنهاج الدراسي الذي تم إعداده بقلمه وذهنه كان يمتلك البركات الروحانية بجانب اشتماله على فوائد العلم".[2]

في هذا الباب، يصف العلامة شبلي النعماني عن المميزات الخاصة للمنهاج الدراسي النظامي:

الإيجاز: وضع كتاباً أو كتابين في كل مادة.

طبقاً لاصل الإيجاز، قرّر معظم الكتب جزئياً فالأجزاء التي كانت ضرورية وضعت للدرس.

لم يتم إلا تقرير الكتب التي اعتبرت صعباً جداً على الموضوع. فكان الهدف تنمية صلاحية الفكر العميق في أذهان الطلاب لكي يدرسوا بعد ذلك، أي كتاب يريدون دراسته.[3]

وعلى كل حال فقد نال الملا نظام الدين والمنهاج الدراسي الذي أعدّه هو، شهرة في أيام حياته، يصفها كاتبه المعاصر غلام علي آزاد في كتابه "مآثر الكرام":

"إن أغلبية علماء كافة أنحاء البلاد الهندية تلامذة الملا نظام الدين في هذه الأيام".[4]

---

[1] المصدر نفسه، ص78
[2] غذشته لكناؤ
[3] مقالات شبلي (بالأردوية) 82/1
[4] مآثر الكرام، 220/1

وهذا حق أن المنهاج الدراسي الذي أعدّه الملا نظام الدين يختلف عن كافة المناهج الدراسية القديمة فالهدف الأصيل وراء إعداد هذا المنهاج الدراسي كان خلق الصلاحية للوصول إلى العمق، في أذهان الطلاب، ولاستنباط المعاني العميقة لكتاب ثم أخذ وفهم الفكر الأصلي للكاتب وهكذا يقدر الطلاب على تلقي القدر الأعلى للعلم في وقت قليل نسبياً. ولذلك فقد قدّم الملا نظام الدين التفاتا مزيدا إلى أصول الموضوع بدلا من الكتب المقررة على ذلك الموضوع ولذلك فإننا نجد كتباً كثيرة حول الأصول بدلاً من الموضوع نفسه الذي ينمي الصلاحيات للتبصر والتكهن في داخل الطلاب. فهذا المنهاج الدراسي يصرّ إصراراً على العلوم العقلية فاليوم يمكن لأحد أن ينتقد هذه الطريقة ولكن هذا من الواقع أن هذا المنهاج الدراسي قد قدّم إسهاماً معقولاً إلى بناء الأذهان سيراً مع البيئة والجوّ العقلي للهند. وهذا هو السبب الوحيد وراء شهرة منهاج دراسي الملا نظام الدين فيما وراء الحدود الهندية إلى هرات واليمن في أيام حياته ذاتها. يقول صاحب "أغصان الأنساب" إن اثنين من طلابه جاءا من هرات (Hirat) واليمن وعمّما هذا المنهاج الدراسي في بلديهما على إثر عودتهما إلى وطنيهما.[1] والآن وقد مضى نحو ثلاثة قرون منذ ذاك الوقت، نرى أن كافة المدارس المهمة للدراسات العربية والإسلامية ليست في غنى عن هذا المنهاج وممن برز من علمائه في مجال الدراسات العربية والإسلامية هم الشيخ عزيز الله والشيخ حسن بن غلام مصطفى والملا عبد العلي بحر العلوم والشيخ أحمد بن يعقوب والشيخ أنوار الحق وعبد العلي والشيخ علاؤ الدين أحمد والشيخ أمين الله والملا حيدر بن الملا مبين وظهور الله والشيخ محمد أصغر والشيخ معين والشيخ ولي الله والشيخ أبو الحسن والشيخ إفهام الله والشيخ بديع الزمان والشيخ حفيظ الله والشيخ عبد الحي والشيخ رحمة الله والشيخ أمان الله والشيخ ظهور علي الأنصاري والشيخ عبد الحكيم والشيخ عبد الحليم والشيخ نعمة الله والشيخ مراد الله والشيخ نعيم الله والشيخ عبد الرزاق والشيخ شمس العلماء محمد نعيم وآخرون كثير فنختار بعضاً منهم ونتكلم عنهم بالإيجاز:

1. الملا حسن بن غلام مصطفى:

هو ينتمي إلى عائلة فرنغي محل الشهيرة. كان اسمه محمد حسن ولكنه اشتهر باسم "الملا حسن".أخذ العلم علىخاله الملا كمال الدين ثم على الملا نظام الدين. كان الملا حسن عالماً فاقد النظير في المعقولات. قام بتدريس هذه العلوم في فرنغي محل لمدة غير قصيرة ولكنه غادر لكناؤ لأجل نزاع ديني وذهب إلى شاهجهان بور سراً. وعلى دعوة من ضابطة خان، أقام في نجيب اباد وعمل في مكان أستاذه الملا كمال الدين. ولما انهزم ضابطة خان من قبل المراثيين توجه الملا حسن نحو دلهي وعاش مع شاه عالم إمبراطور دلهي لمدة قصيرة. دعاه ضابطة خان مرة

[1] بانئ درس نظامي، ص95، بناء على "أغصان الانساب" (مخطوط)

أخرى إلى نجيب آباد. ثم دعاه النواب فيض الله خان إلى رامبور فذهب إليها وتوفي بها في الثالث من صفر المظفر عام 1209هـ.[1] من أعماله البارزة:

1. الملا حسن: هذا شرح شهير للغاية لسلم العلوم ولـه درجة ممتازة فيما بين شروح هذا النص المعقول. يوجد مطبوعاً في كل مكان.
2. شرح مسلّم الثبوت: شرح غير تام يعالج البحوث حتى الباب "مبادئ كلامية".[2]
3. حاشية على صدرا: وصدرا شرح جميل لهداية الحكمة. قام به صدر الدين الشيرازي وهو يتحدث عن الفلسفة اليونانية.
4. حاشية على زواهد ثلاثة.[3]
5. معارج العلوم: هذا كتاب دراسي في الفلسفة اليونانية. هذا أيضاً غير تام ويشرح حتى "أم الأجسام".
6. حاشية شمس بازعة للملا محمود الجونبوري: هذا في الفلسفة اليونانية ومطبوع ولكنه غير تام كذلك.[4]

2. الملا عبد العلي بحر العلوم:

كان يكنى "أبو العياش". ولد في1142هـ. نال دراسته الابتدائية على والده وأتمها في عمره البالغ 18 سنة. وبعد وفاة والده تعلق بالملا كمال الدين وتلقّى مزيد الدراسة عليه ثم عمل لنحو سنتين في موضع والده. بعد ذلك زار الحافظ رحمت خان الشاهجهان بوري الذي أقام معه لمدة عشرين سنة تقريباً. ثم دعاه النواب فيض الله خان إلى رامبور فذهب إليها وبعد القيام بها لمدة أربع سنوات تقريباً سافر إلى بوهارو (Buharu) إحدى قرى مدينة بوردوان (Burdwan) للقيام مع الرئيس المنشئ صدر الدين. ولما رأى بها ازدحاماً للطلاب ذهب إلى محمد علي والاجاهي المدراسي في 24 من ذي الحجة عام 1205هـ مع 600

---

[1] تاريخ علماء فرنغي محل، ص46

[2] "سلّم" و"مسلّم" كتابان دراسيان شهيران قام بتأليفهما الملا محب الله البيهاري فالأول في المنطق والثاني في أصول الفقه. يوجد كلا الشرحين مطبوعاً مع نصوصهما.

[3] قد تم شرح "زواهد ثلاثة" في الباب السابق. راجعه. توجد نسخته الخطية في مكتبة ندوة العلماء (رقم المخطوطات: 6427) ومكتبة خدا بخش. مفتاح الكنوز الخفية 153/3

[4] كافة أعمال الملا حسن المذكورة أعلاه موجودة في شكل المطبوع ومدروسة في المدارس الإسلامية. إني كذلك رأيت نسخ خطية هذه الآثار في مكتبة رضا، رامفور. راجع مفهرس المخطوطات العربية.

طالب كما هو المذكور في "نزهة الخواطر". توفي في 13 من رجب المرجب عام 1225ھ في مدارس بعد ما أدّى خدمة جليلة للأدب والدراسة وتم دفنه في مسجد والاجاه القائم في مدراس. من أعماله البارزة:[1]

لم يكن عالم يعادله سوى الملا مبين والشيخ ولي الله والعلامة عبد الحي. نجد في أعماله قدراً كبيراً من العلمية والواقعية وهو مفقود لدى الآخرين فقد شرح في شروحه وحواشيه مشتملات النصوص بأسلوب ساذج للغاية.

1. شرح تحرير الأصول: بدأ والده بكتابة شرح تحرير الأصول لابن همام ولكنه لم يوفّق إتمامه فقام به بحر العلوم.
2. قيامت نامه: ذكر الأحداث التي ستقع عند بلوغ يوم القيامة وتفصيل الآخرة بناءً على القرآن الكريم والأحاديث الشريفة. لغة الكتاب فارسية[2] وتم طبعه غير مرة.
3. أركان أربعة المشهور بـ "رسائل الأركان": هذا مجموع أربع رسائل؛ الرسالة الأولى في الصلاة والرسالة الثانية في الزكاة والرسالة الثالثة في الصوم والرسالة الرابعة في الحج. يوجد الكتاب بالعربية وتم طبعه.[3]
4. حاشية على مير زاهد رسالة: هي حواشٍ مفصلة بالعربية على الرسالة القطبية لقطب الدين الرازي وهي رسالة تتحدث عن المصطلحات المنطقية وإثبات تصور التصديق. تم إعداده مع الحواشي عليها باسم "كشف المكتوم حاشية بحر العلوم". تم طبعه.[4]
5. حاشية على شرح صدرا: شرح جميل عربي لهداية الحكمة لصدر الدين الشيرازي وهو شرح لكتاب الأبهري في الفلسفة.[5]

---

[1] ولمزيد البيان راجع: آثار الأوَل ص24 وتاريخ عماء فرنغي محل، ص137-138 ونزهة الخواطر 282/7-286 وبانئ درسِ نظامي، ص10-124.

[2] توجد نسخه الخطية في مكتبة كلكته القومية، رقم: Bh.P.MS. Catl.132

[3] توجد نسخه الخطية في مكتبة كلكته القومية: A و B و C و I و E 32 ومكتبة خدا بخش. مفهرس المخطوطات العربية 52/3.

[4] توجد نسخه الخطية في مكتبة كلكتة القومية A و B و C 4 و A 10 ومكتبة خدا بخش، بتنه، مفهرس المخطوطات العربية ص 230-231

[5] توجد نسخه الخطية في مكتبة كلكته القومية، رقم: B.Ar.334 ومكتبة خدا بخش، بتنه، مفهرس المخطوطات العربية 210/1

6. فواتح الرحمة: هذا شرح عربي لمسلم الثبوت للملا محب الله البيهاري وهو كتاب شهير في أصول الفقه.[1]
7. شرح سلم العلوم: شرح عربي لسلم العلوم للملا محب الله البيهاري. هذا كتاب شهير في المنطق. [2]
8. تنوير المنار، شرح فارسي للمنار: كتاب شهير في أصول الفقه الحنفي قام بتأليفه حفيظ الدين النسفي (م 1310م).[3]
9. هداية الصرف: كتاب في الصرف العربي باللغة الفارسية.[4]
10. شرح مثنوي معنوي: شرح فارسي لملحمة مولانا رومي المسماة بـ "مثنوي معنوي".[5]

وبجانب هذه الأعمال الجليلة قام بحر العلوم بتحرير حواشٍ على عديد من كتب المنطق المنصوصة. تم طبع هذه الآثار كلها.

3. الملا مبين بن الملا حبيب الله:

هو أيضاً أحد كتّاب فرنغي محل البارزين. يعالج معظم آثاره شرح النصوص في المنطق وهي مفيدة لكلا الحزبين؛ حزب الأساتذة وحزب الطلاب. توجد شروح مفيدة ملائمة للموضوعات المختلفة في كافة أعماله. ليس لـه عديل في سعة العلم وعمق الفهم حتى فيما بين علماء فرنغي محل. إنه كان تلميذاً للملا حسن ولا غير وقد اتسع نطاق تلامذته خلال حياة أستاذه ولما هاجر الملا حسن إلى رامفور أملأ هو هذا الفراغ. من أبرز أعماله:

1. شرح كامل لسلم: يوجد مطبوعاً.
2. شرح مسلم الثبوت: هذا يعالج حتى الباب "مبادئ كلامية". توجد نسخته الخطية في مكتبة خدا بخش، بتنه.[6]تم طبعه كذلك.

---

[1] توجد نسخه الخطية في مكتبة خذا بخش، بتنه، مفهرس المخطوطات العربية 72/1 ومكتبة كلكته القومية: Bh,Ar,142 ومكتبه ندوة العلماء رقم: 2049. تم طبعه كذلك.

[2] توجد نسخه الخطية في مكتبة كلكته القومية، رقم: Bh,Or.302 ومكتبه خذا بخش، بتنه مفهرس المخطوطات العربية 227/1

[3] توجد نسخته الخطية في مكتبة كلكته القومية، رقم: Bh,Pr.131

[4] توجد نسخته الخطية في مكتبة خدا بخش، بتنه، مفهرس المخطوطات الفارسية 129/3

[5] توجد نسخته الخطية في مكتبة خدا بخش، بتنه، المصدر نفسه، ص410

[6] مفتاح الكنوز الخفية 72/1 ومكتبة ندوة العلماء، رقم: 2043

3. الحواشي على زواهد ثلاثة: تم طبعها. توجد نسخها الخطية في مكتبة خدا بخش، بتنه ومكتبة رضا، رامفور.[1]
4. شرح عربي للمثنات بالتكرير وهوباب معقد لصدرا لصدر الدين الشيرازي والكتاب الأصيل يتكلم عن الفلسفة اليونانية.
5. كنـز الحسنات في مسائل الزكاة: كتاب في الفقه بالفارسية. تم طبعه.
6. شرح أسماء حسنى.
7. ترجمة "حكاية الصالحين".
8. وسيلة النجاة: ترجمة الإثني عشر إماماً. لغة الكتاب فارسية وطبع من مطبع غلشن فيض في 1313هـ.
9. جواهر الفوائد: يحتوي الكتاب على أصول الصيام.
10. زبدة القواعد: كتاب بالفارسية يدل على أصول الفقه الحنفي. توجد نسخته الخطية في مكتبة رضا، رامفور.[2]

توفي الملا مبين في 22 من ربيع الثاني عام 1225هـ. كان قد بلغ من عمره 67 سنة.

4. أمين الله:

إنه ينتمي إلى فرنغي محل. أبوه محمد أكبر. لـه اليد الطولى في الفقه الحنفي. ولد وترعرع في لكناؤ. تلقّى العلم على خاله المفتي محمد أصغر وجده لأمه المفتي ظهور الله. وبعد ما أتم دراساته أقام في لكناؤ وانشغل بتدريس العلوم وكتابة الفتاوى. من أبرز أعماله:

1. حواشي على شرح جامي: هذا شرح عربي لكافية ابن حاجب، قام بتأليفه عبد الرحمن جامي.

ضابطة التهذيب.

---

[1] المصدر نفسه، ص155-164. مفهرس المخطوطات العربية لمكتبة رضا، رامفور 8504/4 و8144/2

[2] ولمزيد البيان راجع: تذكرة علماء فرنغي محل، ص172 ونزهة الخواطر 403/7 وآثار الأوّل، ص30

2. فصول أكبري: كتاب مقرّر في الدرس في أيتمولوجيا العربية، قام بتأليفه السيد علي أكبر الله ابادي.

مضى لسبيله في لكناؤ في 29 من جمادى الأخرى عام 1253م.[1]

5. حيدر بن الملا مبين:

هو أحد أفراد عائلة فرنغي محل الشهيرة وكان من علماء الفقه الحنفي. تلقّى العلم على والده ثم أوقف ذاته على الأعمال الأدبية. أعطاه سعادت علي خان علاوة يومية قدرها ثلاث روبيات وبعد ما توفي سعادت خان أشرف عليه رؤساء المدينة الآخرون ونال علاوة أكثر مما ذات قبل وبسبب النـزاع بين أهل التشيع وأهل السنة، تعرض لأنواع شديدة من العذاب والعقاب فترك المدينة وأراد كلكته في 1240هـ. إنه أراد أن يحج بيت الله ولكن الطوفان جرّه إلى مسقط وبعد القيام بها لمدة ثلاثة أشهر استأنف رحلته للحج وبلغ هناك في 1246هـ.[2] خلال قيامه بمكة نال الإجازة من السيد يوسف اليمني والشيخ عبد الحفيظ المكي لتدريس ورواية الحديث. رجع إلى الهند في شهر محرم في 1241هـ. وبإرادة المغادرة ركب باخرة ولكنها غرقت بعد قطع مسافة غير طويلة وبغرقها غرق 20 سافراً فيها كما لم تبق مكتبة ثمينة من عذاب الغرق. ومن نعمة الله عليه أن أفلت من المصيبة وبلغ مومباي بخير وعافية. تلقّاه الناس في حيدر اباد برحابة صدورهم فوهبه نوّاب حيدراباد علاوة شهرية قدرها ألف روبية فأقام بها. من أعماله:

كتب رسالة وجيزة في المنطق كما ألّف كتيباً آخر يسمَّى "وظائف حيدرية" وبجانب هذين الكتيبين، علّق الشيخ على عديد من الكتب الدراسية. توفي بحيدر اباد في 1256م.[3]

6. العلامة عبد الحي الفرنغي محلي:

لم يكن لـه بديل سوى العلامة بحر العلوم ومن العجيب أن كليهما تمتع من الفترة السوية للحياة. قد سبق أسلافه في سعة العلم وكثرة التأليف.

يعرف العالم الإسلامي مساهماته القيمة في الدراسات الإسلامية خير معرفة وقد ذكر المؤلف ذاته هذه الخصوصية منه في مختلف كتبه ورسائله ومثل هذه الروايات تشير إلى جداراته الكبرى.

---

[1] نزهة الخواطر 58/7 وتاريخ علماء فرنغي محل، ص38

[2] آثار الأوَل، ص15

[3] أغصان أربعة، ص38 وتذكرة علماء فرنغي محل، ص49-51

ألّف الشيخ عبد الباقي كتاباً في ذكراه باسم "حسرة الفحول بوفاة نائب الرسول".

أصابه الصرع ليلة التاسع والعشرين من ربيع الأول عام 1304ه ولكنه ألفت من حملته إلا أن حملته الثالثة لم تمهله لمزيد من العيش.

يقول عنه المحقّق الشهير عبد الفتاح أبو غدة:

"وقد وقع لي أكثر مؤلفاته، وأنا في استكمال باقيها، ومن عزمي أنْ أحصي ثفحات تلك التآليف العديد المفيدة، لأوزّعها على أيّام عمره رحمه الله تعالى، فيظهر منها نبوغه النادر العظيم في التأليف والتصنيف، وظني أنها تفوق في كثرة صفحاتها الموّزعة على أيام حياته ما قيل في كثرة تصانيف ابن جرير وابن الجوزي والفخر الرازي وأمثالهم، من الذين طالت أعمارهم وكثرت تواليفهم، هذا مع تأخر العصر وفتور الهمم واجترار العلم عند أغلب المرلفين المتأخرين"[1].

معظم آثاره باللغة العربية. أسلوبه ساذج وتفصيلي. إنه مهر في كافة مجالات العلوم إلا أنه كان راغباً في الفقه. وفيما يلي ذكر موجز لأعماله:

1. تبيان: شرح بالفارسية لـ "ميزان الصرف".
2. تكملة الميزان (بالفارسية).
3. شرح تكملة الميزان: لم يطبع حتى الآن.
4. امتحان الطلبة.
5. هذه الرسائل الأربع بالفارسية في النحو العربي.
6. إزالة الجمد عن إعراب أكمل الحمد (بالعربية).
7. خير الكلام في تصحيح كلام الملوك ملوك الكلام للعلامة صديق حسن خان القنوجي (بالعربية).
8. الهداية المختارية في شرح الرسالة العضدية للقاضي عضد في أصول الفقه (بالعربية).
9. هداية الورى إلى لواء الهدى (بالعربية).
10. مصباح الدجى في لواء الهدى لغلام يحيى في المنطق (بالعربية).

[1] طرب الأماثل بتراجم الأفاضل، 1:34

11.نور الهدى: كتاب بالعربية في المنطق.

12.علم الهدى لحملة علم الهدى (بالعربية). هذه أربع حواشٍ على "لواء الهدى".

13.التعليق لحلّ حاشية الجلال على التهذيب: كتاب بالعربية في المنطق.

14.حلّ المغلق في بحث مجهول المطلق: كتاب بالعربية في المنطق.

15.حاشية شرح تهذيب لعبد الله اليزدي: هي بالعربية في المنطق.

16.حاشية بر مير زاهد رسالة قطبية (بالعربية).

17.حاشية بر مير زاهد ملا جلال: هي بالعربية في المنطق.

18.حاشية بديع الميزان: هي بالعربية في المنطق.

19.حاشية رسالة قطبية: هي بالعربية في المنطق.

20.الكلام المتين في تحرير البراهين: كتاب بالعربية في المنطق.

21.تيسير العسير في بحث المثنات في التكرير: كتاب بالعربية في المنطق.

22.الإفاضات الخطيرة في بحث سبع أرض عشيرة: كتاب بالعربية في الفقه.

23.دفع الكلال عن تعليقات الكمال: كتاب بالعربية في المنطق.

24.تعليقات الحمائل على حواشي زاهد على شرح الهياكل: هي بالعربية في الفلسفة اليونانية.

25.المعارف حاشية شرح مواقف: كتاب بالعربية في أصول الفقه.

26.حاشية صدرا: هي بالعربية في الفلسفة اليونانية.

27.حاشية ميبذي: هي بالعربية في الفلسفة اليونانية. و"ميبذي" شرح لهداية الحكمة لألف. ج. ميبذي.

28.حاشية شمس بازغة (بالعربية) و"شمس بازغة" كتاب في الفلسفة اليونانية قام بتأليفه الملا محمود الجونبوري.

29.حاشية معجز للنفيسي (بالعربية).

30.الفوائد البهية في تراجم الحنفية: هذا أحد مؤلفات الكاتب القيمة بالعربية. لـه مجلدان.

31. التعليقات السنية حاشية للفوائد البهية: حاشية بالعربية على الكتاب المذكور أعلاه.

32. النصيب الأوفر في تراجم علماء ثلاثة عشر: هذه تراجم علمائه المعاصرين بالعربية. لم تطبع حتى الآن.

33. خير العمل في علماء فرنغي محل: هذه تراجم علماء فرنغي محل بالعربية. لم تطبع حتى الآن.[1]

34. نزهة المدرسين في ذكر المؤلفات والمؤلفين (بالعربية).[2]

35. النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير: كتاب مطبوع بالعربية في الفقه. و"الجامع الصغير" عمل كبير في الفقه الحنفي للإمام محمد الشيباني.

36. مذيلة الدراية لمقدمة الهداية: هي بالعربية في الفقه.

37. مقدمة الهداية: هي بالعربية في الفقه و"الهداية" شرح "القدروري" وهو كتاب ألّفه الإمام أبو الحسن بن أبو بكر القدروري البغدادي (م362ھ) في الفقه الحنفي و"الهداية" كتاب لشمس الدين المرغيناني. تم طبع كلا الكتابين مع الهداية.

38. مقدمة السعاية: هي بالعربية في الفقه و"السعاية" شرح "شرح الوقاية" الذي هو ذاته شرح للوقاية.

39. مقدمة عمدة الرعاية: "عمدة الرعاية" شرح للنصف الأول لـ"شرح الوقاية" في مجلدين. تم طبعه.

40. مقدمة شرح وقاية: هي بالعربية وتم طبعها مع شرح الوقاية.

41. مقدمة التعليق الممجد: التعليق الممجد شرح المؤلف لمؤطا الإمام محمد وهو مجموع مهمّ للأحاديث. يعدّ الشرح من الأعمال المهمة في الفقه الحنفي.

42. إبراز الغيّ الواقع في شفاء العيّ: هذا ردّ بالعربية على كتاب "شفاء العىّ" للنواب صديق حسن البهوفالي. تم طبعه.

---

[1] راجع للمخطوط: بانئ درس نظامي، ص14

[2] هذه الرسائل الثلاث (31-33) توجد صورة مخطوطات غير تامة في مجموعات فرنغي محل لمكتبة مولانا آزاد القومية، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره. رقم المخطوط الأخير: 71/549

43.تذكرة الراشد برد تبصرة الناقد: هذا ردّ بالعربية على كتاب "تبصرة" للنوّاب صديق حسن خان. ألّفه النواب ردّاً على كتاب المؤلف "إبراز الغيّ". تم طبعه.

44.حسرة العالم بوفاة مرجع العالم: هذه ترجمة عربية لوالده الشيخ عبد الحليم الفرنغي محلي.

45.طبقات الحنفية: هذه ترجمة عربية لعلماء الفقه الحنفي. تم طبعها.

46.القول المشهور في هلال خير الشهور: هي بالعربية في الفقه.تم طبعها.

47.القول المنشور على القول المشهور: هذه حواشٍ عربية على تلك الرسالة. تم طبعها.

48.الفلك الدوّار فيما يتعلق برؤية الهلال بالنهار: هي بالعربية في الفقه. تم طبعها.

49.الأجوبة الفاضلة لأسئلة العشرة الكاملة: هذا مجموع الأجوبة المقنعة على عشرة الأسئلة التي طرحت على المؤلف من قبل محمد حسين الذي لم يقبل ثقة أربعة المذاهب الفقهية وكان يتعلق بطائفة "غير مقلدة". تم طبعه.

50.الكلام الجميل فيما يتعلق بالمنديل: رسالة بالعربية في الفقه. تم طبعها.

51.تحفة النبلاء في جماعة النساء: هي بالعربية وصدرت مطبوعة.

52.الإفساح عن شهادة المرأة في الإرضاع: هي بالعربية في الفقه وصدرت مطبوعة.

53.قوت المغتذين بفتح المقتدين: رسالة بالعربية في الفقه. تم طبعها.

54.الفلك المشحون في انتفاع الراهن والمرتهن بالمرهون: رسالة بالعربية في الفقه. تم طبعها.

55.تحفة الطلبة في مسح الرقبة: رسالة بالعربية في الفقه. تم طبعها.

56.تحفة الكملة: رسالة بالعربية في الفقه.

57.نزهة الفكر في سبحة الذكر: رسالة بالعربية في الفقه. تم طبعها.

58.النفحة بتحشية النـزهة: هذه حواشٍ بالعربية على "نزهة الفكر". تم طبعها مع الأصل.

59.سياحة الفكر في الجهر بالذكر: رسالة بالعربية في الفقه. تم طبعها.

60.خير الخبر في أذان خير البشر: كتاب بالعربية في الحديث. تم طبعه.

مجلة الهند

61. الهسهسة بنقض الوضوء بالقهقهة: رسالة بالعربية في الفقه صدرت مطبوعة.
62. رفع الستر عن إدخال الميت في القبر: رسالة بالعربية في الفقه. تم طبعها.
63. غاية المقال فيما يتعلق بالنعال: رسالة بالعربية في الفقه. تم صدورها.
64. زفر الأنفال حاشية غاية المقال: هذه حواشٍ بالعربية على "غاية المقال".
65. إفادة الخير في الاستياك بسواك الغير: رسالة بالعربية في الفقه. صدرت مطبوعة.
66. التحقيق العجيب في التثويب: رسالة بالعربية في الفقه. تم نشرها.
67. إحكام القنطرة في أحكام البسملة: رسالة بالعربية في الفقه. لم تطبع حتى الآن.
68. القول الأشرف في الفتح عن المصحف: رسالة بالعربية في الفقه. تم طبعها.
69. تحفة الأخيار في إحياء سنة سيد الأبرار: رسالة بالعربية في الفقه. صدرت من الشام بتحقيق محمد الفتاح أبو غدة. تثبت الرسالة 20 ركعة لسنة التراويح.
70. نخبة الأنظار حاشية تحفة الأخيار: هي حواشٍ بالعربية على "تحفة الأخيار". تم طبعها مع الأصل.
71. إمام الكلام في القراءة خلف الإمام: رسالة بالعربية مليئة بالحجج على الموضوع. تم طبعها.
72. غيث الغمام: هذا شرح "إمام الكلام". تم طبعه مع الأصل.
73. زجر أرباب الريان عن شرب الدخان: رسالة بالعربية في الفقه. تم طبعها.
74. ردع الإخوان عما أحدثوه في جمعة آخر رمضان: رسالة نصح وإصلاح عربية في الفقه. تم طبعها.
75. أحكام الفرائس في أداء الأذكار في لسان فارس: رسالة بالعربية في الفقه. تم طبعها.
76. الإنصاف في حكم الاعتكاف: رسالة بالعربية في الفقه. قد طبعت.
77. إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة: رسالة بالعربية صدرت من الشام بتحقيق أبو غدة.
78. تدوير الفلك في حصول الجماعة بالجن والملك: رسالة بالعربية في الفقه. قد طبعت.

79.القول الجازم في سقوط الحد بنكاح المحارم: رسالة بالعربية في الفقه.

80.الرفع والتكميل في الجرح والتعديل: رسالة بالعربية في أصول الحديث. صدرت من الشام.

81.نفع المفتي والسائل بجمع متفرق المسائل: رسالة بالعربية في الفقه. تم طبعها.

82.حسن الولاية: هذه حواشٍ بالعربية على "شرح الوقاية". تم طبعها.

83.عمدة الرعاية في حلّ شرح الوقاية: هذا شرح لـ"شرح الوقاية". هذا يعتبر أهمّ مؤلفات الكاتب.

84.السعاية في كتب ما في شرح الوقاية: هذا تعريف انتقادي بالعربية بكافة الكتب التي جاء ذكرها في "شرح الوقاية".[1]

85.حاشية جامع صغير: هي بالعربية. و"جامع صغير" كتاب للإمام محمد الشيباني (م 187هـ).

86.حاشية هداية: هي بالعربية في الفقه. هي حواشٍ مفصلة على الكتاب. طبعت مع الأصل. لم تتجاوز الحواشي جزء الهداية الأول.

87.التعليق الممجد على موطأ الإمام محمد: هذا شرح قيم لمؤطا الإمام محمد. يعتبر الشرح أهمّ وأجلّ مؤلفات الكاتب.

88.الآثار المرفوعة في ذكر الأحاديث المرفوعة: كتاب بالعربية في الحديث وأصوله.

89.حاشية حصن حصين: "حصن حصين" مجموعة الأحاديث الناصحة لشمس الدين أبو الخير المعروف بابن الجذري. علّق عليه الشيخ بالعربية.

90.ظفر الأماني: هي بالعربية في أصول الحديث.[2]

91.الآيات والبيانات على وجود الأنبياء في الطبقات: رسالة غير تامة.

92.اللطائف المستحسنة بجمع خطب شهور السنة: هذا مجموع الخطب العربية التي تلقى يوم الجمعة. تم طبعه.

---

[1] "وقاية الرواية" كتاب دراسي للفقه الحنفي لبرهان الشريعة محمود بن عبد الله المحبوبي. كتب عبد الله بن مسعود تاج الشريعة شرحاً لـه باسم "شرح الوقاية" و"السعاية" شرح لهذا الشرح.

[2] "مختصر أصول الحديث" كتاب للسيد مير شريف جرجاني و"ظفر الأماني" شرحه.

93.زجر الناس على إنكار أثر ابن عباس: كتاب مليء بالحجج على موضوع الحديث.

94.رفع الوسواس في أثر ابن عباس (بالأردوية).

95.الكلام المبرم في نقد قول المحكم: رسالة بالأردوية في الكلام. تم طبعها.

96.الكلام المبرور في رد قول المنصور (بالأردوية).

97.السعى المشكور في رد مذهب المأثور: رسالة بالعربية في الكلام.

98.عمدة النصائح: رسالة غير تامة بالعربية. لم تطبع حتى الآن.

99.جمع الغرر في ردّ نثر الدرر: رسالة بالعربية في الكلام. تم طبعها.

100. تحفة الثقات في تفاصيل اللغات: رسالة بالعربية في الأدب.

101. زجر الشبان والشيبة عن ارتكاب الغيبة: رسالة بالأردوية في النصح والإرشاد. تم طبعها.

102. مصباح الدجى: هذه حواشٍ بالعربية على حواشي غلام يحيى على رسالة مير زاهد. موضوعها المنطق وتم طبعها.

103. حاشية خيالي: كتب سعد الدين عمر التفتازاني شرح "العقائد" للإمام النسفي ثم كتب الشيخ أحمد بن موسى بن شمس الدين الحواشي عليه باسم "خيالي". ألّف المؤلف حواشيه عليه بالعربية وسمّاها بـ "حاشية خيالي". صدرت الحواشي مع الأصل.

104. حاشية شرح عقائد نسفي: هذه حواشٍ بالعربية على "شرح العقائد" للنسفي. تم طبعها.

وبجانب هذه الكتب القيمة العالية كتب المؤلف عديداً من الرسائل على مختلف الموضوعات. لم يتم معظمها.[1]

7. عبد الحليم بن أمان الله:

ولد في 12 من شعبان عام 1239هـ وبعد ما حفظ القرآن درس كتب المنهاج الدراسي الإسلامي من والده والمفتي ظهور الله وفرغ من دراسته حين بلوغه 16 سنة فقط. تعلّم الحديث على ميرزا حسن علي المحدث. بدأ يعلِّم في لكناؤ ثم ذهب إلى باندا (Banda) ومن ثم إلى جونفور فدرَّس في "مدرسة حافظ إمام

[1] تذكرة علماء فرنغي محل، ص131 ونزهة الخوطر 234/8 وآثار الأوَل، ص23-24

بخش". قضى بها عشر سنوات ثم سافر إلى حيدر اباد حيث أقام. مات صباح يوم الإثنين التاسع والعشرين من شعبان عام 1285هـ. من أبرز أعماله:

1. رسالة في الإشارة بالسبّابة في التشهد: رسالة في الفقه.
2. حاشية شرح عقائد: هي بالعربية وتم طبعها.
3. نظم الدرر في سلك شقّ القمر: رسالة بالعربية في إثبات معجزة النبي لـ "شق القمر".
4. إمعان النظر في بصارة شقّ القمر.
5. التحلية شرح التسوية: "التسوية" كتاب بالعربية في التصوف للشيخ محب الله الهادي. شرحه عبد الحليم باسم "التحلية". تم طبعه.
6. نور الإيمان في أثر حبيب الرحمن: هي ترجمة عالم كبير يسمَّى "حبيب الرحمن".
7. الإملاء في تحقيق الدعاء.
8. إيقاد المصابيح في التراويح: رسالة في الفقه. تم طبعها.
9. غاية الكلام في بيان الحلال والحرام: رسالة بالفارسية في الفقه الحنفي. نشرها مطبع علوي، لكناؤ في 1246هـ.
10. خير الكلام في مسائل الصيام: رسالة بالفارسية في الفقه. صدرت مطبوعة.
11. القول الحسن فيما يتعلق بالنوافل والسنن: رسالة بالأردوية في الفقه. صدرت من كانفور.
12. عمدة التحرير في مسائل اللون واللباس والحرير: رسالة بالأردوية في الفقه. برزت إلى حيز الوجود.
13. حاشية هداية: هذه حواشٍ على الهداية، كتاب شهير في الفقه الحنفي. تعرف الحواشي باسم "السقاية". تم طبعها مع الأصل.
14. قمر الأقمار: هذه حواشٍ على "نور الأنوار" وهو شرح لـ "منار" للشيخ أحمد الأميثوي المشهور بـ "الملا جيون" و"منار" كتاب للإمام النسفي في أصول الفقه. كافة هذه الكتب بالعربية وتوجد في شكلها المطبوع.
15. رسالة في رحلته إلى الحرمين: هذه مذكرته لرحلته للمواضع المقدسة في مكة والمدينة.

16. التعليق الفاضل في مسئلة الطهر المتخلل: هذه الرسالة في الطهر بعد الطمث. لغتها عربية وتم طبعها.

17. رسالة في تراجم علماء الهند.

18. التحقيقات المرضية: هذه تعليقات عربية على حاشية الملا زاهد الهروي على الرسالة القطبية لقطب الدين الرازي في المنطق. تم طبعها.

19. القول الأسلم لحل حاشية سلّم: هذه حواشٍ بالعربية على شرح سلّم للملا حسن. تم طبعها.

20. القول الأربعة في ردّ الشبهات المردة: رسالة بالعربية في المنطق.

21. كشف المكتوم: هذه تعليقات على حاشية عبد العلي بحر العلوم على كتاب الملا زاهد في المنطق. تم طبع هذه المؤلفات كلها.

22. القول المحيط فيما يتعلق بالجعل المؤلف والبسيط: رسالة بالعربية في المنطق. تم طبعها.

23. معين الغائثين في رد المغالطين: كتاب بالعربية في المنطق. تم طبعه من لكناؤ.

24. الإيضاحات لمبحث المخططات: كتاب بالعربية في المنطق. صدر من لكناؤ.

25. كشف الانتباه لحلّ حمد الله: هذه حواشٍ بالعربية على شرح سلّم لحمد الله. تم طبعها.

26. البيان العجيب في شرح ضابطة التهذيب: هذا شرح عربي لـ "ضابطة التهذيب". صدر من لكناؤ.

27. كاشف الظلمة في بيان أقسام الحكمة: كتاب في المنطق.

28. العرفان: كتاب في المنطق. تم طبعه.

29. الحاشية على حاشية القديمة الدوانية: هذه حواشٍ على حاشية جلال الدين الدواني على شرح شمسية المعروف بـ "قطب" لقطب الدين الرازي في المنطق. تم طبعها.

30. شرح شرح التجريد للقوشجي: كتب نصير الدين الطوسي (1201-1274ه) مؤلّفاً دراسياً في علم الفلك يسمّى "تجريد الكلام" شرحه علاؤ الدين علي بن محمد القوشجي (م 1474م) باسم "شرح القوشجي". قام كاتبنا الفاضل بشرح هذا الشرح باللغة العربية. قد تم طبع الشرح.

31.حاشية المصباح.

32.غاية الإدراك في مسائل السواك: كتاب بالأردوية في الفقه. تم طبعه.

33.تنبيه الضالين: رسالة بالأردوية في الفقه. تم طبعها.

34.توقير الحق: رسالة بالأردوية في الفقه. تم طبعها.

35.الإيضاحات: من دروس "شمسية" "المخططات" الذي شرحه هذا المؤلف باسم "الإيضاحات". تم طبعه.

36.حاشية مير قطبي: "مير قطبي" من مؤلفات الرازي سوى "القطبي". تم طبع هذه الحاشية عليه.

37.حاشية لواء الهدى: هذه حواشٍ على حاشية غلام يحيى على حاشية مير السيد شريف على "مبحث العلم" أحد أهم مباحث "قطبي". حواشي غلام يحيى تسمَّى "لواء الهدى" و"قطبي" شرح لـ "شمسية"، كتاب دراسي في المنطق لنجم الدين عمر بن علي. تم طبع هذه الآثار كلها.

38.نيل الأماني بالنكاح الثاني: كتاب بالأردوية في الفقه. تم طبعه من كانفور.

وبجانب هذه الأعمال القيمة ألّف الشيخ رسائل عديدة في مختلف الموضوعات. لم يولد لـه إلا العلامة عبد الحي الفرنغي محلي.[1]

8. **والشيخ عبد البارئ الفرنغي محلي:** ومن أبرز شخصيات هذا المعهد كذلك الشيخ عبد البارئ الذي غيّر مجرى تاريخ سياسة الهند بجانب براعته في العلوم والفنون. إنه خلق عاطفة التعاون في كفاح التحرير بين المسلمين والهندوس وتقريب المسلمين من الهندوس وهكذا فإنه برز كسياسي عالمي بجانب كونه عالماً كبيراً.

تعلّم الشيخ عبد البارئ على الشيخ عبد الحي والشيخ غلام أحمد البنجابي والشيخ عين القضاة والشيخ عبد الباقي وانطلق يدرّس منذ أيام دراسته. كان علماء فرنغي محل قبله يدرّسون في بيوتهم فلما جاء هذا قام بتأسيس "مدرسة نظامية" بمناسبة ميلاد الملا نظام الدين في 9/جمادى الأولى 1323ھ/1914م. تم القضاء على هذه المدرسة بعد استقلال الهند وهذا الشيخ أكثر علماء فرنغي محل تأليفاً بعد الملا بحر العلوم والشيخ عبد الحي فيذكر أنّ مؤلفاته تزيد على المائة في تراجم علماء فرنغي محل. معظم أعماله في التفسير والحديث والفقه والتاريخ، ينعاه الشيخ السيد سليمان الندوي بالكلمات التالية:

[1] تذكرة علماء فرنغي محل، ص129 ونزهة الخواطر 247/8

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنـــــــــيان قوم تهدّما

مما يؤسفنا أنّ القلم ينعى تمثال العلم والإخلاص الذي أكثر هذا العاجز في الثناء عليه مرات عديدة. كان الشيخ آخر قنديل من قناديل فرنغي محل للعلم والمعرفة --- كان الشيخ مرجعاً وحيداً بعد العلامة عبد الحيّ فكان جامعاً بين التدريس والتأليف، والنصح والمعرفة بجانب خدماته المخلصة للإسلام والمسلمين--- موته ليس بخسارة لفرنغي محل فحسب بل هو خسارة فادحة للإسلام والمسلمين"[1].

من أبرز أعماله تفسيره الشهير المفيد للقرآن، الذي لم يجد الفرصة لإتمامه وكذا تحقيق السير الكبير للإمام محمّد، الذي كان الشيخ في مرحلة إنهائه.

توفي الشيخ في يناير 1926م.

فهرس المصادر والمراجع

1. Contribution of Indo-Pakistan to Arabic Literature from Ancient Times to 1857 (مساهمة الهند والباكستان في الأدب العربي منذ قديم الزمان حتى 1857م)، لاهور، 1946 ثم 1968م.
2. ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، القاهرة، 1928م.
3. أبو الحسنات الندوي: هندوستان كي قديم درسغاهين (مدارس الهند القديمة) (بالأردوية): ويقال بك دبو، أمرتسر، نحو 1341هـ.
4. أبو الحسنات عبد الحي الفرنغي محلي: طرب الأماثل بتراجم الأفاضل (تحقيق: الدكتور غلام مرسلين)، مرطز الدراسات الآسيوية الغربية، جامعة عليكره الإسلامية، 1993م
5. أبو الفضل علامي: آئين أكبري (بالفارسية)، ترجمه إلى الأردوية: فدا علي، الجامعة العثمانية، حيدراباد، 1939م.
6. أبو القاسم فرشته: تاريخ فرشته (بالفارسية)، مطبع نول كشور، 1865م.
7. أبو يحيى إمام خان: تراجم علماء فرنغي محل، مطبع جيد الإلكتروني، دلهي.

[1] يادِ رفتغان، ص 56-57

8. أحمد الله البرهانبوري: تذكرة الأخيار في أسرار الأبرار (ترجمة أردوية)، مطبع فتح الكريم، بومبائي.
9. آشيروادي لال سريواستاوا: نوّابا أودھ الأوّلان.
10. أطهر المباركفوري: رجال السند والهند، مطبع الحجازية، بومبائي، 1958م.
11. أمير حسن السنجري: فوائد الفؤاد (بالفارسية)، مطبع نول كشور، لكناؤ، 1303ھ.
12. ج. ناتاراجان: A History of Indian Journalism (تاريخ الصحافة الهندية)، طبع وزارة الإعلام والنشر، حكومة الهند، أغسطس 1995م.
13. الجامعة العثمانية: طبقات كبير (ترجمة أردوية لـ "طبقات ابن سعد")، الجامعة العثمانية، حيدر اباد.
14. حبيب الرحمن القاسمي: تذكرة علماء أعظم كره (بالأردوية)، طبع الجامعة الإسلامية، بنارس.
15. حبيب الرحمن القاسمي:رسالة قطبية (بالفارسية)، توجد نسختها الخطية عند محمد رضا الفرنغي محلي.
16. حبيب الرحمن خان الشيرواني: علماء سلف (بالأردوية)، الجامعة الإسلامية، علي كره، 1921م.
17. خليق أحمد النظامي: حياة عبد الحق (بالأردوية)، ندوة المصنفين، دلهي، 1954م.
18. دائرة المعارف، مكتبة رضا، رامفور.
19. دار المصنفين: هندوستان كي مسلمان حكمرانون كي عهد كي تمدني تاريخ (تاريخ حضارة الهند خلال عهد السلاطين المسلمين) (بالأردوية)، مطبع معارف، أعظم كره، 1963م.
20. دورغا براشاد: بوستانِ أودھ (بالفارسية)، مطبع أحمدي، لكناؤ، 1982م.
21. رحمان علي: تذكرة علماء هند (بالفارسية)، مطبع نول كشور، 1914م.

22.سليمان الندوي: حياة شبلي (بالأردوية)، مكتبة معارف، أعظم كره، 1970م.

23.سليمان الندوي، السيد: مقالات سليمان (بالأردوية)، دار المصنفين، أعظم كره، 1970م.

24.السيد أحمد الشهير بـ "العلامة الهندي": وراثة الأنبياء (بالفارسية)، مطبع تصوير عالم، لكناؤ، جمادى الأولى 1326ھ.

25.السيد أحمد المعروف بـ "العلامة الهندي". حياة رضوان مكان (بالأردوية)، مطبع تصوير عالم، لكناؤ، 1336ھ.

26.السيد أحمد المعروف بـ "العلامة الهندي": حياة فردوس مكان (بالأردوية)، مطبع تصوير عالم، لكناؤ، 1924م.

27.السيد إعجاز حسين: كشف الحجب والأستار عن أسماء الكتب والأسفار، مطبع كلكته، 1330ھ.

28.السيد آغا مهدي: تاريخ لكناؤ (بالأردوية)، طبع كراتشي، 1976م.

29.السيد سليمان الندوي: يادِ رفتغان، دار المصنفين، أعظم كره، 2000م

30.السيد عماد الدين بن المفتي السيد عبد الفتاح: تاريخ الأولياء (بالأردوية)، مطبع مرغوب هرديار، بومبائي، 1291ھ.

31.السيد محمد بن مبارك الكرماني الشهير بـ "أمير خورد": سير الأولياء (بالفارسية)، مطبع تشيرانجي لال محبّ هند، دلهي، 1302ھ.

32.السيد محمد هادي بن المفتي عباس: وضعدارانِ لكناؤ (بالأردوية)، مطبع تصوير عالم، لكناؤ، 1908م.

33.السيد نور الله وج.ب. نايك: تاريخ تعليم هند، ترجمه إلى الأردوية: مسعود الحق، مكتبة الجامعة، أغسطس 1973م.

34.شاه نواز خان: مآثر الأمراء (بالفارسية)، المؤسسة الآسيوية، كلكته، 1980م.

35.شبلي النعماني: مقالات شبلي (بالأردوية)، دار المصنفين، أعظم كره.

36.ضياء الدين برني: تاريخ فيروز شاهي (بالفارسية)، المؤسسة الآسيوية، كلكته، 1862م وجامعة علي كره الإسلامية، علي كره، 1957م.

37. عبد الباري الفرنغي محلي: آثار الأوَل، مطبع مجبتائي، لكناؤ.
38. عبد الباري الفرنغي محلي: تذكرة فرنغي محل (بالأردوية)، توجد نسخته الخطية عند محمد رضا الفرنغي محلي.
39. عبد الباقي النهاوندي: مآثر رحيمي (بالفارسية)، مطبع التبشير المعمداني، كلكته، 1925م.
40. عبد الحق المحدث: أخبار أخيار (بالفارسية)، مطبع مجبتائي، دلهي، 1309هـ.
41. عبد الحليم الندوي: مراكز المسلمين التعليمية والثقافية في الهند، مطبع نوري المحدّد، مدراس.
42. عبد الحليم شرر: غذشته لكناؤ (لكناؤ الماضية) (بالأردوية)، نسيم بك دبو، لكناؤ.
43. عبد الحي الحسني: الثقافة الإسلامية في الهند، ندوة العلماء، لكناؤ.
44. عبد الحي الحسني: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، دائرة المعارف، حيدر اباد.
45. عبد الحي الفرنغي محلي: الفوائد البهية، مطبع مصطفائي، لكناؤ، 1293هـ.
46. عبد السلام الندوي: شعر الهند (بالأردوية)، مطبع معارف، أعظم كره، 1954م.
47. عناية الله الفرنغي محلي: تذكرة علماء فرنغي محل، مطبع إشاعة العلوم، لكناؤ.
48. غلام حسين الطباطبائي: سير المتأخرين (بالفارسية)، مطبع نول كشور، 1894م.
49. غلام علي آزاد البلغرامي: سبحة المرجان في آثار هندوستان، بومباي، 1885م.
50. غلام علي آزاد البلغرامي: مآثر الكرام (بالفارسية)، مطبع مفيد عام، آغره، 1910م.
51. غلام علي خان: عماد السعادة (بالفارسية)، مطبع نول كشور، 1864م.

مجلة الهند

52.غوستاف لوبون: حضارة الهند، ترجمه إلى العربية: عادل زعتر، دار إحياء كتب العربية، حلب.

53.فهرس الكتب الفارسية والعربية، مكتبة كلكته القومية.

54.فهرس الكتب المطبوعة، مكتبة الناصرية، لكناؤ.

55.فهرس الكتب المطبوعة، مكتبة رضا، رامفور.

56.فهرس المخطوطات، مكتبة الناصرية، شاستري ناغار، لكناؤ.

57.فهرس كتب ندوة العلماء المطبوعة والمخطوطة (الأردوية والفارسية والعربية)، لكناؤ.

58.كمال الدين زائر: سوانح حيات سلاطينِ أودھ (بالأردوية)، مطبع نول كشور، أكتوبر 1896م.

59.مجلة "النصير" هذه مجلة شهرية تصدر من لكناؤ.

60.مجلة "معارف" أعدادها العديدة. هذه مجلة شهرية تصدر من دار المصنفين، أعظم كره.

61.محمد إدريس النغرامي: تذكرة علماء حال (بالأردوية)، مطبع نول كشور، لكناؤ، 1897م.

62.محمد أيوب القادري: تذكرة علماء هند (ترجمة أردوية لـ "تذكرة علماء هند")، المؤسسة التاريخية، كراتشي.

63.محمد باقر شمس: لكناؤ كي علمي تاريخ (تاريخ لكناؤ العلمي) (بالأردوية)، طبع كراتشي، 1970م.

64.محمد بن صادق: نجوم السماء في تراجم العلماء (بالفارسية)، مطبع جعفري، لكناؤ، 1297ھ.

65.محمد حسين النوغنوي: تذكرة بي بها (بالأردوية)، مطبع جيد الإلكتروني، بلي ماران، دلهي.

66.محمد حنيف الغنغوهي: ظفر المحصّلين بأحوال المصنِّفين (بالأردوية)، حنيف بك دبو، ديوبند، 1980م.

67.محمد حنيف الغنغوهي: قرة العيون في تذكرة الفنون (بالأردوية)، حنيف بك دبو، ديوبند، 1398ھ.

68.محمد رضا الأنصاري الفرنغي محلي: بانئ درس نظامي (مؤسَّس المنهاج الدراسي النظامي) (بالأردوية)، مطبع نامي، لكناؤ، 1973م.

69.محمد رضي الدين البدايوني بسمل: تذكرة الواصلين (بالأردوية)، مطبع منشي غلام سينغ وأولاده، 1899م.

70.محمد فريد الوحدي: كنز العلوم واللغات، مصر، 1323هـ.

71.محمد مسعود البكري: تاريخ سند المعروف بـ "تاريخ معصومي" (بالفارسية)، مطبع قيمة، بومباي، 1938م.

72.مرآة العلوم (في 3 مجلدات)، مطبع صادق بور، بتنه، 1918م.

73.مفتاح كنوز الخفية (في 3 مجلدات)، طبع بتنه.

74.الملا عبد القادر البدايوني: منتخب التواريخ (بالفارسية)، مطبع الكلية، كلكته، 1868م.

75.مناظر أحسن الغيلاني: نظامِ تعليم وتربيت (بالأردوية)، ندوة المصنفين، دلهي، 1966م.

76.المنجد، جزءه الثاني، بيروت.

77.مير أفسوس: آرائشِ محفل (زينة المحفل)، أنجمن ترقي أردو هند، 1950م.

78.ميرزا رجب علي بيغ سرور: فسانه عجائب (بالأردوية)، صدرت لـه طبعات عديدة.

79.ميرزا محمد حسن المعروف بـ "علي محمد خان بهادر": مرآة أحمدي (بالفارسية)، مطبع التبشير، كلكته، 1928م.

80.ن.ن.لا: Promotion of Mohammaden Learnings in India during the Mohammaden Rule (تطور الدراسات المحمدية في الهند خلال الحكم المحمدي).

81.نجم الغني الرامبوري: أخبار الصناديد (بالأردوية)، مطبع نول كشور، لكناؤ، 1918م.

82.نجم الغني الرامبوري: تاريخ أودھ (بالأردوية)، مطبع نول كشور، 1919م.

83.نظامي البدايوني: معجم المشاهير (بالأردوية)، مطبع نظامي، بدايون، 1926م.

84.ولي الله الفرنغي محلي: أغصان أربعة (بالفارسية)، مطبع كارنامه، لكناؤ، 1298هـ.

85.وليم نيعتون: شباب لكناؤ، ترجمه إلى الأردوية: عبد الأحد، طبع لكناؤ.

86.يحيى بن جابر البلاذري: فتوح البلدان، ترجمة إلى الأردوية: السيد أبو الخير المودودي، الجامعة العثمانية، حيدر اباد، 1940م

ترجمة بويز ماثر الإنجليزية لأبيات "ألف ليلة وليلة"، دراسة نقدية

- د. أورنك زيب الأعظمي

من كتب القصص ومجموعاتها العربية التي لفتتْ أنظارَ الكتّاب والباحثين كتابُ "ألف ليلة وليلة" فقد قام العديد منهم بترجمته إلى لغاتهم كما قاموا بتلخيصه واصطباغه بصبغة الرواية. ومن بين هذه الكثرة الكاثرة من الكتّاب والمترجمين نجد اسماً عالياً لبويز ماثر (Powys Mathers) الذي قام بترجمته إلى الإنجليزية بعنوان " The Book of the Thousand Nights and One Night" وصدرتْ هذه الترجمة في أربعة مجلدات ضخمة عن مطبعة Routledge & Kengan Paul Ltd بلندن، وتوجد عندي طبعتها الثانية التي ظهرت في 1964م.

يبدو من دراسة هذه الترجمة أنها تحتاج إلى الإعادة بصورة واعية فإنّ فيها أنواعاً من النيل بعزة المسلمين بجانب الكثير من الأخطاء اللغوية والأسلوبية والأدبية. وإنْ أردنا الحديث عن ترجمة المنثور والنقاش حوله فلا يكفيه مقالة أو مقالتان بل نحتاج إلى تأليف كتاب ضخم لأداء حقّ الموضوع فنقصرُ كلامنا على ترجمة المنظوم فحسب.

ترجمة الشعر أمر صعب اختلف في أسلوبها أهل اللغة والأدب فرأى بعضهم أنّ الشعر لا ينقل إلا مراده ومعناه ورأى الآخر أنّ الشعر تجب ترجمته حرفاً حرفاً كما هناك جماعة تدلي برأي مقتصد وهو اعتناء الكلمات والأساليب في ترجمة الشعر إلى حدّ لا يخلّل المعنى ولا يفيت المفهوم.

ولانتقاد ترجمة بويز الإنجليزية لأبيات "ألف ليلة وليلة" قسمناها في الأنواع التالية:

(أ) **الترجمة المعنوية:** ومن أنواع الترجمات التي تم استخدامها في هذه الترجمة هي الترجمة المعنوية فمثلاً جاء في الأصل ما يلي من البيتين:

ميمونة من سمات العقل عارية لكن أبوها من الألباب قد خلقا
لم يمش في يابس يوماً ولا وحل إلا بنـور هُــداه يتقي الزلـقا[1]

قال ماثر في ترجمتهما:

Although Maimūnah was a fool
Her father kept the golden rule;
He had a torch to guide his feet
Through all the perils of the street.[2]

وكذا جاء في الأصل ما يأتي:

نصحت فلم أفلـح وخـــانوا فأفلحوا وأورثني نصـــحـي لدارِ هــوانِ
فإنْ عشت لم أنصح وإن متُّ فالعنوا ذوي النصح من بعدي بكلّ لسانِ[3]

يترجمهما ماثر قائلاً:

Fools take the prize
And cruelty lives on,
While wisdom dies
And kindness is undone.
If I come free
I'll swear to change my ways,
And practise ignorance and cruelty
Through all my days.[1]

---

[1] ألف ليلة وليلة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1914م، 31/1
[2] The Book of the Thousand Nights and One Night، 33/1
[3] ألف ليلة وليلة، 31/1

وأذكر مثالاً آخر حيث قام المترجم بترجمة معنوية وشاب جانبَه شيئ من الحرية فجاء في الأصل:

عدمت وجودي في الورى بعد بعدكم فإنّ فؤادي لا يحبّ سـواكم
خـذوا أعظمي والروح أين سريتم وأين حللتم فادفنـوني حـذاكم
ونادوا باسـمي عند قبـري يجبكم أنين عظامي عند إصغا صداكم[2]

قال ماثر في ترجمتها:

When you passed on by my tent door
I said goodbye to all the world,
Forgetting how to love for ever more
When you passed on

If you come back the way you went
I pray you take my body up,
And set it in a calm grave near your tent
When you come back.

If your dear voice recall the tones,
The sweetness of the way you said my name,
Kneel down, dear love, and say the same;
I'll answer with the clicking of my bones.[1]

---

[1] The Book of the Thousand Nights and One Night، 33/1
[2] ألف ليلة وليلة، 43/1

(ب) **الترجمة الأدبية:** والمراد من الترجمة الأدبية عندي الترجمة الصحيحة الجميلة المؤدية المعنى بصورة أدبية فقام المترجم بترجمة الأبيات المذكورة في الأصل ترجمة أدبية رائعة تلفت الأنظار وتجذب القلوب فقال-مثلاً- في ترجمة الأبيات التالية:

سمت الفضـــائل إذ دُعيت لها أبا وإذا دعت يوماً ســـواك لها أبا
يا صاحب الوجـــــه الذي أنواره تمحو من الخطب الجسيم غياهبا
ما زال وجهك مشـــــــرقاً متهلّلاً كي لا نرى وجه الزمـان مقطبا
أوليتني من فضـــــلك المنن التي فعلت بنا فعل السحـاب مع الربا
وصرفتَ جلّ المال في كلب العلا حتى بلغت من المعـالي مأربا[2]

قال ماثر في ترجمتها:

O chosen father of the sweet speech of the kings,

Bright burning face that cools the red of the fire,

Face of young light, that shall behold undimmed

Time putting wrinkles in the face of time,

As a cool cloud covers a parched hill

So you have covered me over with love-presents,

Who are yourself the peak of glory's hill,

Destiny's darling. She can refuse you nothing.[3]

وكذا جاء ما يلي:

إنْ عدت عدنا وإنْ وافيت وافينا وإنْ هجـرت فإنّا قد تكافينا[4]

---

[1] The Book of the Thousand Nights and One Night، 45/1
[2] ألف ليلة وليلة، 25/1
[3] The Book of the Thousand Nights and One Night، 26/1
[4] ألف ليلة وليلة، 35/1

يترجمه ماثر كما يلي:

Come back and so will we,

Keep faith and we'll keep faith,

But if you show us treachery

It shall be to your scathe.[1]

ولنا مثال آخر لمثل هذه الترجمة فجاء في الأصل:

سـافر تجدْ عـوضاً عمّن تفارقه وانصب فإنّ لذيذ العيش في النصب
ما في المقـرّ أرى عزّاً ولا إرباً سـوى العنا فدع الأوطان واغتـرب
لإني رأيت وقوف المـاء يفسـده إنْ ساح طاب وإنْ لم يجـرِ لم يطب
والبدر لولا أفول منه ما نظـرت إلـيه في كلّ حين عيـن مرتقـب
والأسد لولا فراق الغاب ما اقتنصت والسـهم لولا فراق القوس لم يصب
والتبر كالترب ملقَى في معـادنه والعـود في أرضه نوع من الحطب
فإنْ تغرّب هذا عـزّ مطلبه وإنْ تغـرّب ذاك زاد في الذهـب[2]

يقوم ماثر بترجمتها الأدبية البليغة كما يلي:

Go out from the city;

There are friends and life

In being under black tents.

Let your soul

Take root in the brown earth

---

[1] The Book of the Thousand Nights and One Night، 38/1

[2] ألف ليلة وليلة، 121/1

And make your friends of strangers.

Is not water rotten
Until it wanders?
Is the moon remarkable
Until it wanes?

What virtue has a lion in the wood;
Or an arrow
Hiding against the bow?

What is gold in the rock;
Or aloe-wood in the tree?

Go out from the city;
There are friends and life
In being under black tents.[1]

(ج) **الترجمة التلخيصية:** وكذا نجد من بين هذه الترجمات ترجمة ليست طبق الأصل بل هي تلخّص ما احتواه الأصل فمثلاً ذكرت الأبيات التالية:

يا خائضاً في ظلام الليـــل والهلكه اقصر عناك فليس الرزق بالحركه

[1] The Book of the Thousand Nights and One Night، 1/128-129

أما ترى البحـــر والصيّاد منتصباً لرزقه ونجـــوم الليـــل محتبكه
قد خاض في وسطه والموج يلطمه وعينـه لم تزل في كلكل الشبـــكه
حتى إذا بات مســـــــروراً بليلته بالحوت قد شقّ سفُّودُ الردى حنكه
ابتـــــــاعه منه مَن قد بات ليلته خلواً من البرد في خير من البركه
سبحان ربّي يعطي ذا ويحـــرم ذا هذا يصيد وهذا يأكل الســـمكه[1]

قال ماثر في ترجمتها:

Blind diver in the dark
Of night and loss,
Luck delights not in energy;
Cease, and be still.[2]

وذكرت الأبيات التالية في الكتاب:

هو الرزق لا حلّ لديك ولا ربـــط ولا أدب يعطيـــك رزقاً ولا خـطّ
ولا الخـــــطّ والأرزاق إلا مقسَّمٌ فأرضٌ بها خصب وأرض بها قحط
تحطّ صروف الدهـــــر كلّ مهذّب وترفـــع من لا يستحـقّ له الحـطّ
فيا موت زُر إنّ الحيـــــــاة ذميمة إذا انحطّـت البـازات وارتفــع البطّ
فلا عجبـــاً إنْ كنت عاينت فاضـلاً فقيـــراً وذا نقــصٍ بدولته يسـطو
فطيرٌ يطوف الأرض شرقاً ومغرباً وآخـر يعطي الطيّبـات ولا يخـطو[3]
يخـطو[3]

يترجمها ماثر قائلاً:

Be not astonished that the golden wind
Blows the world forward, leaving you behind;

---

[1] ألف ليلة وليلة، 18/1
[2] The Book of the Thousand Nights and One Night، 20/1
[3] ألف ليلة وليلة، 19/1

There are no dinars in a rose-wood pen

For any but a merchant's hand to find.[1]

ولنا أمثلة كثيرة حيث قام المترجم بترجمة تلخيصية.

(د) **الترجمة المتروكة:** ومن بين هذه الترجمات المنظومة نجد نوعاً منها حيث تركت ترجمة الأبيات أو حذف الأصل فمثلاً جاء في الأصل أنّ التاجر بكى وأنشد الأبيات التالية عندما أيقن أنّ العفريت عازم على قتله:

الدهـــــر يومان ذا أمن وذا حـــذر والعيش شطران ذا صفو وذا كـدر
قل للذي بصروف الدهـــر عيّــرنا هل عاند الدهـــر إلا من له خطـــر
أما ترى الريح إن هبّت عواصـــفها فليس تعصف إلا ما هو الشجـــــر
وما ترى البحـــر تعــلو فوقه جيف وتستقرّ بأقصى قعـــــــــره الدرر
فإن تكن عبثت أيدي الزمـــــان بنا ونالنا من تمادي بؤسه الضـــــرر
ففي السماء نجـــوم لا عـــداد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمـــر
وكم على الأرض من خضر ويابسة وليس يُرجَـــم إلا ما له ثمـــــر
أحسنت ظنّك بالأيـــام إذ حسنت ولم تخف ســوء ما يأتي به القـدر[2]

القـدر[2]

وبعد إنشاد الأبيات ذكر كونه صاحب دين ومال وأولاد وزوجة ورهون.

يترجمها ماثر كما يلي:

--- but suddenly an enormous Ifrīt appeared who approached him, brandishing a sword and crying: Rise up, that I may slay you as you have been slain my child --- then said the merchant to the Ifrīt: 'Know, O great Ifrīt, that I am a Believer and know not how to lie. Now I have many riches

[1] The Book of the Thousand Nights and One Night، 20/1
[2] ألف ليلة وليلة، 8/1

and children and a wife, also I have at my home deposits which have been trusted to me.[1]

لا نجد من بين هذه العبارات أي ترجمة منظومة أو منثورة للأبيات التي جاء ذكرها من قبلُ.

ولنا مثال آخر لهذه الدعوى، جاء في الأصل:

ثم إنه سمّى الله ورمى الشبكة في البحر وصبر إلى أنْ استقرّت وجذبها فلم يطق جذبها وإذا بها اشتبكت في الأرض فقال لا حول ولا قوة إلا بالله ثم أنشد:

أفّ للدنيـــــــــا إذا كانت كذا أنا فيهـــــــــا في بلاء وأذى
إنْ صفا عيش امرئ في صبحها جرّعته ممســـــــياً كأس الردى
ولقد كنتُ إذاما قيـــــــل مَنْ أنعمُ العالمِ عيشاً قيـــــــل ذا

ثمّ تعرّى وغطس وصار يعالج حتى أخرجها إلى البرّ وفتح الشبكة ----.[2]

يترجمها ماثر قائلاً:

After this, he once more cast his net into the sea, again invoking the name of Allah, and waited for it to sink. This time, in spite of all his efforts, he could not move the net an inch, so hard was it held against the rocks below the water. Again he undressed, crying: Be it as Allah wills![3]

فحذف الأصل في الترجمة فلم يقم بها لا منظومة ولا منثورة.

وهناك أمثلة عديدة في الكتاب المترجم تثبت ما ادّعينا.

(ه) **المنظومات التي لا توجد في الكتاب:** قام المترجم بكتابة المنظومات الإنجليزية التي لا يوجد أصلها في الكتاب فمثلاً يقول المترجم مصوّراً شخص الفتاة المطلوبة:

---

[1] The Book of the Thousand Nights and One Night، 10/1
[2] ألف ليلة وليلة، 19/1-20
[3] The Book of the Thousand Nights and One Night، 21/1

She comes, a torch in the shadows, and it is day;

Her light more brightly lights the dawn.

Suns leap from out her beauty

And moons are born in the smiling of her eyes.

Ah, that the veils of her mystery might be rent

And the folk of the world lie ravished at her feet.

Forced by the great light of her sweet glancing

Wet tears smart forth from every watching eye.[1]

وهذه الصورة لا توجد في الكتاب[2] وكذا قال المترجم ناظماً كما يلي:

She has overthrown

A thousand forts of steel and stone

Calling 'My own!'

Her eyes are black decoys,

Her hairs are hunting-nets for boys;

But she names them joys.[3]

وهذه أيضاً لا توجد في الأصل[4].

(و) **الترجمة المزيد فيها:** وكذا نجد أنّ المترجم يزيد الأصل كلاماً وحديثاً ولو أنه يلائم الموضوع ولكنه يخالف أصول الترجمة كما يخلق في ذهن

---

[1] المصدر نفسه، 4/1

[2] ألف ليلة وليلة، 2/1

[3] The Book of the Thousand Nights and One Night، 3/2

[4] ألف ليلة وليلة، 165-164/2

القارئ الخالي الذهن جوّاً غير جوّ الكتاب ذاته. فقال المترجم-مثلاً- في ترجمة الأبيات التالية:

لا تأمنْ إلى النســـــا ء ولا تثـق بعهــودهنّ
فيُـــرين ودّاً كاذبـــاً والغـدر حشـوَ ثيابهنّ
بحديث يوسف فاعتبر ستراه بعض خدوعهنّ
أوما رأيتَ أبـــاك آدم خارجـــاً من أجلهنّ[1]

Friend, trust not at all in women, smile at their promising,

For they lower or they love at the caprice of their parts.

Filled to the mouth with deceit, they lavish a lying love

Even while the very floss fringing their silks is faithless.

Respect and remember the words of Yusuf. Forget not

Iblis worked all Adam's woe with one woman.

Rail not, my friend. At this house, at whom you are railing,

Mild love tomorrow will give place to madness.

Say not: "If I love, I'll escape the follies of loving,"

But rather:"Only a miracle brings a man safe from among them."[2]

فالترجمة المنظومة من "--- Rail not" حتى "among them" لا يوجد أصلها في الكتاب وقال في موضع آخر من هذه الترجمة وهو يترجم البيتين التاليين:

ردّوا على جفني النوم الذي سلب وخبّروني بعقلي أينما ذهبـــا

[1] المصدر نفسه، 3/1

[2] The Book of the Thousand Nights and One Night، 5/1

مجلة الهند

علمت لمّا رضيتُ الودّ منـــزلة إنّ المنام على جفني قد غضبا[1]

يترجمهما ماثر قائلاً:

Love at my door
Knocked and I gave him bed.
When sleep saw this
He took offence and fled.
'Give me back sleep;
Where has he gone?' I said.

They said: 'Our friend
That kept the sure straight way,
Who has done this
To send you so astray,
To lead you blind
Into the sand?' said they.

I said: 'Not I'
But she must answer make.
I could but cry:
My blood, which is hers to take,

[1] ألف ليلة وليلة، 55/1

Lies heavily
Not spilled yet for her sake.

I chose a girl
To put my thought in her;
She is my thought,
My thought's her imager;
Now she is gone
Fire is my comforter.

See for yourselves!
Even Allah like a lover
From molten threads
Of the syrup of life wove her;
Then made all gems
And fruits with what was over'.

But they said: 'Fool,
Small joy and, for the rest,
Torture and tears
And hugging to the breast

Shades on a pool.
The first drink is the best.’

‘If I am drunk
I came not so by drinking
It was enough
To see the ruby winking
There in the glass—
Sleep was it too, I’m thinking.

It’s not that time
Has passed, but that so has she,
It’s not that love
Won’t last, but that nor will she,
Not that life’s gone,
But that she’s gone from me.

My soul is bound
By the scents of her body,
Jasmine and musk
And rose of her body,

Amber and nard,

The scents of her body.'[1]

فالترجمة من "they said" حتى "her body" لا يوجد أصلها في المنظومة.

(ز) **الترجمة المبدّلة:** المراد من الترجمة المبدّلة عندي هي الترجمة المنظومة التي وُضعتْ من قبل المترجم ثم أقيمتْ مقام الأصل فمثلاً جاء في الكتاب:

حضوركم لنا شرف ونحن بذاك معترف

فإنْ غبتم فلا عوض لنا عنكم ولا خلف[2]

يبدّلهما المترجم بمنظومة أخرى صنعها هو نفسه:

Even the stones of which the house is made

Rejoiced when they had heard that you were coming;

And when you came they bowed and swayed

Behind your steps and made a pleasant humming,

Stone rubbing against stone with this whisper:

She's here, she's here, she's here, she's here, she's here![3]

وجاء في مكان آخر ما يلي:

كأنّ طـــــرّتها من فوق غرّتها ليل الهموم على صبح المسرّات[4]

يبدّله المترجم بما يأتي من المنظومة:

He is so dear, we might surmise

---

[1] The Book of the Thousand Nights and One Night، 60/1

[2] ألف ليلة وليلة، 49/1

[3] The Book of the Thousand Nights and One Night، 113/1

[4] ألف ليلة وليلة، 105/1

That every heart

Would surely break apart,

And when he fixed it with his eyes

The broken heart go up in ardencies.

He is so fair, we could aver

That Allah had

Made him, and we could add

That even on such a Jeweller

Such making did a certain fame confer.[1]

وجاء في موضع آخر في الكتاب:

دام لك الإنعام يا ســـيدي ودمت ما دام الضحى والمسا

وعشت ما غرّد طيرٌ وما غنّت على أغصانها الورقا[2]

يبدّلهما المترجم بما يلي من منظومة من عنده:

Each thing he does is a new pearl to bless

The holy throat of his bride, Righteousness;

And if my lips adventure to his hand

They kiss the five white keys of happiness[3]

[1] The Book of the Thousand Nights and One Night، 113/1

[2] ألف ليلة وليلة، 124/1

[3] The Book of the Thousand Nights and One Night، 133/1

(ك) **الترجمة المختلفة:** ومن أعجب ما عثرتُ عليه من أنواع الترجمة في هذا الكتاب المترجم هي الترجمة المختلفة أي ترجمت منظومة واحدة باختلاف في مختلف الأماكن وهذا يفتح باباً للنقاش فمثلاً جاء:

ومهفهف من شعـــره وجبيـنه تمسي الورى في ظلمة وضياء
لا تنكروا الخـــال الذي في خدّه كلّ الشـــقيق بنقــطة سـوداء[1]

يترجمهما ماثر كما يلي:

Sweet and slim is the boy

With hair of shadows paling the night

And a brow of light

Making the stars seem grey.

My eyes have turned his way

And found a joy

Of which I dare not speak

In a nut-brown beauty spot

Which he has got

Below his dark eye on his rose-leaf cheek.[2]

وكذا لهما ترجمة أخرى ذكرت في الكتاب كما يلي:

Drink at his mouth,

Forgetting the full red cups and reeling bowls.

---

[1] ألف ليلة وليلة، 39/1

[2] The Book of the Thousand Nights and One Night، 41/1

Drink at his eyes,

Forgetting the purple scent of the vine.

Drink at his cheeks,

Forgetting the life of roses poured in crystal.

Drink at his heart,

Forgetting everything.[1]

وجاء في موضع من الكتاب:

حتى متى هذا الصـدود وذا الجفا فلقد جرى من أدمعي ما قد كفـى

فلكم تطيل الهجـــــر لي متعمّداً إنْ كان صدَّك حاسدي فقد اشتفى[2]

يترجمهما ماثر قائلاً:

If you desire these sweet fain limbs of mine

To comfort you like wine,

Turn not aside;

But if you lust after my misery,

My torment, and not me,

Be satisfied.[3]

ولهما ترجمة أخرى فيما يلي:

---

[1] المصدر نفسه، 133/1

[2] ألف ليلة وليلة، 45/1

[3] The Book of the Thousand Nights and One Night، 47/1

Cease this parting as of years,
I have no more tears.

Your absence is no longer needed,
It has succeeded.

Men have the months and years always,
Women but a day.

How shall I call a murder on
You, when the body's nearly gone
That showed what you had done?

How cry a debt when the wet
White cheek hardly remaineth yet
Where was written the debt?

My sighs fan up your flame,
That would be well if the game
You hunted were still the same.

Mussalmans, make a feud,

Cover him with the rude

Hates of multitude.

Yet do not—for all that he

Felt of your cruelty

Would be felt by me.

Rather crush me beneath your feet

And he'll not feel his pulses beat

At the other side of the street.[1]

وبجانب هذه الأنواع المختلفة التي تم ذكرها في المقالة أودّ أنْ أشير إلى الأخطاء والزلات التي وردت في ترجمة أبيات الكتاب فمثلاً أنّ المترجم يقوم بترجمة الأبيات التي مدح بها الحكيم ملك زمانه فقال:

إذا لم أقم في بعض حقّك بالشكـــر فقل لي لمن أعددت نظمي أو نثري

لقـــد جدتَ لي قبل السـؤال بأنعم أتتني بلا مطل لديك ولا عـــــــذر

فما لي لا أعطي ثنـــــــاءك حقّه وأثني على جدواك في السرّ والجهر

سأذكـــــر ما أوليتني من صـــنائع يخفّ بها همّي وإنْ أثقلت ظهري[2]

فترجم ماثر "كلمة الخطاب" في كلّ مكان بـ"Him"[1] بتجلية حرف "H" وتجلية الحرف كهذا لا يدلّ إلا على أنّ الكلمة تمّ استخدامها لله جلّ مجده والحال أنها استخدمت للملك فقط.

---

[1] المصدر نفسه، 1/62-63

[2] ألف ليلة وليلة، 1؟30

وجاء في الكتاب:

لقد كتب الدهر فضل الكرام وفضـــــــــلك للآن لا يُكتتبْ

فلا أيتـــــم الله منك الورى لأنك للفضـــــــــل أمٌّ وأبْ[2]

يترجمهما ماثر كما يلي:

The Giver has been sung since time was new

But Givers with a hand like yours are few,

So first and foremost we will look to God

And when He fails us we will look to you[3]

فكأنّ النصّ يسير في وادٍ والترجمة تهيم في وادٍ آخر.

الختام: وبالجملة فلو أنّ بويز ماثر قام بمحاولة مضنية في ترجمة أبيات "ألف ليلة وليلة" الإنجليزية، وقد ازداد جهده هذا تعباً على تعب حيث قام المترجم بصياغ تلك الترجمة في أجمل الأبيات وأروعها ولكنها في معظم الأحيان باطلة ومضلّة وتحتاج إلى إعادة النظر فيها، والنماذج السالفة الذكر شاهدةُ عيان على ذلك.

---

[1] The Book of the Thousand Nights and One Night، 32/1

[2] ألف ليلة وليلة، 75/1

[3] The Book of the Thousand Nights and One Night، 81/1

حيـــاتي[1]

- أبو محفوظ الكريم معصومي

تخريج: رافعة إكرام

هذا المفتقر حياً وميتاً إلى رحمة الله ومغفرته، ولد يوم الحادي والثلاثين من يوليو سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة وألف (1931) ميلادية.

محلتي التي ولدت بها تسمّى (مهوا توله[2]) أو (سراي) من محلات مدينة (بهار شريف) العتيقة التي سمّيت بها مقاطعة (بهار) الواقعة بين مقاطعتي (أوترابراديش) و(غرب البنغال) وقد ذكرها العلامة الشريف مرتضى الزبيدي البلجرامي في تاج العروس (ج 3 ص 64) مستدركاً بها على (القاموس المحيط) لمجد الدين الفيروزآبادي.

أما كلمة (مهوا) بفتح الميم وسكون الهاء وفتح الواو وسكون الألف فقد وقف عليها ابن بطوطة المغربي الرحالة الشهير في رحلته فضبطها وفسّرها. وهي شجرة كبيرة من أشجار الهند، لها ثمر يؤكل طيب الراحة، شديد الحلاوة عند النضج، يتخذون من أثمارها وأزهارها نوعاً من الخمر. وكلمة (توله) بضم التاء الحاكية لصوت (T) الإفرنجية وسكون الواو وفتح اللام وسكون الهاء، معناها البقعة أو المحل. و(سراي) كلمة فارسية الأصل، معناها الرباط حيث ينزلون في أثناء رحلتهم الواسعة.

أما (بهار) فأصلها (وهار) بالواو المفتوحة، لكنها انقلبت على الألسنة بكسر الباء التحتانية الموحدة، والمعنى مدرسة البوذيين وزاوية مراقباتهم. وكانت إحدى مدارسهم القديمة في مدينة (بلخ) من بلاد الأفاغنة، تسمّى (نَوَا وَهارا) أي الوهار الجديد ثم انقلبت معبداً للمجوس ومركزاً للنار التي تعبدوا لها فصارت (نوبهار) وكانت سدانتها منذ البداية إلى البرامكة قبل اعتناقهم للإسلام.

---

[1] هذه الترجمة نشرت في "بحوث وتنبيهات" (مجموع مقالات المعصومي) بعنوان "ترجمة المؤلف بقلمه" ولكني غيّرته لأنها تنشر هنا على حدة. (الأعظمي)

[2] Mahuwa Tola

ينتمي أبواي إلى أسرتين معروفتين بالدين والتقى وكانت أسرة أمي الكريمة تنزل محلة (خاص كنج[1])، وهي غير بعيدة من محلة آبائي، يحول بينهما شارع كبير متواصل من مدينة (بانكي فور[2]) أو (عظيم آباد) إلى مدينة (رانشي[3]) الجبلية التي لا تزال رصيفاً لحاكم المقاطعة مند بدء حكومة الإنكليز حتى الآن بعد التحرر. لقد عاش جدي الشيخ محمد معصوم (رحمه الله) ذا عناية كبيرة بتربية أولاده ذكراناً وإناثاً على مستوى ديني رفيع. فربّاهم طراً تربية إسلامية قويمة وأرشدهم مهما استطاع إلى التحلي بعلوم الكتاب والسنة ونهاية الاعتناء بصالح الأعمال مع التوقي من زخارف الدنيا الفانية الخلابة. وبالإشارة إليه اخترنا نسبة (المعصومي) الملحقة بآخر أسمائنا.

كان أبي مولانا محمد أمير حسن بن الشيخ محمد معصوم، رحمهما الله تعالى، خامس إخوانه الستة وقد حصل على العلوم الإسلامية إلى بعض أبواب كتاب مختصر المعاني للتفتازاني في المدرسة الإسلامية في مدينة (بهار شريف) ثم سافر إلى مدينة (إله آباد) من عواصم مقاطعة (أوترا برديش) وانتسب إلى المدرسة السبحانية بها، فزامله ثلاثة آخرون منهم مولانا أبو المحاسن محمد سجاد، وهؤلاء الأربعة هم الطبقة الأولى للمتخرجين على الشيخ القدوة مولانا عبد الكافي وأعوانه في التدريس بهذه المدرسة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف هجرية. واختبرهم على رؤوس الملأ أعلام العلماء إذ ذاك. ولما جاءت نوبة أبي أعجب به أحد المختبرين العلامة الكبير مولانا أبو الخير محمد عبد الوهاب السربهدوي، إعجاباً شديداً، حتى كتب على ورقة الشهادة قطعة ارتجلها في وصف هذا الطالب ثم أثبت توقيعه عليها وهي بنصها وفصها كما يلي:

تلألأ في الدجى بدر منـــــير وفي الأفلاك فوق النور نور
أضاء بضوئه صفحات دهــر وفي لمعـــــــــانه برّ وبير
وهذا الدر نوره نور علـــــم ببهجة وجهه انشرح الصدور
به اكتسب العلاء عزيز مصر غريب الدهـــر في علم أمير

---

[1] Khās Ganj
[2] Bānki Pūr
[3] Rānchi

(نقلاً عن ورقة الشهادة وانظر قصيدتي "ذكرى العلامة عبد العزيز الميمني" وحواشيها في ص 699).

بعد الفراغ من التحصيل الرسمي قضى والدي مدة غير يسيرة مفتياً بدار الإفتاء التابعة للمدرسة السبحانية، وقد أخبرني بعض حفدة الشيخ الكبير مولانا عبد الكافي رحمه الله أن مجلدات ضخمة لنقول الفتاوى المكتوبة بخط أبي توجد للآن في مكتبة المدرسة السبحانية.

ثم انتقل- رحمه الله- إلى مدينة (كلكتا[1]) واستقر بها في محلة (تانتي باغ[2]) فبنى بها مدرسة تسمّى (معين الإسلام) إلى صفوف العالمية والفضيلة وكانت ملحقة بلجنة امتحانات المدارس الحكومية في بنغالة بكلكتا، ولعله قضى هاهنا في كلكتا نحو عشر سنوات. وفي أثنائها اتفق له أن يلقي الدروس على طلاب المدرسة العالية (الحكومية) حينما تولّى السيد (هارلي[3]) عمادة المدرسة العالية وهو آخر الموظفين الإنكليز على هذا المنصب الجليل في المدرسة الحكومية ببنغالة.

وقد سافر أبي إلى مدينة (داكا[4])، إحدى العواصم الثلاث للحكام الإنكليز في بنغالة قبل تقسيم الهند، وتولّى رئاسة المدرسين بالمدرسة الحمّادية في داكا منذ سنة 1919 ميلادية إلى أن أصيب بمرض شديد في سنة 1943م فرجع إلى مولده (بهار شريف) حتى توفي إلى رحمة الله في نفس السنة ودفن في مقبرة آبائه في (بهار شريف) غفر الله لهم وبرّد مضاجعهم.

كان أبي شديد الاعتناء بتعليم أولاده وتربيتهم الديني وكان رأيه الجازم أن يتعلم كل واحد من أولاده الذكور اللغة العربية ثم العلوم الإسلامية ولأجل ذلك عاش يباشر تدريسهم بنفسه إلى أن يصلحوا للانتساب إلى المدارس الرسمية وينجحوا في استكمال الدراسات الدينية العربية بباهر النجاح.

كنت أصغر أولاده الذكور واتفق لي أن أرافقه في الأسفار قبل أن أجاوز السنة الخامسة من عمري، فقرأت عليه كتاب الله العظيم إلى آخره مع بعض الكتب

---

[1] Calcutta والآن هي كولكاتا (Kolkāta)
[2] Tānti Bāgh
[3] Harley
[4] Dhāka

الأردوية ثم الفارسية إلى أن جاءت نوبة اللغة العربية تصريفاً ونحواً إلى الشافية والكافية لابن الحاجب والفوائد الضيائية شرح الكافية للشيخ عبد الرحمن الجامي. وقد أحفظني أبي كتاب نصاب الصبيان لأبي نصر الفراهي، وهو مجموعة قصائده الفارسية سرد فيها مفردات اللغتين العربية والفارسية وهي على أوزان العروض المختلفة كلها، ثم أحفظني كتاب نيل الأرب في مثلثات العرب للشيخ اللغوي حسن قويدر الخليعي. وقد شارك أبي في تدريسي وترغيبي في إتقان اللغة العربية نظماً ونثراً أخي الكبير الدكتور محمد صغير حسن المعصومي الذي نال الدكتوراه من أوكسفورد وصار أحد أعضاء مجمع اللغة العربية المراسلين بدمشق، قرأت عليه اللامية المنسوبة إلى السموأل بن عادياء وغيرها وبعض الحكايات من نفحة اليمن للشرواني وأشياء أخرى.

كانت طريقة أبي في التعليم أن يقرأ الطالب متن الكتاب العربي قراءة صحيحة حسب استطاعته الذاتية نتيجة لتتبع القواعد التصريفية والضوابط النحوية وكلما سنح للأستاذ أن يلقن الطالب بالصواب، لقّنه بذلك تلقيناً موضّحاً ثم أمره بإعادة الفقرة أو الفقرات على الوجه القويم، ثم انتقل إلى حلّ اللغات وبيان التراكيب العويصة حلاً مفصلاً ثم إلى بيان المطالب، وكان حتماً على الطالب أن يعيد كل ذلك بالتزام الترتيب، والأستاذ يصغي إليه في أثناء تمام الإصغاء.

لقد انتفعت من هذه الطريقة انتفاعاً عظيماً وإن كانت كثيرة الاصطبار للمعلم والمتعلم كليهما. وبينما كنت أقرأ بعض أبواب (الفوائد الضيائية) للعلامة عبد الرحمن الجامي وهو شرح الكافية لابن الحاجب، سنح لي أن أنظم الشعر العربي لأول مرة في التاسعة من سنوات عمري. ولا أحفظ الآن إلا صدر البيت الأول وهو بنصه كما يلي:

طلع الهلال لنا برونق نوره

قلت ذلك بمناسبة هلال رمضان المبارك.

بعد ذلك بقليل أخذت عن والدي أوائل كتاب مشكاة المصابيح وشرح الوقاية ونور الأنوار شرح المنار للشيخ الكبير ملا أحمد جيون الأميتوي، فآثر أبي أن أنتسب إلى صف امتحان العالمية بالمدرسة الحمادية، ثم أدّيت الامتحان الرسمي تحت لجنة امتحانات المدارس ببنغالة الواقعة في كلكتا، ففزت بحمد الله وفضله

بنجاح باهر في الامتحان المنعقد سنة 1943م وكنت ثالث الناجحين في الدرجة الأولى ببنغالة تماماً (يعني على مستوى الولاية) وأصبت مكافأة حكومية لمدة سنتين. والآن رأى أبي أن أنتسب إلى صف الفضيلة بالمدرسة العالية الحكومية في (كلكتا) في أثناء مايو سنة 1942 ميلادية. فأقمت هنا في كلكتا وحيداً في أحلك الأدوار بسبب الحرب العالمية الثانية، وأصيب أبي ببعض الأمراض الشديدة فانصرف إلى (بهار شريف) حتى توفي إلى رحمة الله في أوائل سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وألف (1943) ميلادية، إنا لله وإنا إليه راجعون. ولما أدّيت امتحان الفضيلة سنة 1944 ميلادية نجحت- بفضل الله وعونه- في الدرجة الأولى وجئت ثاني الناجحين فيها في بنغالة تماماً وحصلت على مكافأة حكومية لمدة سنتين. فانتظمت في طلاب التخصص في الحديث النبوي فقرأت على كبار أساتذة المدرسة العالية كتب الصحاح الستة قراءة بحث وتنقيح، وتفسير سورة البقرة كما فسّرها القاضي البيضاوي، وسورتي آل عمران والنساء على ما فسّرهما الزمخشري في كشافه، وكتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والتاريخ الإسلامي مند أولية العرب قبل الإسلام إلى سيطرة هولاكو على بغداد ثم اعتناق المغول للإسلام.

هذا ونجحت في امتحان التخصص سنة 1946م، بعون الله وتوفيقه وجئت أول الناجحين في الدرجة الأولى في بنغالة تماماً.

بعد الفراغ من امتحان التخصص، تزوّجت سنة 1946م، امتثالاً لأمر أمي الكريمة. وقد أصرّ عليّ أخي الكبير أن أرافقه إلى (داكا) لتعلم اللغة الإنجليزية وبعض العلوم الحديثة اللازمة فسافرت إلى (داكا) وأقمت معه في تتبع اللغة الإنجليزية وما إليها. وكنت في هذه الفترة ربما أتمتع بمطالعة بعض الكتب العربية المستعارة على الأكثر من خزانة كتب الجامعة فاطلعت في بعض الفرص على "أبي العلاء وما إليه" للعلامة الميمني، نظمت في الذب عن أبي العلاء كلمة طويلة تتضمن الرد على البخائي.

ثم إن المدرسة العالية الواقعة في (كلكتا) منذ بنائها الأول سنة ثمانين وسبعمائة وألف (1780م) ميلادية، انتقلت نتيجة تقسيم البلاد بين الهند وباكستان، في نصف أغسطس سنة (1947م) إلى (داكا) عاصمة ضرقي باكستان ثم بنغلاديش وكنت إذ داك ثاوياً بها منذ قبل التقسيم، فلما استقرّ بأهالي المدرسة

القرار في (داكا) أخذت أقابلهم، واتفق ذات يوم أن أتشرّف بزيارة حضرة الأستاذ مولانا محمد ضياء الحق وهو عميد المدرسة منذ سنة 1943م وكان يحبّني كثيراً، فاقترح عليّ أن أشتغل بعمل بحث عن موضوع هام، تحت إشراف الأستاذ العلامة أبي الزبرقان عبد الرحمن الكاشغري؛ فبدأت العمل بإشرافه على دراسة تفسير جامع البيان للإمام الكبير محمد بن جرير الطبري رحمه الله دراسة انتقادية منذ أوائل سنة 1948 ميلادية. وألّفت كتاب معاني القرآن للإمام الطبري، وكتبت تعريفاً بعملي هذا مقالة باللغة الأردوية، وقد نُشرت في مجلة "معارف" لدار المصنفين أو أكادمية العلامة شبلي النعماني بأعظم كره، وكان مديرها إذ ذاك العلامة الكبير السيد محمد سليمان الندوي. وهذه المقالة قد أعجب بها بعض الكبار من علماء الهند، وشرّفوني بآرائهم النافعة القيّمة تحبيذاً وتنويهاً بعملي هذا.

ثم اتفق أن حكومة غرب البنغال (الهند) أعلنت بقصدها الجازم لإحياء المدرسة العالية في كلكتا، على اقتراح العلامة الأكبر مولانا أبي الكلام آزاد والحكومة المركزية في دلهي الجديدة، فقدّمت طلبي لبعض المناصب التعليمية إلى مدير المعارف العمومية بغرب البنغال (كلكتا) فانتخبوني مدرساً مساعداً (Assistant Teacher) لإلقاء الدروس، فانتقلت إلى كلكتا وانتظمت في زمرة المعلمين بالمدرسة العالية (كلكتا) منذ رابع شهر أبريل سنة 1949 ميلادية ثم سافرت إلى (داكا) للمرة الأخيرة في نفس السنة للشركة في امتحان لجنة المدارس الثانوية الحديثة، وبعد ذلك انقطعت علاقتي من (داكا) تماماً.

هذا وبقيت على وظيفتي المذكورة آنفاً إلى ثامن فبراير سنة خمسين وتسعمائة وألف ميلادية. وانتخبت محاضراً (Lecturer) في تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية منذ تاسع فبراير سنة (1950) ميلادية. واستمرّ بقائي على هذا المنصب إلى عاشر أكتوبر سنة 1968م، ثم انتخبوني أستاذاً (Professor) في الحديث والتفسير، منذ الحادي عشر من أكتوبر سنة 1968 ميلادية واستمر عملي على ذلك إلى أن أحيل العاجز إلى المعاش في الحادي والثلاثين من شهر يوليو سنة إحدى وتسعين وتسعمائة وألف (1991) ميلادية.

قد فاتني أن أذكر أشياء، ولا بأس أن أشير منها خاصة إلى مشاركتي في الامتحانات الجامعية بجامعة علي كره، فنجحت في امتحان البكالوريا سنة

1967م بالدرجة الأولى مع الحصول على الوسام الجامعي ثم في امتحان الماجستير سنة 1969 ميلادية فحصلت على النجاح بالدرجة الأولى مع استحقاق الوسامة لأول الناجحين، وكل ذلك بعون الله وتوفيقه.

ومن نعم الله على هذا المفتقر إلى الله وحده، أن حكومة الهند المركزية منحتني شهادة التفوق الرسمية كأستاذ في اللغة العربية على مستوى الهند الحاضرة كلها سنة 1977م وهي عبارة عن شهادة الامتياز في اللغة العربية مع مكافأة سنوية طيلة الحياة.

أما اشتغالي بخدمة علوم الدين واللغة العربية مع قلة بضاعتي، فأسأل الله المولى الكريم أن يتقبله بقبول حسن ويوفقني وسائر أهل الإيمان والإسلام لما يحبّ ويرضى به من الأعمال الصالحة ويجازي جزاء حسناً أبويّ المرحومين وإخوتي وسائر أساتذتي وعلماء الأمة الذين اتصلت بهم أسانيدي بصدد علوم الكتاب والسنة. وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد خاتم النبيين وخاتمهم بالنص المبين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، كثيراً كثيراً وبكرة وأصيلاً.

كلكتا قالها بفمه وكتبها بقلمه

33/1 ن سي- هري كرشنا موتاره رود **أبو محفوظ الكريم معصومي**

كلكتا- 700014 (سابقاً) أستاذ في علوم الحديث والتفسير

الهند بالمدرسة العالية (الحكومية) في كلكتا، غرب البنغال، الهند

22 شهر رمضان، 1421 هجرية

19 ديسمبر، 2000 ميلادية

المهاـ جمال الأدب العربي

ـ الشيخ بدر جمال الإصلاحي

المها: البلّور، وكلّ شيئ صفّي فأشبه المها، فهو مُمَهًّى.

المهاة جمعها مهًى ومهوات من مهت تمهو مهًى في بياضها: بقرة الوحش، سمّيت بذلك لبياضها على التشبيه بالبلّورة والدّرة. فإذا شبّهت المرأة بالمهاة في البياض فإنما يُعنى بها البلّورة أو الدرّة. فإذا شبّهت بها في العينين فإنما يعنى بها البقرة[1].

(مها-ن) ت البقرة الوحشية: ثقع بياضها

(مها-ك) اللبنُ أو السمن: رقّ، فهو مهْوٌ

(أمهى) اللبنُ: أكثر ماؤه، الحديدة: أحدّها حتى صارت رقيقة كالماء.

(المهْو) اللبن الرقيق الكثير الماء، اللؤلؤ، البلّور، البرد، السيف الرقيق.

المهاة جمعها مهاً ومهوات ومهيات: البلّورة، البقرة الوحشية شبّه بها في حسن العينين[2].

المها، أو البقرة الوحشية أو ابن سَوسَع وهو أكبر غزلان المنطقة العربية ومن ميزاته عدم حاجته الماسّة لشرب الماء، وفي الماضي كان يجوب أواسط الجزيرة العربية، غير أن صيده الكثيف أدّى لانقراضه، ولم يبق من سلالته سوى التي حفظها الإنسان في حدائق الحيوانات.

إذا فرغت المها من التجوّل والرعي والشرب تحفر تحت شجرة أو حرش في التراب الناعم حفرة لتسريح فيها، وهي تشمّ رائحة الماء من بعيد وترتحل إليها.

والمها تعيش في السرب، وسربها تشتمل على عشرة أفراد إلى مائة فرد.

ولحمها يكون لذيذاً جداً، والناس يأكلونه بكل رغبة. تصنع من جلودها الأحذية والحقائب ومن قرونها أمتعة جميلة للتزيين.

والمهاة تكون منتبهة منشطة وتجري مسرعة وترى من بعيد أعدائه من الأناس والذئاب والضبع غيرها من الحيوانات المفترسة فتفر مسرعة وتغيب وراء

---

[1] لسان العرب، مادة: م ه و

[2] المنجد، مادة: م ه و

الجبال والهضاب والكثبان، وتدافع عن نفسها عند لقائها من الأعداء بقرونها الطويلة الحادة.

وهي تقتات على الأعشاب الخضراء والأشجار الصغيرة والبصلات وعلى نوع من البطيخ التي توجد في الصحارى، وترتحل للسقيا إلى الغدران والأنهار البعيدة. وعندما تجفّ الأنهار والغدران وتبخل بالماء تأكل البصل أو البطيخ عوضاً عن الماء وتستطيع أن يعيش بغير الماء أسابيع.

وهي تستيقظ قبل الفجر وتخرج وتنتشر في الأرض لابتغاء رزقها وبعد رعي الأعشاب وسرب الماء تستريح عند الظهر، ومن وجودها خسائر كبيرة للفلاحين ولصاحبي المزارع، وهي تخرّب المزارع والحدائق وتطأ النباتات والأشجار الصغيرة.

توجد المحميات لمها في جزيرة العرب وجزيرة سينا، وفلسطين وأردن والعراق، وتلد عجلاً واحداً في بطن واحد وعمرها يكون عشرين سنة تقريباً. وهي مهدّدة بالانقراض بسبب قنصها لأن لحمها وجلدها وقرنها تباع بثمن غالٍ.

والمها جميلة جداً ويزيدها قرناها الطيولان حسناً وجمالاً، وتوجد على أرحلها وعلى وجهها بقع سود.

وهي تصوت من خيشومها عند التكلم مع أخواتها وفي بعض الأحيان يزأر كالسباع وتثغو وتمامئ كالشياه وفي أكثر الأحيان تستخدم لغة الإشارة للكلام فيما بينها.

الإنسان والذئب والضبع أعداء ألدّاء لها وتستعمل قرونها سلاحاً عند مدافعة العدوّ أو وقت المحارة بينها.

وهي تضطرّ للارتحال ابتغاء لقوتها، وتتجوّل في الصحراء كالرحالة، لأنها توجد في أرض قفرة تركمت عليها الرمال المحرقة لا تبت لها الأعشاب والأشجار والحبوب والبقول وتجفّ الأرض في حرارة القيظ وتبخل الغدران والأنهار بالماء. فهي ترتحل من وإلى مكان حيث يوجد العشب والماء متوفرين.

قد كانت صحراء الجزيرة العربية مرتعاً للعديد من فصائل الحيوانات التي تلائمها البيئة الصححراوية الحارة الجافة، مثلاً: المها، والرئم، والوعل، وحمار

الوحش، وكذلك من الطيور: النعام، والحبارى، والصقر، وغيرها من الحيوانات التي تتميز عن فصائلها التي توجد في بلاد أخرى بتحمل الحرارة الشديدة، والصبر عن شرب الماء مدة طويلة ولكن أقول مع الأسف إن الأكثر منها قد انقرضت وبادت من بلادها الأصلية، أي من الجزيرة العربية، بسبب زحف العمران والتحضر، وبطرق الاصطياد الجديدة باستخدام السيارات والأسلحة النارية، في هذه الخمسينات الأخيرة، ولولا أنشئت المحميات (الغابات الطبيعية) في الخليج العربي وفي البلاد الأخرى المتحضرة، لبادت للأبد من العالم هذه الحيوانات الجميلة النادرة، التي دخلت في الأدب العربي الخالد، وتغنى بها شعراؤنا العرب، وردّد الكثيرون منهم أسمائها.

والآن تعال معي أيها القارئ الكريم! لنشاهد المها العربي ونعرف على حياته وأحواله وميزاته.

المهاة (م ه و) وجمعها: مهوات ومهيات، واسم الجمع منها: مهى، البقرة الوحشية، يشبه بها في حسن العينين، يقال لذكرها: الثور وجمعه: ثيران، وللأنثى: النعجة وجمعها: نعاج ونعجات ولصغارها: الفرق أو الجوذر أو الطلاء، وجمعها على الترتيب: الفراق والجواذر والأطلاء.

وقد كثر ذكرها في كلام العرب، عند ذكر الصيد والقنص، أو في تشبيه جمال النساء وفتنة عيونهن. قال ملك الشعراء امرؤ القيس بن حجر الكندي:

فعنّ لنا سرب كأنّ نعـــــاجه عذارى دوار في الملاء المذيّل

فعادى عداءً بين ثور ونعجــة دراكاً ولم ينضح بماء فيغســل

وقال أيضاً:

فبينا نعـــــــاج يرتعين خصيلة كمشي العذاري في الملاء المهدّب

وله ما يأتي:

وظلّ غلامي يضجع الرمح حوله لكل مهـــــاة، أو لأحقب سهوق

وقال ابن الجحم:

عيون المها الرصـــــــــــافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
أثرن لي الشوق القـــــــــديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمــراً على جمر

وقال الآخر:

محا البين ما أبقت عيون المها مني فشبتُ ولم أقض اللبانة من سني

المها نوع من البقر الوحشي، وكان موطنه الأصلي "الربع الخالي من المملكة العربية السعودية"، وكان في الماضي يشاهد عدد هائل منه منتشراً في صحاري المملكة، ولكنه شرع في الانتقاض من بداية هذا القرن حتى انقرض منذ عشرين عاماً، ومع الأسف تخلت الصحراء من وجودها، وحرمنا التمتع برؤيته، اللهم إلا ما احتفظ عليه الإنسان في حدائق الحيوانات أو في المحميات.

يمتاز المها بجماله الرائع، فجسمه أبيض ناصع، وعيناه واسعتان سوداوان، تحيط بهما بقع سوداء، وتزين هذه البقع وجهه وأرجله أيضاً. ولون فراقه بني فاتح، أي أقرب للون الرمل في الظل، ويظلّ لونها هذا يتحول بالتدريج إلى البياض، كلما تقدّم عمرها.

تعيش المها 35 عاماً تقريباً، ويبلغ وزنه 150 كحم تقريباً، (ولا فرق بين وزن الذكر والأنثى وحجمهما) وطوله 200 سم، وارتفاعه إلى الكتف 120 سم، وطول قرنيه 75 سم، ويكون قرناه مستقيمين لولبيين حادين جداً، تعطيانه قدرة كبيرة للمقاومة والدفاع عن الأعداء، يستطيع المها التغلب بهما على الحيوانات المفترسة، كالذئاب والضباع، يصل إلى البلوغ في عامين ونصف تقريباً ومدة حملها 250 يوم.

يسود ويحرس القطيع الذكر القوي الشاب، وهو الذي يقوم بعملية تلقيح الإناث، ويطرد باقي الذكور الأقل قوة، وإذا شاب السيد وبلغ به الضعف نافسه ذكر شاب، فتقوم معركة شديدة بينهما، حتى يغلب أقواهما على الأضعف، وإذا تغلب الأقوى وقع المغلوب على الأرض معترفاً بهزيمته، معلناً بخضوعه.

وعند تعرض القطيع للخطر يسير أكبر القطيع سناً في المقدمة دليلاً، وذلك للاعتراف بخبرة الكبير والقدرة على الإرشاد والهداية.

والأنثى لا تخضع عند التزاوج إلا لأقوى الذكور، وترفض أي ذكر سواه، وتلقح إذا بلغت سنتين والنصف من عمرها، وتلد بعد الحمل الذي مدته ثمانية أشهر والنصف، وتلقح مرة أخرى بعد الولادة مباشرة بأربعة أيام إلى سبعة، ويحيطها الذكر بحراسته الشديدة، ويغير عليها غيرة شديدة في فترة التزاوج، ويمنع أي حيوان آخر أن يقترب منها حتى رضيعها، ومن هنا أكثر الأحيان تحدث مأساة كبيرة فكلما يقترب الرضيع من أمه يهجم الذكر عليه، ويرفعه بقرنيه ويرمي به بعيداً، حتى يبقر بقرنيه بطن الرضيع، وتكون الرضيع الأنثى أكثر التصاقاً بأمها، فبحكم ذلك يقتلها الذكر غالباً، والرضيع الذكر أقدر على بعد أمه، وفي هذه الحالة الخاصة لا يقترب من أمه إلا مرة في يوم، ومن هنا يوجد ذكور المها أكثر من الإناث.

يستطيع المها أن يعدو مستمراً مسافة 60 كم بسرعة 100 كم في الساعة على رمال الصحراء، وإذا وصل به التعب مداه وقف واستجمع قوته واستأنف عدوه، وإذا جرح أثناء القتال لم يستسلم أبداً حتى يموت.

المها حيوان نبيل، يمتنع عن الأكل في حالة الأسر، وإذا شعر باقتراب أجله طاف حول أفراد قطيعه، كأنه يزورها زيارة أخيرة، ثم يذهب إلى ركن بعيد عن القطيع، ويستند على كومة من الرمال أو على أي شبئ قائم، ويرفع رأسه معتدلاً، ويستقبل الموت بهذا الشأن النبيل.

وكان يوجد في صحاري العرب من فصيلة المها بقر آخر، يقال له "أبو عداس"، ومن ميزاته أن لونه الأبيض يتغير إلى البني في فصل الشتاء، وله قرنان متموجان طويلان، وأقدامه مسطحة، تحفظه من الغوص في رمال الصحراء، وكان يتحرك ببطء شديد، وفي المناخ الحار كان يحفر لنفسه حفراً يظل فيها رابضاً طيلة نهاره، ومن الأسف أنه أيضاً انقرض في هذه الخمسينات، إلا ما احتفظ في حدائق الحيوانات أو المحميات.

المصادر والمراجع

1. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، سنة الطبع لم تذكر

2. أردو دائرة معارف إسلامية، دانش غاه بنجاب، لاهور، الباكستان، 1980م
3. كمال الدين محمد بن موسى الدميري: حياة الحيوان الكبرى، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة
4. نعمان علي بسّام: الثدييات العربية، رحلة علمية حيوانية في ربوع فلسطين والبلاد العربية وأوربا بين الأعوام 1980-2006م، المطبع لم يذكر، تموز 2006م
5. عدد من المؤلفين: المنجد، دار المشرق، بيروت، لبنان، 1960م
6. دواوين الشعراء العرب

قراءة في كتاب:-

كتاب "رحلة الهند" للدكتورة نوال السعداوي، دراسة تحليلية نقدية

- د. أورنك زيب الأعظمي

الدكتورة نوال السعداوي إحدى الكاتبات الرحالات المصريات اللائي زرن معظم بلاد العالم فوطّأت قدما الدكتورة السعداوي أرض العديد من البلدان النائية حتى سافرت من أوربا إلى بلاد الهند وشهدت وشاهدت كثيراً من الأشياء، وكتبت وصانت العديد من عادات البلاد وتقاليد الناس وأشياء كثيرة تجدر بأن نقرأها ونستفيد من تجارب الدكتورة ذاتها فإنها مثيرة في الناس عواطف الرحمة على الفقراء كما تثير الغضب على من يقوم باستغلال جهود هؤلاء البائسين.

والرحلات (جمع الرحلة) أيضاً نوع من الآداب العالمية التي تطوي بين جنبيها معلومات لطيفة وأحياناً غريبة عن الناس وعن الحيوانات كذلك. إنها كذلك تصطبغ بصبغة أدبية تلذّ بها أسماع الحضور كما تجذب أنظار القراء والدارسين، ورحلات الدكتورة نوال السعداوي من مثل هذه الرحلات التي تجذب أنظار الناس كما تطوي بين جنبيها معلومات لطيفة لطيفة للغاية عن الناس. وزدْ على هذا قلبها المليئ بالعواطف الجيّاشة تجاه الفقراء والبائسين فكأنها أصبحت رحمة للفقراء تتحدث عن مصائبهم وتنطق عن مشاكلهم. وفيما يلي نظرة عابرة على رحلتها عن الهند ومناطقها بعد ذكر الموجز عن حياتها.

موجز عن حياتها: ولدت الدكتورة نوال السعداوي بالقاهرة في 27 من شهر أكتوبر عام 1930م. إنها تخرجت من كلية الطب التابعة لجامعة القاهرة في ديسمبر عام 1954م متخصصة في مجال الأمراض الصدرية. في عام 1955م عملت كطبيبة امتياز بالقصر العيني، ثم فُصلت عنه بسبب آراءها وكتاباتها وذلك بـ6 قرارات من وزير الصحة. إنها تزوجت من الدكتور شريف حتاتة وهو طبيب وروائي ماركسي اعتقل في عهد الرئيس عبد الناصر.

مجلة الهند

إنها أصدرت مجلة الصحة التي كانت هي تحرّرها لأكثر من ثلاث سنوات، أغلقت المجلة وصودرت بالحكومة في عام 1973م. وفي سبتمبر 1981م وضعها الرئيس السادات في السجن. أطلق سراحها في نهاية نوفمبر 1981م، بعد شهرين من اغتياله. من 1988-1993م اسمها ظهر في قوائم الإعدام التي تصدرها المنظمات السياسية والدينية المتعصبة. كما تعرضت للنفي نتيجة لآرائها ومؤلفاتها، وتم توجيه تهمة "ازدراء الأديان" لها، كما رفضت محكمة القضاء الإداري بمجلس الدولة في مصر في 12 مايو 2008م إسقاط الجنسية المصرية عنها، في دعوي رفعها ضدها أحدُ المحامين بسبب آرائها المدافعة عن حقوق المرأة. خلال صيف عام 2001م، تم منع ثلاثة كتب لها في معرض القاهرة الدولي. واتهمت بالردة في العام 2002م من قبل محامي الأصوليين الذين رفعوا دعوى قضائية ضدّها لتطلق بالقوة من زوجها الدكتور شريف حتاتة. فازت هي بالقضية بسبب التضامن المصري والعربي والدولي.

وقد حاضرت نوال السعداوي في العديد من الجامعات، وشاركت في العديد من المؤتمرات الدولية والوطنية. ونالت عدة جوائز أدبية وطنية ودولية.

وفي الثالث من شهر مايو 2009م، في نيويورك ألقت محاضرة ارثر ميلر في مهرجان نادي القلم الدولي، وقد ترجمت أعمالها إلى أكثر من ثلاثين لغة في جميع أنحاء العالم، ويتم تدريس بعضها في عدد من الجامعات في مختلف البلدان.

صدر لها أربعون كتاباً أعيد نشرها وترجمة كتاباتها لأكثر من خمس وثلاثين لغة وتدور فكرتها الأساسية حول الربط بين تحرير المرأة والإنسان من ناحية وتحرير الوطن من ناحية أخرى في نواحٍ ثقافية واجتماعية وسياسية. من أهمّ مؤلفاتها ورسائلها ورحلاتها "المرأة والجنس" و"أوراق حياتي" و"مذكراتي في سجن النساء" و"معركة جديدة في قضية المرأة" و"تعلمت الحب" و"رواية

جنات وإبليس" و"دراسات عن الرجل والمرأة" و"الإله يقدم استقالته في اجتماع القمة" و"رحلاتي في العالم"[1].

مفهوم الرحلة لدى الدكتورة السعداوي: السياحة أو الرحلة عند الدكتورة السعداوي لا تعني مجرد رؤية المعالم الوطنية وشراء الملابس ونوادر الأسباب والسلع التجارية وأخذ صور بعض العجائب وما شابهها بل الدكتورة السعداوي ترى أن معنى السياحة هو أن نزور تلك الأماكن التي يسكنها الفقراء فنتفقّد ظروفهم ونتحدث عن مشاكلهم ومصائبهم وكذا الاستفادة من آداب البلد المزار والاستفاضة من التقاليد الحسنة والفلسفات الحقة وانتقاد الأشياء التي لا توافق والعقل والقلب، هذه كلها مما تُدخِلها الدكتورة في معنى السياحة فهي تقول:

"قد يدهش الكثيرون ممن يمهرون السفر والرحلات لماذا شعرت نحو الهند بالذات مثل هذا الشعور والعالم فيه من البلاد والأمكنة التي ينبهر لها السيّاح؟ لكن السياحة في رأيي ليست ركوب طائرات وزيارة متحف والنوم والأكل في الفنادق الفاخرة. السياحة عندي هي التجوّل على الأقدام في الشوارع والحواري المتربة، واكتشاف الإنسان في أي مكان، وبالذات تلك الأمكنة التي يهرب منها السياح، أو يضعون مناديلهم فوق أنوفهم حين يمرّون عليها بالصدفة"[2].

وتقول في موضع آخر من رحلتها:

"أحبّ التجوّل في الأحياء الشعبية وأعشق السير في حواريها والتفرج على الدكاكين الصغيرة وزحام الناس والأصوات والروائح القوية المنبعثة من كل مكان"[3].

وأيضاً تقول:

"قالوا لي في دهشة: أ لم تذهبي إلى جايبور؟ قلت: ماذا في جايبور؟ قالوا: جميع السيّاح يذهبون إلى جايبور. قلت: ولكني أذهب إلى حيث لا يذهب السيّاح، فأنا أريد (أن) أعرف الهند الحقيقية"[1].

---

[1] أخذت هذه المعلومات المبعثرة عن طريق الإنترنت (الأعظمي)

[2] رحلاتي في العالم للدكتورة نوال السعداوي، مكتبة مدبولي، ميدان طلعة حرب، القاهرة، ص 189

[3] المصدر نفسه، ص 205

وسترى مشاهد هذا المعنى في كل موضع من رحلاتها لاسيما "رحلة الهند" التي نحن بصدد البحث عنها.

أدبية هذه الرحلة: قبل أن اتحدّث عن أدبية هذه الرحلة أودّ أن أشير إلى ما هو الأدب الجيّد لدى الكاتبة. والواقع أن الأدب الذي يصوّر الحياة البشرية وينطق عن مشاكل الناس وما والاها هو الأدب المعتبر أدباً جيداً أما الأدب الذي يتحدث فقط عن الأشياء التافهة أو هو الأدب للأدب فهو ليس بأدب جيّد نافع عند الكاتبة فهي تقول بعد أن قرأت رواية أمريتا بريتام التي كشفت عن مظالم الكهنة على النساء:

"لم أتذكر هذه القصة التي وقعت في قريتي كفر طلحة منذ أكثر من ثلاثين عاماً إلا هذا اليوم وأنا في سريري في مدينة دلهي بالهند بعد أن قرأتُ رواية أمريتا بريتام. وهذا هو الأدب الجيّد. إنه الأدب الذي يجعلنا نتذكّر حوادث مضت عليها السنون والسنون. نتذكرها لأول مرة ونفهمها أيضاً لأول مرة. وهذا هو الفن الذي يضيئ أركاناً مظلمة في عقولنا"[2].

وتقول الدكتورة السعداوي وهي تعرّف بالفنّ والفنّان:

"إن الألم هو الذي يصنع الإنسان، لكن الفنان الحقيقي هو الذي يحوّل الألم إلى فن جيّد ويظل الفنان رغم السنين شاباً قوياً بل يظل طفلاً بريئاً رقيقاً رغم تراكم الخبرات في قاع عينه"[3].

وتقول في موضع آخر:

"--- ولكن الفنّان الحقيقي يستطيع أن يحوّل قطع الصخر إلى أحجار كريمة وجواهر"[4].

فهذا هو الأدب الجيّد النافع وأما الألفاظ والأمثال والتراكيب وأشياء أخرى فهي تأتي تابعة لهذا الهدف السامي من الأدب ونودّ أن نذكر بعض هذه الأشياء لكي

---

[1] المصدر نفسه، ث 252
[2] المصدر نفسه، ص 224
[3] المصدر نفسه، ص 238-239
[4] المصدر نفسه، ص 238

يثبت لنا أن رحلة الدكتورة نوال السعداوي ليست مجرد رحلة بل هي أدب جيّد رائع من جميع النواحي الأدبية.

ومن محتلف تعاريف الأدب أنه ملخص تجربة ذاتية فتقول الدكتورة السعداوي مشيرة إلى هذا الجانب من رحلتها:

"وجدت بحكم خبرتي في السفر والرحلات أن الانطباعات الأولى للعين الغريبة من أهم الانطباعات وأصدقها، وقد تعوّدت أن أسجّل انطباعاتي الأولى عن أي بلد جديد أسافر إليه، قبل أن تألف عيني البلد وقبل أن تُضعف هذه الألفة حساسية العين للأشياء الجديدة، ويصبح الجديد شيئاً عادياً لا تراه العين.

لا أقصد هنا العين أو الرؤية فقط ولكني أقصد الإحساس أيضاً. فقد أدركت منذ هبطت على أرض الهند أن إحساساً عميقاً بالراحة والسلام والطمأنينة غمرني"[1].

وبما أن الدكتورة كانت تقف على الأدب وأنواعه وما هو الأدب الجيّد وما هو الرديء فهي تقول وهي تثني على الأدب الهندي وغزارته:

"--- مع أن الذي يذهب إلى الهند ويقرأ بعض إنتاج الأدباء والأديبات في ولايات الهند المختلفة يكتشف أن في الأدب الهندي ما هو عظيم، وما هو أكثر خصوبة وتنوعاً من بعض إنتاج الأدباء العالميين الذين درجنا على أنهم هم العظماء وحدهم"[2].

هذا وعندما نقرأ هذه الرحلة نجد أن الدكتورة تركت نماذج جميلة للتصوير عن الأشياء المختلفة فهي تقول مثلاً عن الشاب الهندي ومشيته على الأرض:

"تارايان هو اسم الشاب الهندي الذي يطبخ لزوجي طعامه. إنه شابّ أسمر قصير نحيف يمشي على الأرض بخفة غريبة، كأنما هو يشفق على الأرض من أن يدوس عليها بقوة"[3].

وتقول وهي تصوّر وجوه العاملات الفقيرات:

---

[1] المصدر نفسه، ص 191-192
[2] المصدر نفسه، ص 240
[3] المصدر نفسه، ص 199

"--- الأمهات كالهياكل العظيمة يحملن أطفالاً ليسوا إلا عيوناً وعظاماً. أجساد راقدة على الرصيف مغطاة بملايين الذباب كأنما كتل من القمامة. الأذرع المعروقة ممدودة. واليد متكررة منتظرة أحداً يلقي في كفها شيئاً تأكله. لوحة ثابتة تمثّل صراع الإنسان الأخير من أجل البقاء"[1].

وتقول عن الجوّ المحيط بالمرأة التي تخرج من الماء:

"كانت الدنيا ليلاً، والظلمة شديدة بغير قمر. مياه النهر سوداء، زهور الشاليجرام والتولس تتماثل وتتعانق خلسة دون أن يراها أحد. النهر يمتليئ فجأة بالزهور الوليدة تلمع تحت ضوء النجوم كآلاف من السمك الصغير. وفي الضوء الخافت رأيت امرأة فارغة الطول تخرج من النهر. لها ذيل سمكة مثل جنّية البحر. ملامحها حادة قوية تشبه ملامح الآلهة. وعيناها سوداوان ثاقبتان كعيني حتشبثوت أو الآلهة أزيس"[2].

وتقول وهي تصوّر وجه الرجل من جنوب الهند تصويراً قلمياً رائعاً:

"رأيت الوجوه في جنوب الهند شديدة السمرة تشبه وجوه الناس في إفريقيا الاستوائية لولا أن تقاطيع الوجه هنا دقيقة، الأنف مرتفع دقيق ومدبب، والشفتان رقيقتان، والشعر أسود ناعم وليس مجعداً، والعينان تلمعان في الوجه الأسمر الجذاب"[3].

وتقول وهي تصوّر امرأة في العقد الرابع من عمرها:

"أكيلا لا تزال شابة في الأربعية، لكن ملامحها الدقيقة البريئة تشبه ملامح فتاة في الخامسة عشرة، وصوتها ناعم رقيق كصوت الأطفال. أما حين تنظر داخل عينيها تدهشك هذه النظرة العميقة الغائرة الموغلة في السن كنظرة رجل عجوز في السبعين من عمره"[4].

والرحلة مليئة بمثل هذه النماذج الأدبية الرائعة.

---

[1] المصدر نفسه، ص 222-233
[2] المصدر نفسه، ص 310
[3] المصدر نفسه، ص 208
[4] المصدر نفسه، ص 238

الهند بلد حميد لدى السعداوي: إن الكاتبة قد أحبّت بلاد الهند حبّاً جماً حتى اعتبرتها نفس بلدها الذي ولدت فيه وترعرعت ورأت شبابها وستموت وتدفن به. تقول وهي تعتبر أن معرفة الهند مثل معرفة النفس ومعنى ذلك أن الهند بلد فطري أهاليه مفطورون على العادات والتقاليد الأكثر شبهاً بالفطرة البشرية:

"في الهند لم أشعر أنني غريبة في بلد غريب. أمشي في الشوارع وأنظر إلى الوجوه والسماء والأرض والآثار فأنسى أنني في الهند وأظنّ أنني في مصر. بل أنني رأيت مصر في الهند أكثر مما كنت أراها وأنا في مصر---"[1].

وأيضاً تقول:

"---- لكن صعوبة اكتشاف الهند تشبه إلى حدّ كبير صعوبة اكتشاف النفس --- وهذه هي الهند أيضاً، بقدر ما تعرف نفسك تعرفها"[2].

وأعجب مما قالت أن الهند أحبّ إليها من بلدها مصر فهي تقول بعد تسليط الضوء على ميزات الهند:

"وكم من بلاد زرتها فشعرت بالغربة مع نفسي والناس. بل كم شعرت بالغربة عن نفسي والناس في وطني أحياناً"[3].

وتقول وهي تشير إلى جانب الهند الآمن:

"--- فقد أدركت منذ هبطت على أرض الهند أن إحساساً عميقاً بالراحة والسلام والطمأنينة غمرني"[4].

وهي تمضي قائلةً بالإشارة إلى رحمة الهنود على البهائم والحيوانات الأخرى:

"قلت لنفسي إذا كانت العصافير والأبقار آمنة في الهند فهذا هو سبب شعوري بالأمان والسلام ولكن عرفت بعد ذلك أن الهنود يحترمون الحياة في أي شكل

---

[1] المصدر نفسه، ص 217
[2] المصدر نفسه، ص 189-190
[3] المصدر نفسه، ص 217
[4] المصدر نفسه، ص 192

من أشكالها، وأن الفلسفة الهندية قائمة على تقديس الحياة وعدم قتل أي كائن حيّ وإن كان بعوضة"[1].

تقول وهي تمدح صراحة الهنود في قول ما:

"قرأت اليوم في جريدة الصباح شيئاً طريفاً. إن حاكم ولاية ماهرشترا (عاصمة بومباي) واسمه يافار يونغ اعترف بالأمس في خطابه وهو يفتتح أحد المعارض الكبيرة أنه حينما كان سفيراً في فرنسا رغب في سرقة إحدى التحف الجميلة من متحف في باريس. لكنه قاوم هذه الرغبة ولم يسرق التحفة الجميلة. واستطرد هذا الحاكم الهندي يقول: لا بد أن اعترف أن هذا الإغراء بالسرقة كان أشدّ إغراء تعرّضتُ له في حياتي بالرغم من أنني أميل أحياناً إلى سرقة بعض الأشياء التي تعجبني.

مثل هذا الكلام الصريح يتفق مع طبيعة الهنود البسيطة المباشرة. إنهم يعبّرون عن أنفسهم أحياناً بصدق شديد يدهش الغرباء عنهم. بعض الناس يظنون أن ذلك الصدق نوع من البلاهة أو الغباء أو السذاجة. في مصر حينما يريدون التهكم بشخص ساذج صريح يقولون عنه أنه هندي. لكن احترمت صدق الهنود وصراحتهم. لقد احترمت حاكم ماهرشترا الذي اعترف بأنه يسرق أو يميل إلى السرقة أحياناً. كثير من الحكام يسرقون دون أن يعترفوا بذلك"[2].

وتقول وهي تمدح غيرة أطفال الهند الفقراء:

"--- لكن المنظر الذي لا يمكن أن تنساه هو هؤلاء الأطفال الذين لا يعترضون طريقك، ولا يقولون شيئاً وإنما ينظرون إليك بعينين صامتتين ليس فيهما إلا معنى واحد ملح وصارخ يهتف بغير صوت: نحن جوعى"[3].

وتقول وهي تشير إلى جرأة طيور الهند:

"العصافير هنا في الهند كثير وجريئة وأحياناً تبلغ جرأتها أن تطير فوق رأسي وتخطف الخبز من يدي. إن جرأتها لا تقل عن جرأة البقر الذي يرعى في

---

[1] المصدر نفسه، ص 192
[2] المصدر نفسه، ص 230
[3] المصدر نفسه، ص 195-196

الشوارع ويسير بين العربات السريعة بغير وجل ولا خوف. وسبب ذلك أن الهنود يحترمون كل الكائنات الحية ولا يتعرضون لأي نوع منها بأي أذًى"[1].

وتقول وهي تشير أن الهند تحترم الحرية:

"إحدى الكاتبات واسمها "ساهجال" كتبت تنقد الحكومة وتنقد سياسة إنديرا غاندي وبصرف النظر عن سلامة رأيها أو عدم سلامته فإنها استطاعت أن تعبّر عن نفسها، ولم تستطع الحكومة أن تمنعها بل والأهم من ذلك أن شيئاً لم يحدث لها وظلت صداقتها بإنديرا غاندي كما هي وساهجال تكتب في السياسة، وتكتب أيضاً روايات وقصصاً. في روايتها الأخيرة بعنوان "هذا الظل" تكتشف حياة المرأة المطلّقة في الهند وتنقد كثيراً من التقاليد التي تحيط بالمرأة الهندية"[2].

وتقول في موضع آخر من رحلتها هذه:

"---- وعرفت من بعدُ أن الهنود (وإن كانوا موظفين) تعوّدوا النقاش والنقد الصريح الذي لا يخشى أي رأس في الدولة. وهذا يرجع إلى تعدد الأحزاب في الهند، وإلى وجود أحزاب معارضة تنقد الحكومة وتشجّع الناس على إبداء رأيها بغير خوف"[3].

وتقول مشيرةً إلى بعض طبائع الهنود الجميلة:

"والهنود أيضاً بصفة عامة لا يجيدون المجاملة. فالمجاملة نوع من الكذب الاجتماعي الذي انتشر في العالم وأصبح نوعاً من الرقي والتهذيب. كما أنهم لا يعرفون النفاق الوظيفي كما نعرفه في مصر. ويتعاملون مع وزرائهم وحكّامهم ببساطة وبغير تلك الرعشة التي نراها دائماً في اجتماعاتنا الرسمية"[4].

وتقول وهي ترى أن الغرب عيال على الفلسفة الهندية:

---

[1] المصدر نفسه، ص 206
[2] المصدر نفسه، ص 218
[3] المصدر نفسه، ص 231
[4] المصدر نفسه، ص 231

"إن من يدرس الفلسفة الهندية القديمة يدرك أنها تحتوي على أفكار ومعانٍ أكثر عمقاً من بعض فلاسفة الغرب المشهورين بل إن بعض هؤلاء الفلاسفة العالميين قد أخذوا الكثير من أفكارهم من الفلسفة الهندية القديمة"[1].

وكذلك تثني الدكتورة السعداوي على زعماء الهنود لاسيما المهاتما غاندي وإنديرا غاندي فهي تقول عن الأول بعدما شهدت ما تركه بعد موته:

"وقفت لحظة أتأمل هذه الممتلكات الضئيلة لواحد من أكبر زعماء التاريخ، وأيقنت أن غاندي كان صادقاً في رسالته وكان يستحق الزعامة ويستحق أن يكون قائداً لشعب الهند الكبير. أخذ عقلي يقارن بين ممتلكات غيره من الزعماء في البلاد الأخرى الذين يدّعون في حياتهم أنهم يناضلون من أجل الحق والمساواة والعدل فإذا بهم بعد الوفاة وقد امتلكوا الآلاف والملايين في البنوك داخل البلد وخارجه وامتلك أبناؤهم وبناتهم وزوجاتهم بالمثل أو ما يزيد"[2].

وتقول وهي تشير إلى ميزة الهند عن جهة الدين:

"كنت قرأت شيئاً عن تاريخ الأديان في حياة الإنسان، كيف بدأت ولماذا وكيف تطوّرت من دين إلى دين. لكن الذي يقرأ ليس كالذي يرى. وقد وجدت أن من ميزات الهند أنها تحتوي في جوفها حتى اليوم على تاريخ الأديان من مختلف الأزمنة منذ أن عبد الإنسان الشمس والأفلاك والنار والهواء والحيوانات إلى أن رمز إلى القوى المجهولة من حوله برموز مختلفة، منها آلهة على شكل تماثيل حجرية يراها ويلمسها، ومنها آلهة غير منظورة وغير مرئية إلى أن رمز إلى كل تلك القوى بإله واحد غير منظور وغير مرئي"[3].

السعداوي رحمة للفقراء والعمّال: قد خصّت الدكتورة السعداوي جانباً ملموساً من رحلتها للتعبير عن آلام الفقراء والبائسين وقضاياهم وما شابهها من الأمور المتعلقة بهم فهي بالنسبة لكتاباتها عن الفقراء وقضاياهم قد أصبحت رحمة للفقراء فهي تقول-مثلاً- عن السبب وراء الفقر المتواجد في الهند:

---

[1] المصدر نفسه، ص 240-241
[2] المصدر نفسه، ص 263
[3] المصدر نفسه، ص 269

"--- بعض السيّاح في الهند ينظرون إلى هذا الفقر نظرة رومانتيقية. بعضهم يقف مذهولاً يتألم دون أن يدرك السبب الحقيقي لهذا الفقر. بعضهم يتهم الفقراء بالكسل أو الغباء. بعضهم يقول إن هذه هي إرادة الله والله هو الذي يوزّع الرزق على ما يشاء ويحرم من يشاء. بعضهم يظنّ أن الفقر فلسفة هندية ونوع إرادي من العزوف عن متع الحياة. كل شيئ ممكن أن يفكّر فيه السيّاح إلا السبب الحقيقي. ذلك أن المال الذي ينفقه السائح الواحد منهم في اليوم يكفي لإعالة أسرة هندية لمدة شهر، وذلك أن ثروات الهند الطائلة لم تكن تذهب إلى أصحاب البلد وإنما إلى جيوب الغزاة الأجانب، بل إن جزءًا منها حتى الآن لا تزال تنهبه الشركات الإنجليزية والأجنبية"[1].

وتقول في مكان آخر:

"وجوه الهنود فيها سلام وهدوء، وشيئ من الذلة والانكسار تشبه وجوه بعض الناس في مصر. ترك المغول والإنجليز بصماتهم على وجوه الناس في البلاد التي استعمروها. كانت بصماتهم هنا في الهند أشدّ. ستة قرون وهم يمتصّون ثروات هذا البلد. أهمّ ما خلفوه من آثار هو الفقر"[2].

وتقول عن المهراجات الذين يصرفون أموال الفقراء بصورة جنونية:

"تجوّلت في المدينة بعد ذلك ورأيت تلك الأعداد الهائلة من الرجال والنساء والأطفال الذين يعيشون في بيوت الخيش أو الصفيح يتكدسون فيها وعلى الأرصفة كالذبابات أو كأكوام القمامة كنت أتساءل كيف يمكن لحاكم من الحكام مهما تبلّد عقله وإحساسه كيف يمكنه أن يعيش في كل تلك القصور، وأن ينفق من أموال هؤلاء الفقراء هذا الإنفاق الجنوني. كيف يفعل هذا دون أن يرتعش له جفن؟ ولم يكن خافياً عليّ أن المهراجا لم يكن الحاكم الوحيد الذي فعل هذا كنت أعلم أن الحكام في كل زمان ومكان يفعلون هذا، وجميعهم أيضاً لهم قصور وساحات كبيرة ومنصة عالية يقفون عليها ويخطبون ويتحدثون عن العدالة والمساواة والحق"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص 194-195

[2] المصدر نفسه، ص 232

[3] المصدر نفسه، ص 262

وتقول إن الفقر جاء الهند عن طريق الإنجليز المستعمرين:

"--- ولكن الفقر في الهند أو في مصر أو في أي بلد من بلاد آسيا وإفريقيا ليس إلا أحد مخلفات هؤلاء المستعمرين في أوربا وأمريكا".

وتقول وهي تبيّن أن العمّال في مختلف المجالات لا يجدون إلا لسدّ الرمق بينما ينفقون جهوداً جبارة:

"ومن يتبع الشأي منذ أن يزرع في الحقل إلى أن يصبح فنجاناً من الشأي نشربه يدرك أن وراء هذه المتعة من هذا الفنجان آلافاً من الناس (أغلبهم نساء) الذين يعملون ويكدّون منذ شروق الشمس حتى غروبها نظير بضعة روبيات هندية لا تكفي إلا لسدّ الرمق"[1].

ومن هنا هي تصوّر صورة الفلاحات السيئة قائلة:

"لكن عقلي يشرد بعيداً، وعيناي تتأملان الصف الطويل من الفلاحات اللائي وقفن بجوار اللبن ويبعن اللبن المصنع. إن الواحدة منهن تحمل فوق كتفها طفلاً جائعاً هزيلاً هو أحوج ما يكون إلى هذه الزجاجة من اللبن التي تبيعها. وبعملية حساسية بسيطة وجدت أن كمية اللبن التي تبيعها الفلاحة نظير روبية واحدة تنتج من جبن آمون مات قيمته خمسة عشر روبية. وإذا حذفنا مصاريف المصنع كلها وجدنا أن الفلاحة التي تبيع عشرة أرطال من اللبن تأخذ ثمن رطل وتعطي تسعة أرطال بالمجان"[2].

ولنلخّص هذا بما قالت الدكتورة عن المباني الفخمة مثل التاج:

"في كل مكان أذهب إليه يسألونني- هل رأيت التاج محل؟ وحينما أقول لا، تتسع العيون دهشة وأسمعهم يقولون: إذن أنت لم ترين الهند. وتذكرت "الهرم" في مصر، وكيف يتصوّر الكثيرون أن أهمّ ما في مصر هو هرم خوخو، كما يتصوّر الكثيرون أن أهمّ ما في الهند هو التاج محل. وليست هذه هي الحقيقة في رأيي ولست من هؤلاء الذين يعبدون الآثار والأبنية. ودائماً يراودني هذا السؤال حينما أرى أثراً ضخماً أو بناءً هائلاً: من الذي بناه ولماذا؟ مهما بلغ البناء من

---

[1] المصدر نفسه، ص 210

[2] المصدر نفسه، ص 284

جمال لا أرى جماله إلا بعد أن أعرف القصة وراءه. وكم من قصص أليمة وراء أجمل الآثار والأبنية. وكم من أهرامات وأشباه الأهرامات بنيت بدماء وعرق آلاف العبيد الجوعى"[1].

موازنة بين ما للهند وما للبلاد الأخرى: قامت الدكتورة السعداوي مراراً وتكراراً بين ما للهند والهنود وما للبلاد الأخرى والآخرين من الأفكار والآراء والميزات. إن هذا باب مستقلّ لرحلته هذه لو قمنا بدراستها دراسة مشبعة لأصبح كتاباً ضخماً. وإليكم بعض النماذج لموازنتها هذه:

تقول وهي توازن بين أوراق القات والبيتل:

"ومن أهم الأشياء التي تلفت النظر في الهند تلك العادة الغريبة التي يمارسها الرجال (وبعض النساء) في جميع أنحاء الهند. مهما اتجهت شمالاً أو جنوباً أو شرقاً أو غرباً تدرك أن هذه العادة منتشرة بين معظم الرجال وبين عدد غير قليل من النساء.

ترى الرجل منهم قد جلس، وأخذ يمضغ في فمه شيئاً. وبعد قليل ترى لعاباً أحمر اللون يسيل عند زاويتي فمه. وبعد مدة قد تطول وقد تقصر، تراه يبصق على الأرض لعاباً أحمر بلون الدم.

كنت أندهش حينما أرى شفاه الرجال حمراء من الداخل أو حين أرى تلك البقع الحمراء المنتشرة فوق شوارع أية مدينة في الهند. وأدركت من بعد أن هذا يرجع إلى تلك العادة، عادة مضغ ذلك الشيئ.

ذكّرني هذه العادة برحلتي إلى اليمن، حين رأيت الرجال والنساء في عدن يجلسون ويمضغون القات ويسيل لعابهم من زاوتي الفم. لكن ذلك الشيئ الذي يمضغ في الهند ليس هو القات، وإنما هو ورقة شجرة اسمها "البيتل" يلف داخلها قطع صغيرة من ثمرة تشبه جوزة الهند وقد خلطت بمسحوق أحمر من الجير الحجري على شكل عجينة"[2].

تقول وهي توازن بين نفسية العمّال في الهند وما للآخرين في بلدها مصر:

---

[1] المصدر نفسه، ص 196

[2] المصدر نفسه، ص 255-256

"في مرة من المرات دقّ الجرس رجل سمكري، واكتشفت أثناء وجوده أن إحدى الخنفيات تحتاج إلى جلدة حتى لا يتسرب منها قطرات الماء. وأخرج الرجل أدواته العديدة (تشبه أدوات الطبيب الجراح) وأخذ يفحص الحنفية طويلاً ثم قال في النهاية أنها لم تعد تصلح ولا بد من تركيب واحدة جديدة. وتذكرت الرجل السمكري في مصر الذي كلما أطلبه ليضع جلدة في الحنفية يقول لي إنه لا بد من تركيب حنفية جديدة وبالطبع يطلب ثمناً باهظاً. تذكرت ذلك وقلت للسمكري الهندي: لا، هذه الطريقة أنا أعرفها من مصر. وضحك الرجل الهندي لأنني اكتشفت حيلته ووضع الجلدة في الحنفية نظير أجر بسيط"[1].

وتقول وهي توازن بين ما قالته الجيتا وبين ما يقول زوربا اليوناني:

"وتقول الجيتا إن فن الحياة هو أن تعيش هذه اللحظة الحاضرة لأنها اللحظة الحقيقية الوحيدة، فالماضي مات، والمستقبل لم يولد بعدُ. لا تندم ولا تحزن على أي شيئ مضى، ولا تأمل ولا تخاف من أي شيئ سيحدث في المستقبل. ذكّرني هذا بأغنية زوربا اليوناني حين قال: لا أخشى شيئاً. لا آمل شيئاً. أنا حرّ"[2].

وتقول وهي توازن بين ما تقول الجيتا عن مراحل الحكمة وما يقول الآخرون فهي تقول:

"تقول "الجيتا" إنه بالوصول إلى الحكمة وهذه الدرجة العليا من الوعي فإن الإنسان يصل أيضاً إلى السعادة. هذه السعادة لا يصل إليها الإنسان إلا بعد أن يجتاز ثلاث مراحل:

1. معرفة لذائذ ورغبات جسمه وعقله عن طريق التجربة.
2. التخلص من هذه اللذائذ والآلام معاً والوصول إلى حالة عدم الرغبة في شيئ.
3. الوصول إلى لذة جديدة هي لذة الوصول إلى "النفس"

إذا توقف الإنسان عند أية مرحلة من هذه المراحل يصبح إنساناً شقياً أو مريضاً. لا بد أن يكمل الطريق كله ليصل إلى السعادة الإيجابية الحقيقية. إن المرحلة الأولى وهي معرفة لذائذ الحياة ليست إلا سعادة مؤقتة سلبية. أما المرحلة الثانية

[1] المصدر نفسه، ص 205
[2] المصدر نفسه، ص 247

فهي مرحلة شقاء وتعاسة ومرض نفسي إذا لم يكملها الإنسان بالمرحلة الثالثة ويكتشف اللذة الجديدة.

ويشبه هذا التحليل ما كتبه "إريك فروم" عن الحرية السلبية الإيجابية، وهي تكاد تكون موازية للسعادة السلبية والسعادة الإيجابية. ويقول إريك فروم إن الحرية السلبية وحدها تسبّب القلق والتعاسة والوحدة وغربة الإنسان عن نفسه، أما السعادة الإيجابية فهي تعيد صلة الإنسان بنفسه الحقيقية والعالم من حوله فلا يشعر بالوحدة ولا الشقاء"[1].

وهذا أيضاً كثير.

أوجه التشابه بين الهند ومصر: وبجانب القيام بالموازنة بين الهند والبلاد الأخرى فقد قامت الدكتورة السعداوي بإبراز أوجه التشابه بين الهند وبلدها مصر. ولنعلم أن البلدين يتصل أحدهما بالآخر عن جهات مختلفة وجوانب شتى نذكر طرفاً منها في ضوء ما كتبه الدكتورة السعداوي فهي تقول مقارناً بين أوضاع الهنود والمصريين:

"الوجوه الهندية من حولي تذكّرني بالوجوه في بلدي، وتلك الابتسامة المتواضعة التي تشبه أحياناً ابتسامة من يشعرون بالضعف أو الحرج أو الذل"[2].

وتقول وهذا أوضح من ذلك:

"لا أدري لماذا تذكرت طفولتي وأنا في الهند. ليس تذكراً عادياً بأن أتذكّر حوادث ما ولكنه إحساس قوي طاغ يستولي عليّ حين أنظر في وجوه الأطفال الهنود فإذا بي أحسّ كأنما هذا الطفل الواقف أمامي هو أنا حينما كنت طفلة، وأن تلك النظرة في عينيه هي بالضبط نظرة عيني وأنا طفلة، وأن الطريقة التي ينبهر بها أو يجري أو يلعب بها، أو يحمل بها أخاه الأصغر هي نفسها طريقتي وأنا طفلة"[3].

ولنقرأ ما يلي ولعله يسلط مزيد الضوء على ما قالت هي:

---

[1] المصدر نفسه، ص 249-250
[2] المصدر نفسه، ص 190
[3] المصدر نفسه، ص 195

"إحساس غريب أصبح يلازمني في الهند كلما رأيت طفلاً أو دخلت بيتاً أو معبداً أو مكتباً أو مدرسة أو مستشفًى أو مصنعاً، إحساس غريب كأنما أنا ليست (لستُ) في الهند وإنما في مصر، رغم الاختلاف الظاهري هناك نوع من التشابه الغريب، كأنما الجذور واحدة. وأصبحت وأنا اكتشف الهند كأنما اكتشف مصر، وبدأت أتفهّم تاريخ مصر من تاريخ الهند، وأرى حقائق عن مصر لم أرها وأنا في مصر. ليس ذلك فقط لأن الإنسان لا يعرف بلده إلا وهو خارجها أو لا يرى الشيئ إلا من مسافة، وإنما لأن الملامح العامة في الهند تشبه الملامح العامة في مصر بل أن رائحة الهواء ورائحة التراب تكاد تشبه هواء وتراب مصر"[1].

وتقول وهي توازن بين نفسية العمّال في الهند وما للآخرين في بلدها مصر:

"في مرة من المرات دقّ الجرس رجل سمكري، واكتشفت أثناء وجوده أن إحدى الخنفيات تحتاج إلى جلدة حتى لا يتسرب منها قطرات الماء. وأخرج الرجل أدواته العديدة (تشبه أدوات الطبيب الجراح) وأخذ يفحص الحنفية طويلاً ثم قال في النهاية أنها لم تعد تصلح ولا بد من تركيب واحدة جديدة. وتذكرت الرجل السمكري في مصر الذي كلما أطلبه ليضع جلدة في الحنفية يقول لي إنه لا بد من تركيب حنفية جديدة وبالطبع يطلب ثمناً باهظاً. تذكرت ذلك وقلت للسمكري الهندي: لا، هذه الطريقة أنا أعرفها من مصر. وضحك الرجل الهندي لأنني اكتشفت حيلته ووضع الجلدة في الحنفية نظير أجر بسيط"[2].

وتقول وهي توازن بين أساطير في الهند وأساطير في بلدها مصر:

"ذكّرتني رواية أمريتام بريتام بقصة سمعتها وأنا طفلة من إحدى قريباتي في قريتنا. قالت لي أنها ظلت عشر سنوات لا تنجب وأخيراً نصحتها بعض النسوة بأن تذهب إلى "شيخ" في القرية اشتهر بعلاج عقم النساء بواسطة حجاب من الأحجبة. وتذكرت أنها قالت لي أنها ذهبت إلى ذلك الشيخ الذي أدخلها إلى حجرة مظلمة وجعلها تخلع ملابسها ليعلق لها الحجاب في رقبتها. ودهشت حين سمعت ذلك وقلت لها بسذاجة- طفلة في العاشرة- ولكن أ لم يكن من الممكن أن

[1] المصدر نفسه، ص 196
[2] المصدر نفسه، ص 205

يعلق لك الحجاب في رقبتك دون أن تخلعي ملابسك ودون حاجة إلى الحجرة المظلمة. وقالت قريبتي الريفية وهي تتلعثم- لا، ليس ممكناً، لقد قال لي أن الأرواح الشريرة التي تسبّب لي العقم لا تغادر جسدي إلا في الظلام وبعد أن يصبح جسدي نظيفاً عارياً كما ولدتني أمي.

لم أتذكّر هذه القصة التي وقعت في قريتي كفر طلحة منذ أكثر من ثلاثين عاماً إلا هذا اليوم وأنا في سريري في مدينة دلهي بالهند بعد أن قرأت رواية أمريتا بريتام"[1].

وتقول في موضع آخر:

"--- وفرغت صحونه من الطعام، وامتلأ صدري بالتشاؤم. وخرجت لكن وجهه ظلّ أمامي مليئاً بالتجاعيد. وصوته يذكّرني بصوت جدتي.

كنت طفلة في السادسة، وهي تحكي كل ليلة قبل أن أنام حكاية الغولة. تهزّ رأسها الملفوف بالمنديل الأسود وتردد كأنها تغني وعيناها نصف مغمضتين:-

- هائلة مخيفة ---

- كل إصبع من أصابعها ثلاثة أذرع في عرض ذراعين ---

- وفي رأس كل إصبع منها ظفران حديدان مثل المنجلين ---

- وكان موضع جلوسها قريباً من الأرض ---

- وهي أول من بغى على وجه الأرض ---

- وعمل البخور والسحر ---

- وجاهر بالمعاصي ---

- ولذا أرسل الله عليها أسود (أسوداً) كالفيلة ---

- وذئاباً كالإبل ---

- ونسوراً كالحمير ---

- فقتلوها وأراحوا الأرض من شرها.

[1] المصدر نفسه، ص 223-224

وأخفي وجهي تحت الغطاء وأنا أسأل جدتي بصوت خافت: هل هي جنية البحر؟!

وتردّ جدتي: لا، إنها امرأة من لحم ودم، مثلي ومثل أمك، ومثلك حين تكبرين وتصبحين امرأة مثلنا.

وأهمس من تحت الغطاء: وما اسمها يا جدتي؟

وتهمس جدتي بصوت كفحيح الثعبان: اسمها عناق أم عوج، إحدى بنات آدم لصلبه، لعنها الله وهي وأمها حواء.

أدركت بعد التنقل في أنحاء الهند الشاسعة أن هذا البلد العريق الضخم ينطوي في أحشائه على تاريخ البشرية منذ بدء ظهور الإنسان البدائي حتى عصرنا هذا في الثلث الأخير من القرن العشرين"[1].

هكذا فقد أرت من خلال رحلتها أن الهند ومصر متشابهان في مختلف جوانب تاريخهما.

انتقادات هامّة: وبجانب مدح الهند وأهاليها وفلسفاتها وغيرها من الميزات والخصائص فقد انتقدت الدكتورة السعداوي الهند وأهاليها وفلسفاتها وأشياءً أخرى لم ترض عنها، وهذا جانب منها موضوعي فمثلاً هي عن اختيار الهنود عادات الإنجليز:

"--- لكن الاستعمار الإنجليزي للهند الذي استمرّ حوالي القرنين ترك بعض بصماته على الشخصية الهندية أكثر مما تركها على الشخصية المصرية. كثيراً ما يصادفك ذلك الرجل الهندي الذي يعيش على الطريقة الإنجليزية، فإذا به يضع "البايب" في زاوية فمه، ويتكلم الإنجليزية من أنفه، ويرتدي البالطو الإنجليزي في عزّ الحر، ويشرب شأي الساعة الخامسة والدنيا ملتهبة كجهنّم، وأيضاً هناك كلبه الذي يأخذه كل صباح للتريض"[2].

وهي تقول عن دلهي القديمة وحالتها السيئة:

---

[1] المصدر نفسه، ص 304-305

[2] المصدر نفسه، ص 308

"ولكن سرعان ما تدخل إلى "دلهي" القديمة كما يسمّونها، وتضيق الشوارع وتزدحم بالأجسام والأنفاس، ولا تكاد تعرف الرصيف من الشارع. ولا تكاد تفصل بين تلك المركبات التي تجري فوق الأرض، مركبات تعرف أنها سيارة، أو موتوسيكل، أو عجلة، ومركبات لا تعرف ما إذا كانت سيارة أو موتوسيكلاً أو عجلة أو مزيجاً من كل هذا"[1].

وتقول وهي تنتقد فلسفة الديانة الجينية وأهاليها:

"كنت قد أعجبت كثيراً بموقف الهنود من الحياة واحترامهم لها، لكني لم استطع أن أمنع نفسي من الضحك، على هؤلاء الرجال الحفاة ذي الأقنعة الذين كنت التقي بهم في الشوارع أحياناً. وكنت أندهش لمنظرهم وأظن من ملابسهم البيضاء والقناع الأبيض أنهم أطباء خرجوا لتوهم من حجرة العمليات بحثاً عن مريض هارب، أو أنهم مصابون بمرض في الأنف، أو أنهم مصابون بمرض الوسوسة ويغطون أنوفهم خوفاً من الجراثيم في الجو، أو أنهم نزلاء أحد المستشفيات العقلية. وحينما عرفت أنهم الناسكون في الديانة الجينية وأنهم يغطون أنوفهم ليس حماية لأنفسهم من الجراثيم وإنما حماية للجراثيم منهم قلت لنفسي كم ينقلب المبدأ العظيم أحياناً إلى نوع من الهلوسة والجنون، وكم تنطوي الأديان أحياناً على تناقضات ومبالغات وخزعبلات"[2].

وتقول وهي تنتقد التاج من جانب إنساني جميل:

"وقد رأيت التاج محل في مدينة أجرا، وكما نصحني الناس رأيته في ضوء الشمس ورأيته في ضوء القمر، ولمست بأصابعي جدرانه الرخامية الناعمة تشبه في نعومتها بشرة زوجات الأباطرة والملوك وهبطت السلالم داخله لأرى التابوت الذي دفنت تحته الزوجة والذي رصع بالمرمر والأحجار الكريمة. وقيل لي أن الأموال التي بذلت في بناء التاج محل كانت تكفي لبناء الهند وجعلها أكثر البلاد تقدّماً"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص 193
[2] المصدر نفسه، ص 192-193
[3] المصدر نفسه، ص 197

وتقول وهي تنتقد عبادات الهنود التي تجلب منهم المال الكثير الذي يستحقه الفقراء:

"أشفق على هؤلاء الملايين من الهنود الذين يركعون في معابدهم كل صباح أمام تمثال الإله شيفا ليمنع عنهم المرض أو الجفاف أو الجوع غير مدركين أن الإله شيفا وغيره من الآلهة لا يمنعون الجوع، وإنما الذي يمنع الجوع هو عدالة توزيع ثروات الهند على أهلها وناسها بدلاً من أن تنهبها أقلية في الداخل ومستعمرون في الخارج"[1].

وتمضي قائلة:

"--- أما الإله شيفا فهم يرهبونه ويخافون شره وغدره، ولهذا يغدقون عليه الأموال والطعام درءًا لشرّه. لا يعرف هؤلاء أن هذه الأموال والطعام لا تذهب إلى شيفا وإنما إلى طبقة من الكهنة والنسّاك جعلوا المعبد مؤسسات تدرّ عليهم الخير"[2].

وزدْ على هذا وذاك ما قالت الدكتورة نوال وهو جميل فهي تقول:

"ظاهرة غريبة لاحظتها في معظم المعابد ودور العبادة ذلك أن معظم زوّارها الذين يدفعون الهبات هم من الفقراء. رأيت رجالاً ونساءً يهبون طعام يومهم للمعبد ويصومون اليوم كله بغير طعام. لماذا؟ لأنهم يطلبون من الآلهة مطلباً مثل أن يرزقهم بولد أو يشفي مريضهم أو يحميهم من اضطهاد صاحب الأرض --- إلخ وتتعدد الأسباب ويتكوّم في المعبد الرزق الضئيل لآلاف الهنود الكادحين الأمّيين"[3].

تعليقات جميلة تناسب المحل: فطرت الدكتورة على الانتقاد على كل ما ترى وتشعر فهي تقول مثلاً حينما ترى أن الحارس يدق بعصاه:

"كنت في سريري أقرأ رواية هندية. كانت الساعة الواحدة صباحاً حينما سمعت صوتاً غريباً مزعجاً يدق أرض الشارع. فتحت الشرفة ورأيت رجلاً هندياً يسير

---

[1] المصدر نفسه، ص 228-229
[2] المصدر نفسه، ص 229
[3] المصدر نفسه، ص 229

بخطوات بطيئة في يده عصا غليظة، وفي كل خطوة يدق الشارع بعصاه. وظننت أنه "المسحراتي" الذي يطوف ببعض الشوارع في مصر أثناء رمضان ليوقظ الناس ليتناولوا طعام السحور. وسألت زوجي: هل هذا مسحراتي وهل يصوم الهنود رمضان أيضاً؟

وضحك زوجي لهذا السؤال وقال- ليس هذا مسحراتي. إنه الخفير الذي يشرف على الأمن في هذه المنطقة.

وسألت: ولماذا يدق الأرض بذلك الصوت العالي؟

وقال زوجي: ليعرف سكان البيوت أنه يقظ وأنه ساهر لحمايتهم.

قلت: ولكنه بهذا الصوت يعلن للصوص عن الشارع الذي يحرسه فيسرعون إلى شارع آخر حيث يسرقون الناس وهم مطمئنون إلى عدم وجود الحارس.

وضحك زوجي قائلاً: هذا بالضبط ما يحدث. إن عصا هؤلاء الحرّاس لا تفعل شيئاً سوى إزعاج النائمين أو تنبيه اللصوص إلى مكان الحارس"[1].

فمن خلال حكاية الأشياء وتصوير الأمور وذكر الشئون نجد أن الدكتور تخلف لنا تعليقات جملة تناسب المحل والموقع. وهذه هي التعليقات التي تنبئ عن جانب الكاتبة الإنساني والنقدي فهي تعلّق مثلاً بعد أن رأت علامة "تاتا" على مختلف منتوجات الهند:

"لاحظت أن معظم هذه اللوريات تحمل اسم "تاتا" وسألت من هو "تاتا" فعرفته أنه مليونير هندي يملك اللوريات والفنادق وعدداً من الشركات والمشروعات التجارية والصناعية في الهند. في كل مكان في الهند لا بد أن ترى اسم "تاتا" فوق أي شيئ. لا زالت ثروات الهند الطائلة تذهب إلى جيوب حفنة قليلة من الناس بعضهم هنود وبعضهم إنجليز، رغم استقلال الهند إلا أنها لا تزال جزءًا من "الكومونيلث" ولا زال أصحاب الأرض وأصحاب الرأسمال يدعمون النظم الإقطاعية والرأسمالية ويحاربون بكل قوة أي اتجاه اشتراكي"[2].

وتقول عن الشأي وهذا تعليق جميل:

---

[1] المصدر نفسه، ص 203-204

[2] المصدر نفسه، ص 208-209

"إن زراعة الشأي وجمعه وصناعته في الهند عمل نسائي في معظمه، ومن يتبع الشأي منذ أن يزرع في الحقل إلى أن يصبح فنجاناً من الشأي نشربه يدرك أن وراء هذه المتعة من هذا الفنجان آلافاً من الناس (أغلبيتهم نساء) الذي يعملون ويكدون منذ شروق الشمس حتى غروبها نظير بضعة روبيات هندية لا تكفي إلا لسدّ الرمق"[1].

وعلّقت حينما سمعت أن الشأي ذا الدرجة الأولى لا يبلغ إليه أيدي العمال:

"وهكذا علمت أن هؤلاء النساء والرجال الذين يعملون طول النهار في مزارع الشأي ومصانعه لا يتذوّقون طعم الشأي الذي يزرعوه ويصنعوه بأيديهم وعرقهم ودمهم"[2].

وتعلّق حينما علمت أن حواس الإنسان أدق من الآلات:

"ولا أدري كيف سررت من هذه الحقيقة، فقد أكّد هذا الكلام إيماني بأن حواس الإنسان إذا درّبت تكون أكثر دقة وكفاءة من أية آلة فالإنسان هو الذي اخترع الآلة، لكن كم تنسى المجتمعات الصناعية المتقدمة هذه الحقيقة ويضعون الآلة فوق الإنسان ويجعلون البشر عبيداً لها"[3].

وتعلّق حينما رأت جميل نظام الإسعاف الطبي للجواميس:

"ودخلت إلى القسم الطبي، ورأيت عدة أجهزة التليفون وعاملاً خاصاً يتلقى الإشارات التليفونية التي تعلن عن مرض جاموسة في أي مكان في المنطقة. وبعض أطباء بيطريين في وضع الاستعداد دائماً للإسراع بسيارة الإسعاف إلى الجاموسة المريضة. وحقائب إسعاف وأدوية حديثة وكل شيئ.

إن مركز إسعاف الجاموس هذا أكثر كفاءة من كثير من مراكز إسعاف المرضى من البشر في بلاد كثيرة بل في هذه المنطقة بالذات، ترتفع نسبة وفيات الأطفال والكبار بسبب سوء الرعاية الصحية وانتشار الأمراض"[4].

---

[1] المصدر نفسه، ص 210
[2] المصدر نفسه، ص 217
[3] المصدر نفسه، ص 215
[4] المصدر نفسه، ص 286

وهي تمضي قائلاً:

"وبينما نحن نغادر المصنع رأينا من خلال الشورودوه الجاموس المتوردة ذات الصحة الجيدة، ولم نكن قد نسينا منظر وجوه الأطفال والأمهات الضامرة الشاحبة فقال زوجي للمهندس الهندي ضاحكاً: إذا كانت مسألة تناسخ الأرواح حقيقية كما تقول "الجيتا" فإني أودّ أن تلبس روحي بعد وفاتي جسد جاموسة في "أناند"[1].

السعداوي تتصعب للنساء: وبجانب الحديث عن الهند وما والاها فنرى الدكتورة السعداوي أنها تفضّل أن تتكلم مع النساء وتتحدث عنهن وعن قضاياهن أكثر مما تعتني بالرجال وشئونهم فتقول وهي تشير إلى الكدح الذي تعاني منه البنت الهندية:

"قبل أن تبلغ البنت العاشرة تذهب مع أمها إلى الحقل لتعمل في مزارع الشأي، أو إلى المصنع لتشارك في صناعة الشأي. في بعض القرى يعمل الأولاد والرجال أيضاً. ولكن هناك مناطق لا يعمل فيها إلا النساء والبنات، أما الرجال فهم الجنس الأسمى العاطل الذي يتزيّن ويرقص في الحفلات الدينية ويجلس طول النهار أمام البيوت يدخن ويشرب ويلعب الطاولة أو النرد"[2].

وتقول وهي تبيّن أن الأولاد والرجال لهم نصيب أكثر من نصيب البنات والنساء:

"لكن المرأة الهندية بصفة عامة لا تزال حريصة على إرضاء الرجل. معظم الأسر في الهند أبوية، الرجل هو الذي يسيطر والأطفال الذكور يحظون برعاية أكثر وطعام أفضل وتعليم أكثر من الأطفال البنات"[3].

وتقول وهي تتحدث عن أهمية الولد وذلة البنت بجانب إطراء البنات اللائي لا يقبلن الزواج مع المهر:

---

[1] المصدر نفسه، ص 286-287
[2] المصدر نفسه، ص 210
[3] المصدر نفسه، ص 225

"--- أما الآن فيفرح الآباء والأمهات بالأطفال الذكور ولا يفرحون بالأطفال البنات. الابن كبيضة الذهب أما البنت فهي تدفع المهر وتدفع عمرها من أجل الزوج والأطفال دون أن تأخذ شيئاً.

لكن هناك جيلاً جديداً من البنات الهنديات اللائي يثرن على هذا النظام ويرفضن دفع المهر للعريس، بل يرفضن الزواج كلية ما دامت عقلية الرجل الهندي أصبحت تنظر إلى الزوجة كمخلوق أقل من الرجل"[1].

وكذا تقول وهي تتحدث عن البعد المكاني بين الزوجين هو خطأ منها بيّن:

"---- إن الزوجين السعيدين هما اللذان يعيشان في حجرتين منفصلتين لتظل بينهما مسافة وحينما تطوّر تفكيري كنت أقول إن الزوجين السعيدين هما اللذان يعيشان في شقتين منفصلتين ولكني الآن وبعد أن نضج تفكيري أقول إن الزوجين السعيدين هما اللذان يعشقان في بلدين منفصلين. إن البعد يضعّف العلاقات الزوجية الهشة لكنه يقوّي العلاقات المتينة القائمة على أساس من الحب الحقيقي والفهم والتقدير"[2].

الدكتورة تمدح النساء الهنديات اللائي تقدّمن في مجال ما ولكنها بعد ذلك تنتقد أنهن لم تبتعدن عن التقاليد المحيطة بهن فهي تقول كما يلي:

"المرأة كالرجل تركب الدراجة أو الموتوسيكل رغم الساري الطويل الذي يطيره الهواء أو يشبك طرفاً من أطرافه في جنزير الدراجة. تناقضٌ غريبٌ لا زال يحيط بالمرأة الهندية العاملة، لقد كسرت الحواجز وأقدمت على كل شيئ سوى أن تخلع "الساري" الذي أجمعت نساء الهند على أنه زيّ غير عمليّ يعرقل خطواتها وتتعثر فيه وهي تركب الأتوبيس أو الدراجة بل وهي تسير فوق الأرض"[3].

ليس هذا فحسب بل الدكتورة السعداوي تزعم أن الأدب الذي أنتجه النساء الأديبات هو أجذب مما أنتجه الرجال الأدباء فهي تقول:

---

[1] المصدر نفسه، ص 255
[2] المصدر نفسه، ص 199
[3] المصدر نفسه، ص 224

"لم أكن متحمسة للقاء الأدباء الرجال. ليس ذلك لكونهم رجالاً ولكن لأنني وجدت بين إنتاج النساء ما استوقفني. وبمثل ما استوقفني كفاح المرأة الهندية في السياسة ونشاطها في الأحزاب استوقفني أدب المرأة الهندية. وبمثل ما أعجبت بشجاعة إنديرا غاندي وقوتها في حسم الأمور أعجبت بشجاعة المرأة الهندية التي تمسك القلم وتكتب"[1].

أوهام السعداوي: وبجانب أشياء جميلة قدّمها الدكتورة السعداوي فقد جانبها الصواب في التعبير عن أشياء أو معالجة أمر ما ولو أن هذه الأشياء أو تلك الأمور ليست بكثيرة ولكن أريد أن أشير إلى بعض منها كيلا يحكم عليّ النقّاد بأني متحيّز للدكتورة السعداوي أو غير عادل في دراستي لهذه الرحلة.

تقول السعداوي وهي تفضّل أن يعيش الزوجان منفصلين في دارين بعيدتين بعد الثريا فهي تقول:

"---- إن الزوجين السعيدين هما اللذان يعيشان في حجرتين منفصلتين لتظل بينهما مسافة وحينما تطوّر تفكيري كنت أقول إن الزوجين السعيدين هما اللذان يعيشان في شقتين منفصلتين ولكني الآن وبعد أن نضج تفكيري أقول إن الزوجين السعيدين هما اللذان يعشقان في بلدين منفصلين. إن البعد يضعّف العلاقات الزوجية الهشة لكنه يقوّي العلاقات المتينة القائمة على أساس من الحب الحقيقي والفهم والتقدير"[2].

ومن هذا النوع ما قالته السعداوي كما يلي:

"في نيو دلهي عاصمة الهند نزلت ضيفة على زوجي الذي يعمل في الهند منذ عامين"[3].

هذا الرأي مبني على خطأ فاحش فإن الزواج لا يعني أن يعيش الزوجان منفصلين أو في بلدين وفلسفة "البعد يجدّد الحب والشوق" في معظم الأحيان يضّل الزوجين ويسقطهما في ارتكاب الفواحش فما قالته الدكتورة السعداوي لا تؤيده الفطرة البشرية ففي الزوجة فراغ ما يملأه الزوج ولا غير.

---

[1] المصدر نفسه، ص 218
[2] المصدر نفسه، ص 199
[3] المصدر نفسه، ص 198

وتقول السعداوي فارقاً بين ما أنتجه الأدباء الرجال وما أنتجته الأديبات النساء:

"لم أكن متحمسة للقاء الأدباء الرجال. ليس ذلك لكونهم رجالاً ولكن لأنني وجدت بين إنتاج النساء ما استوقفني. وبمثل ما استوقفني كفاح المرأة الهندية في السياسة ونشاطها في الأحزاب استوقفني أدب المرأة الهندية. وبمثل ما أعجبت بشجاعة إنديرا غاندي وقوتها في حسم الأمور أعجبت بشجاعة المرأة الهندية التي تمسك القلم وتكتب"[1].

ولعل قول الدكتورة السعداوي هنا لا يقوم على العدل والإنصاف فإن معظم كتابات الأدباء الرجال رائعة قيّمة بينما ما تكتبه الأديبات النساء معظمها مليئ بالكتابة الفاحشة ولعل هذا هو السبب وراء ترجيح الدكتورة أدباً مخلوقاً بالنساء على أدب مخلوق بالرجال.

تقول الدكتور السعداوي وهي تبيّن الفرق بين الراكبين والراكبين:

"---- ويمكنك أن تبيّز الطبقات وأنت سائر في الشارع، الذين يركبون السيارات هم طبقة الحكام والأثرياء من الهنود والأجانب وذوي المهن المربحة العالية. الذين يركبون الموتوسيكلات هم طبقة صغار التجار وصغار الموظفين. الذين يركبون العجلات هم أبناء الطبقة الفقيرة والطبقة العاملة. أما أدنى طبقة في الهند فهم الذين لا يركبون شيئاً وإنما هم الذين يجرّون العجلات (كما يجرّها البقر أو الحمير)[2]

فالقسمة التي بيّنها الدكتورة السعداوي ليست بعادلة بل هي ضيزى والحق أن الأثرياء أيضاً يؤثرون على أن يركبوا السيارات الصغيرة والموتوسيكلات وأما راكبوا الأتوبيس فمعظمهم من التجار الصغار وأكثرهم من الطبقة الدنيا كما شهدتهم في دلهي أو مدينة أخرى كبيرة.

وتقول وهي تبحث عن أسباب الفقر في الهند:

"وجوه الهنود فيها سلام وهدوء، وشيئ من الذلة والانكسار تشبه وجوه بعض الناس في مصر. ترك المغول والإنجليز بصماتهم على وجوه الناس في البلاد

---

[1] المصدر نفسه، ص 218

[2] المصدر نفسه، ص 194

التي استعمروها. كانت بصماتهم هنا في الهند أشدّ. ستة قرون وهم يمتصّون ثروات هذا البلد. أهمّ ما خلفوه من آثار هو الفقر"[1].

ولعل قول الدكتورة السعداوي هذا مليئ بالمبالغة فإن الملوك والأباطرة قد قدّموا خدمات جليلة تجاه الشعب وما خلفوه من التراث العلمي والأثري يستفيد منه الهنود حتى الآن فالتاج بني لقطع دابر الفقر لا على أموال الفقراء.

هذا وأشياء أخرى زلّت فيها قدما الدكتورة السعداوي فلم تنصف الدكتورة في بيانها والإشارة إلى ما هو الحق.

زلات السعداوي: بجانب أدبية هذه الرحلة الرائعة قد وجدنا في بعض المواضع أن الدكتورة نوال السعداوي قد جانبها الصواب في استخدام القواعد اللغوية والتعابير الأدبية الأخرى فنذكر فيما يلي بعض هذه الزلات ويمكن أن تكون هي من نوع الأخطاء المطبعية ولكن بعض هذه الأخطاء التي هي فاحشة إلى حدّ لا نعتبرها مطبعية فمثلاً أنها تكتب "إنّ" "أنّ" في موضع يأتي فيه "يقول" أو "تقول" فالصحيح في مثل هذه الأوضاع "إنّ" وإليكم بعض هذه الأخطاء:

الخطأ	الصواب
--- ولكنهم في حقيقة أمرهم لا يستطيعون مواجهة عينين سوداوين مفتوحتين تنظران إليهم دون أن ترمشان، ص 191	--- ولكنهم في حقيقة أمرهم لا يستطيعون مواجهة عينين سوداوين مفتوحتين تنظران إليهم دون أن ترمشا.
لا أدري لماذا تذكّرت طفولتي وأنا في الهند. ليس تذكراً عادياً بأن أتذكّر حوادث ما، ص 195	لا أدري لماذا تذكّرت طفولتي وأنا في الهند. ليس تذكراً عادياً بأن أتذكّر حادثة ما،
هؤلاء هم الأطفال المحظوظون الذني خرجوا من بيوتهم ليلعبون في الشوارع ---، ص 195	هؤلاء هم الأطفال المحظوظون الذين خرجوا من بيوتهم ليلعبوا في الشوارع ---
وإنما ينظران إليك بعينين صامتتين	وإنما ينظران إليك بعينين صامتتين

[1] المصدر نفسه، ص 232

ليس فيهما إلا معنًى واحداً ملحاً وصارخاً يهتف بغير صوت، ص 196	ليس فيهما إلا معنًى واحدٌ ملحٌّ وصارخٌ يهتف بغير صوت،
--- إحساس غريب كأنما أنا ليست في الهند وإنما في مصر، ص 196	--- إحساس غريب كأنما أنا لستُ في الهند وإنما في مصر،
في بعض المناطق تعمل المرأة وتعول أطفالها وأزواجها هذا إذا لم يسيطر عليها الرجل ويستولي على أجرها كما يحدث، ص 212	في بعض المناطق تعمل المرأة وتعول أطفالها وأزواجها هذا إذا لم يسيطرْ عليها الرجل ويستولِ على أجرها كما يحدث،
وهكذا علمت أن هؤلاء النساء والرجال الذين يعملون طول النهار في مزارع الشأي ومصانعه لا يتذوّقون طعم الشأي الذي يزرعوه ويصنعوه بأيديهم وعرقهم ودمهم، ص 217	وهكذا علمت أن هؤلاء النساء والرجال الذين يعملون طول النهار في مزارع الشأي ومصانعه لا يتذوّقون طعم الشأي الذي يزرعونه ويصنعونه بأيديهم وعرقهم ودمهم،
كنتُ في رحلاتي السابقة أسأل أهل الهند عن أدبائهم وأديباتهم. ويذكروا إلي بعض الأسماء المشهورة، ص 218	كنتُ في رحلاتي السابقة أسأل أهل الهند عن أدبائهم وأديباتهم. وذكروا لي بعض الأسماء المشهورة،
وساهجال تكتب في السياسة وتكتب أيضاً روايات وقصص ---، ص 218	وساهجال تكتب في السياسة وتكتب أيضاً روايات وقصصاً ---،
ولكن لم يستطيع أي إله منهم أن ينفعها بشيئ----، ص 219	ولكن لم يستطع أي إله منهم أن ينفعها بشيئ----،
إن الروائية والشاعرة "أريتا برتام" إحدى هؤلاء اللاتي نقدت بشعرها ونثرها كل ما هو مزيّف، ص 221	إن الروائية والشاعرة "أريتا برتام" إحدى هؤلاء اللاتي نقدنَ بشعرهنّ ونثرهنّ كل ما هو مزيّف،
وقال الأب- لا. إنها امرأة مثالية. أنا	وقال الأب- لا. إنها امرأة مثالية. أنا

الذي خدعتها في أول زواجها، ص 222	الذي خدعها في أول زواجها،
بعض النساء يقولون أن الساري فيه أنوثة ---، ص 224	بعض النساء يقلن/قالتْ إن الساري فيه أنوثة ---،
بعض الأحزاب السياسية من ذوي الميول الرأسمالية والإقطاعية تستغلّ هذه العادة القديمة، ص 228	بعض الأحزاب السياسية من ذوات الميول الرأسمالية والإقطاعية يستغلّ هذه العادة القديمة،
قرص الشمس اختفى تماماً ولم يبق إلا اللون الأحمر فوق السحب وقمم الأشجار، نسمة باردة هبّت وسقطت ظلال قائمة فوق البناء القديم ذي الرأس السوداء، كرأس الغول، ص 232	قرص الشمس اختفى تماماً ولم يبق إلا اللون الأحمر فوق السحب وقمم الأشجار، نسمة باردة هبّت وسقطت ظلال قائمة فوق البناء القديم ذي الرأس الأسود، كرأس الغول،
ولكن بعض الهنود قالوا لي أن طفل من لحم ودم لا يمكن أن يولد من فخذ رجل، ص 233	ولكن بعض الهنود قالوا لي أن طفلاً من لحم ودم لا يمكن أن يولد من فخذ رجل،
يعالج الإنسان هذا التناقض بأن يفصل بين الدين والعلم، ويجعل الرأس مفصولاً عن القلب، والروح مفصولة عن الجسد، والفكر مفصول عن الواقع الحي، ص 235	يعالج الإنسان هذا التناقض بأن يفصل بين الدين والعلم، ويجعل الرأس مفصولاً عن القلب، والروح مفصولة عن الجسد، والفكر مفصولاً عن الواقع الحي،
--- لكن هذا لا يعني أنك يمكن أن تكتبي شعراً أو أدباً جيداً بلغة لا تتقنيها، ص 235	--- لكن هذا لا يعني أنك يمكن أن تكتبي شعراً أو أدباً جيداً بلغة لا تتقنينها،
--- ولكن كم يأخذ هؤلاء العلماء الأوربيين من الفلسفات القديمة، ص	--- ولكن كم يأخذ هؤلاء العلماء الأوربيّون من الفلسفات القديمة،

241	
--- وهو يتطلب جهدٌ وصبراً وقدرة على التركيز، ص 246	--- وهو يتطلب جهداً وصبراً وقدرة على التركيز،
أنسي نفسك أو أعط نفسك كلية لهذه اللحظة، ص 247	أنسِ نفسك أو أعطِ نفسك كلية لهذه اللحظة،
هذه القوة التي لا توصف (تسميتها الجيتا المايا) مثل قوة الكهرباء، ص 247	هذه القوة التي لا توصف (تسمّيها الجيتا المايا) مثل قوة الكهرباء،
قضيت عدة أيام ولياليِ أقرأ "الجيتا"، وأفكّر، وأتذكّر كثير مما قرأته حديثاً وقديماً، ص 251-252	قضيت عدة أيام ولياليَ أقرأ "الجيتا"، وأفكّر، وأتذكّر كثيراً مما قرأته حديثاً وقديماً،
كانت "الجيتا" أشبه بعمل فني عظيم يثير أحاسيس وأفكاري بل أشبه، ص 252	كانت "الجيتا" أشبه بعمل فني عظيم يثير أحاسيسي وأفكاري بل أشبه،
لهذا السور ثماني بوابات ضخمة، أحدهما بوابة ملكية لا يدخل منها السياح، ص 254	لهذا السور ثماني بوابات ضخمة، إحداها بوابة ملكية لا يدخل منها السياح،
إنه مون سنغ الأول وقد عاش في القرن السادس عشر وكان رئيس في عهد الحاكم المغولي "أكبر"، ص 261	إنه مون سنغ الأول وقد عاش في القرن السادس عشر وكان رئيساً في عهد الحاكم المغولي "أكبر"،
إذا كنت سائحاً وذاهباً إلى غرب الهند يقولون لك اذهب إلى أودايبور، ص 262	إذا كنت سائحاً وذاهباً إلى غرب الهند قالوا/فيقولون لك اذهب إلى أودايبور،
وفي الدين البوذي ليس هناك آلهة. وبوذا ليس إلا إنساناً وصل إلى تلك	وفي الدين البوذي ليس هناك آلهة. وبوذا ليس إلا إنسانٌ وصل إلى تلك

الدرجة العليا، ص 270-271	الدرجة العليا،
--- لأن الأرز ممنوع في تلك اليوم، ص 272	--- لأن الأرز ممنوع في ذلك اليوم،
يرتدون فوق رؤوسهم عمامة ضخمة ليست إلا حبلاً طويلاً ملفوفاً فوق الرأس عدة مرات، ص 277	يرتدون فوق رؤوسهم عمامة ضخمة ليست إلا حبلٌ طويلٌ ملفوفٌ فوق الرأس عدة مرات،
لكل علمٍ المتخصصون فيه، ص 278	لكل علمٍ متخصص فيه،
إن بها اثنين وعشرين معبداً وآثاراً قديمة تدل على عظمة فن النحت الهندي، ص 282	إن بها اثنين وعشرين معبداً وأثراً قديماً تدل على عظمة فن النحت الهندي،
أن كمية اللبن التي تبيعها الفلاحة نظير روبية واحدة تنتج من جبن آمون مات قيمته خمسة عشر روبية، 284	أن كمية اللبن التي تبيعها الفلاحة نظير روبية واحدة تنتج من جبن آمون مات قيمته خمس عشرة روبية،
إذا لم يستطيع الإله أن ينقذ نفسه من الموت، ص 289	إذا لم يستطع الإله أن ينقذ نفسه من الموت،
--- جلباب ممزّق تفوح منه رائحة قمامة ووجه شاحب تشتعل فيه عينين سوداوين بوهج الجوع ---، ص 294	--- جلباب ممزّق تفوح منه رائحة قمامة ووجه شاحب تشتعل فيه عينان سوداوان بوهج الجوع ----،
ولذا أرسل الله أسود كالفيلة، ص 304	ولذا أرسل الله أسوداً كالفيلة،
والوجه ليس إلا جمجمة تلتهب في وسطها عيناه سوداوان واسعتان ----، ص 305	والوجه ليس إلا جمجمة تلتهب في وسطها عيناه السوداوان الواسعتان --،
وكشف الفيلسوف الهندي عن أسنان بيضاء في وجه شديدة السمرة، ص 311	وكشف الفيلسوف الهندي عن أسنان بيضاء في وجه شديد السمرة،

الملخص: يبدو من دراسة هذه الرحلة أن الدكتورة نوال السعداوي لم تزر الهند وأهاليها كسيّاحة عادية تشهد بعض معالمها وتقيم في أعلى فنادقها وتلذ بأنواع من أطعمتها بل هي لقيت أهاليها عن كثب ودرست تراثها فمدحتها وما خلفه أبناؤها وبناتها من المحامد والمحاسن كما انتقدت عاداتها ومواسمها ومعالمها مما لم ترض عنها. إنها تأثرت بالوطن وأهاليه تأثراً شديداً حتى اعتبرت هذه البلاد مثل بلدها مصر بل أكثر منها. إنها حظيت هنا بما لم تحظ به في أي مدينة من مدن البلدان وفي أي بقعة من بقاع العالم. وفوق ذلك أن لها قلباً ثائراً جياشاً مليئاً بالحب الخالص للهند وأهاليها وتراثها وما خلفته الهند وأبناؤها وبناتها في مختلف مجالات الحياة لا سيما الأدب وحقوله المختلفة. وإنها كذلك تطوي بين جنبيها جانباً خاصاً للنساء فإنها تحبّ وتفضّل ما خلفنه من الآداب وما اتصفن به من العادات والتقاليد لا سيما الشجاعة والغيرة اللتين ربما يفقدهما الرجال ذوو الهموم والعزائم.

وبالجملة فهذه ليست رحلة عادية بل هي مذكرة سائحة جدية تحبّ الإنسانية وكتابة أديبة مخلصة يجيش خاطرها للناس كما هي لا تغفل عن الحيوانات وحشرات الأرض بل تعتني بها اعتناءًا شديداً.

احتفالات اليوم العالمي للغة العربية في كيرالا، الهند

- أ. د. حسين أبو بكر كويا مدوور

كيرالا، الهند: احتفلت المؤسسات التعليمية في ولاية كيرالا، الهند باليوم العالمي للغة العربية في نطاق واسع في 18/دسمبر 2012م بعدد من البرامج الثقافية والعلمية. وهذا اليوم يحتفل بقرار من هيئة الأمم المتحدة (United Nations Organization) لترويج اللغة العربية في العالم. ولقد تمّ اختيار 18/دسمبر للاحتفال بالعربية لأنها اعترف بها لدى الأمم المتحدة في هذا اليوم عام 1973م. وكان البرنامج الرئيسي حفل افتتاح اليوم العربي والذي أقيم في كلية روضة العلوم العربية في فاروق، كاليكت حيث شرّفها الملحق الثقافي في سفارة المملكة العربية السعودية لدى الهند، الدكتور علي بن محمد علي الشهري نيابة عن السفير السعودي الدكتور سعود الساطي، وقام بافتتاح الحفل قائلاً بأن اللغة العربية لغة القرآن والسنة وجميع العلوم الإسلامية فعلى المسلمين معرفة العربية لحياتهم الدينية. وأما بالنسبة لأهميتها في مجالات التجارة والصناعة والسياسة والعمل والاستثمار، فلا ينكرها أحدٌ لديه معرفة قليلة حول ما يحدث في العالم. وعبّر عن سروره بعلمه أنّ أكثر من ثلاثة ملايين شخص من كيرالا يعملون في البلدان العربية، ولكن لعدم معرفتهم بهذه اللغة لا يقدرون أن يحصلوا على رواتب طيبة. فإذا اهتموا بها قبل سفرهم إليها ليكون لهم فرص أكثر وبرواتب مغرية. ومن ميزة هذه اللغة أنها قادرة على التمشي في الصف الأول في عالم الأدب والثقافة.

وكان نائب سفير الجمهورية اليمنية في الهند، الأستاذ محمد عثمان المخلافي ضيف الشرف في الحفل. وألقى ضوءًا حول العلاقات القديمة التي كانت

للهند مع البلاد العربية واستمراريتها، وأثنى على حكومة الهند وشعبها للخدمات الجليلة التي تقدّمها لترقية اللغة العربية. ولا يخفى على أحد ما بذله علماء الهند من الجهود المضنية لصيانة العلوم العربية والإسلامية طوال قرون عديدة.

وألقى الدكتور حسين أبو بكر كويا مدوور، عميد الكلية والمشرف على دعاة رابطة العالم الإسلامي في ولايات جنوب الهند كلمة ترحيبية بالمشاركين في الندوة العربية، وأوضح بأن في كيرالا أكثر من مليون طالب يدرسون اللغة العربية في المدارس الحكومية، وحكومة كيرالا عيّنت أكثر من عشرة آلاف مدرّس لتعليم العربية في المدارس التي تدرّس العربية والبالغ عددها حوالي 7000 مدرسة. وأما بالنسبة للمستوى الجامعي فإن أكثر من 100 كلية تدرّس اللغة العربية وكذلك في كيرالا يوجد في خمس جامعات حكومية رئيسية تدريس العربية حتى مستوى الدكتوراه. هذه كلها بالإضافة إلى المدارس الدينية الأهلية التي لها قدم سبق في مجال تعليم اللغة العربية.

ولقد كان هناك ندوة حول موضوع الطرق والأساليب الحديثة لتعليم اللغة العربية وقدّم فيها كل من الدكتور جمال الدين الفاروقي والدكتور عبد الجبار. أن. والدكتور أشرف كي. والأستاذ محمد طيب والدكتور مصطفى الفاروقي والأستاذ محمد كوتاشيري ورقات في المواضيع المتعلقة بتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها. وكان هناك ملتقى لدارسي العربية وتم النقاش فيها حول جهود العلامة أبو الصباح أحمد علي الأزهري رحمه الله رائد النهضة التعليمية في كيرالا ومؤسس مجمع روضة العلوم التعليمي الذي يدرس فيها أكثر من 8000 طالب وطالبة في مدارسه وكلياته، وكان تأسيسه قبل 70 سنة في عام 1942م. وشارك تلاميذ الشيخ أبو الصباح بذكرياتهم الطيبة مع أبي الصباح ودوره في تكوين شخصياتهم وأخلاقهم.

كما أنه نظم اتحاد مدرسي العربية في كيرالا (KATF) والمجلس الحكومي للبحوث التربوية والتدريب (SERT) ندوات وورشة عمل عن تعليم العربية.

الدورة التنشيطية الحكومية
حول النقـــــــــــد الأدبي العربي
في جامعة مولانا أبي الكلام آزاد الأردوية الوطنية

إعداد: د. أورنك زيب الأعظمي

النقد له دور مهمّ في تطهير الأدب وتطويره فهو ناصح أمين ودليل مخلص لا ينال جزاءًا من الأديب، ويؤدّي واجبه مخلصاً نيته، بعيداً عن المنافع الشخصية التافهة. نظراً لهذه الأهمية البالغة للنقد عزم أصحاب قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة مولانا أبي الكلام آزاد الأردوية الوطنية، حيدراباد، على أن يعقدوا دورة تنشيطية حكومية حول الموضوع الرئيسي "النقد الأدبي العربي" تحت رعاية كلية تدريب الأساتذة الجامعيين التابعة لـ"يو. جي. سي" في المدة ما بين 2013/01/04م و2013/01/24م برحاب الجامعة بحيدراباد، ولاية آندهرابراديش (الهند).

بدأت هذه الدورة في الساعة الحادية عشرة صباحاً بكلمة البروفيسور عبد المعزّ، رئيس قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مولانا أبي الكلام آزاد الأردوية الوطنية، حيدراباد. في كلمته الافتتاحية أوجز البروفيسور عبد المعز أهمية النقد الأدبي ثم قام الدكتور ثناء الله الندوي، الأستاذ المشارك، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، ولاية أوترابراديش وألقى كلمته الرئاسية التي ذكر فيها أهمية النقد ودوره في تطوير الأدب وتزكيته، وبعد ذلك قام البروفيسور بي فضل الرحمن، مدير الكلية وذكر بعض المبادئ المكنونة وراء عقد مثل هذه الدورات التنشيطية. انتهت هذه الجلسة بكلمة شكر قدّمها المنسّق الندوة الدكتور جاويد نديم الندوي، أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مولانا أبي الكلام آزاد الأردوية الوطنية.

وابتدأت الجلسة الثانية بعد الساعة الثانية والربع مساءًا وألقى فيها الدكتور ثناء الله الندوي، أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، محاضرة حول موضوع "الأسلوب: بين عرض ونقد" فذكر فيها معنى الأسلوب لغة واصطلاحاً كما بيّن طريقتي إيصال الفكرة؛ الطريقة الذاتية والطريقة الموضوعية بتفاصيلهما. هاتان الطريقتان باعتبار التجربة وأما باعتبار ميزات الأسلوب فهي ثلاث طرائق أحدها الطريقة العلمية وثانيتها الطريقة الأدبية وثالثتها الطريقة العلمية المتأدبة وكذا ذكر قسمي الأسلوب؛ الخبري والإنشائي ومن ثم ذكر تنظيرات في الأسلوب فذكر معظم البلاغيين بخصوص حازم القرطاجني (ت 684هـ). انتهت هذه المحاضرة بعد الساعة الرابعة مساءًا ثم جاءت وقفة الشأي لمدة خمس عشرة دقيقة، وبعد شرب الشأي تم استئناف الجلسة بمحاضرة الدكتور ثناء الله نفسه حول موضوع "أسلوب الجاحظ". ألقى فيها الدكتور ثناء الله ضوءًا موجزاً حول سيرة الجاحظ وميزاته وأسلوب كتابته وما والاها من الأمور الواجبة. انتهت هذه المحاضرة بعد الساعة الخامسة والنصف مساءًا.

وتخلّلت العطلتان بين هذه المحاضرات ففي يوم السبت زرنا مكتبة الكلية حيث درسنا كتباً ورسائل متعلقة بالنقد الأدبي العربي وأما يوم الأحد فقد زرنا فيه بعض المعالم التاريخية المتواجدة في منطقة حيدراباد.

وفي اليوم السابع لهذا الشهر ألقى الدكتور ثناء الله الندوي محاضرتين حول موضوع "النظريات الحديثة في النقد" من الساعة العاشرة والنصف صباحاً حتى الساعة الواحدة والربع في الظهيرة وقد تخلّل بينهما وقفة الشأي لخمس عشرة دقيقة. تحدّث الدكتور الندوي في هاتين المحاضرتين عن النظريات النقدية الحديثة بما فيها البنيوية (Structuralism) والتفكيكية (Deconstruction) والنقد التكويني (Genetic Criticism). فصّل الدكتور الندوي كلاً من هذه النظريات الحديثة متناولاً الأصوات التي لها دور هامّ في النظرية البنيوية كما ناقش محاولة دريدا في التفكيكية حيث تكلّم عن الاختلاف، ونقد التمركز، ونظرية اللعب، وعلم الكتابة، والحضور والغياب. وكذا فصّل عن النقد التكويني الذي يسمّى أيضاً بـ"النقد الجيني" فعرّفه بأنه دراسة العمل الأدبي من بداية كونه مخطوطاً إلى أن يصير كتاباً" ومن ثم فالنقد الجيني يسعى

إلى أدلة نصّية يمكن إثباتها، تتعلق بنيات المؤلّف، كما أن هذا النقد يحلّل العوامل التي تحدّد طبيعة النص النهائي، كلما تقدّم من شكل مخطوطة نحو شكل كتاب، وكما يدرس النقد الجيني تأثيرات الرقابة والتنقيح، فإنه يحاول أن يحدّد بدقة ما يمكن أن يقال منطقياً عن النص، ويرتبط الناقد ارتباطاً وثيقاً بصياغة المبادئ التي تحكم ممارساتها". كانت لغة ولهجة الدكتور تشبهان ما للعرب الخلّص.

وبعد انتهاء فترة الغداء ألقى البروفيسور الحافظ بديع الدين الصابري محاضرة حول موضوع "مناهج النقد الأدبي". ابتدئت المحاضرة بعد الظهيرة في الساعة الثانية والنصف وانتهت بعد الساعة الرابعة تماماً. ذكر فيها البروفسور الصابري أربعة مناهج للنقد الأدبي بما فيها المنهج المتكامل. ثم أتت وقفة للشأي وبعد شرب الشأي بخمس عشرة دقيقة اجتمعنا مرة أخرى للاستماع إلى محاضرة أخرى للبروفيسور المذكور أعلاه حول موضوع "المذاهب الأدبية الحديثة واتجاهاتها". ذكر فيها البروفيسور الصابري ستة مذاهب نقدية حديثة بما فيها المذهب البرناسي والسريالي. حاول البروفيسور الصابري أن يلقي ضوءًا وجيزاً على كل من المناهج والمذاهب النقدية التي تكلّم عنها إلا أن لغة البروفيسور لم تكن جيدة فهي كانت مفكّكة للغاية. استمرّت هذه المحاضرة حتى الساعة الخامسة والربع مساءًا.

وفي اليوم الثامن لهذا الشهر اجتمعنا مرة أخرى للاستماع إلى محاضرة الدكتور محمد ثناء الله الندوي حول الموضوع "خصائص ابن قتيبة". فبعد ذكر الموجز عن أخبار ابن قتيبة فصّل الدكتور عن أسلوب ابن قتيبة وما يختص به. بدأت هذه المحاضرة في الساعة العاشرة والنصف صباحاً وانتهت بعد الثانية عشرة قبل الظهر. ثم بعد وقفة الشأي بخمس عشرة دقيقة ألقى الدكتور المذكور أعلاه في الثانية عشرة والربع، محاضرة حول موضوع "ميزات إبراهيم عبد القادر المازني". فبعد ذكر الموجز عن أخباره وما يتعلق بسيرته العلمية فصّل الدكتور القول عن أعماله وأساليبه لا سيما محاولاته في مجال النقد الأدبي. ذكر الدكتور نماذج من شعره الرائع. انتهت هذه المحاضرة بعد الساعة الواحدة والنصف وغادرنا الموقع للتغذّي. وبعد تناول الغداء اجتمعنا للاستماع إلى محاضرة البروفيسور شفيق أحمد خان الندوي، من دلهي حول موضوع "تعريف بالنقد

الأدبي وتاريخه عبر العصور موجزاً" فأوجز البروفيسور عن تاريخ النقد وكلمة النقد والأدب وما شابهها من الأمور. انتهت هذه المحاضرة بعد الساعة الرابعة مساءًا فانتشرنا لشرب الشأي لوقفة استمرت لخمس عشرة دقيقة وبعد شرب الشأي ألقى البروفيسور خان محاضرة حول موضوع "أصول النقد الأدبي" حيث تحدث عما يلزم لكون النص أدباً عالياً بما فيه العاطفة والفكرة وما والاهما. انتهت هذه المحاضرة بعد الساعة الخامسة والنصف مساءًا.

واليوم التاسع من يناير كان عيد تأسيس الجامعة فقد تم عقد محاضرة قيمة حول موضوع "العلاقات التاريخية: إيران والسلطنة العثمانية والهند". ألقى المحاضرة البروفيسور رودي ماثي (Rudi Matthee)، قسم تاريخ الشرق الأوسط، جامعة ديلواري، الولايات الأمريكية المتحدة كما كانت هناك خطابات في مختلف الموضوعات. كان البروفيسور رودي ماثي ضيف الشرف كذلك. ألقى البروفيسور رودي ضوءًا فاضياً على العلاقات التاريخية والثقافية فيما بين إيران والسلطنة العثمانية والهند بخصوص القرن السابع عشر وفجر القرن الثامن عشر للميلاد. إنه كذلك فصّل ما وجد فيما بين هذه الدول الثلاث من عناصر للتوافق وبواعث للاختلاف. ترأس هذه الجلسة البروفيسور محمد ميان، نائب شيخ جامعة مولانا أبي الكلام آزاد الأردوية الوطنية فقال في كلمته الرئاسية إن جامعة مولانا أبي الكلام آزاد تلعب دوراً قيادياً في نشر اللغة الأردوية وتطويرها فيما بين العامة، والسيد طارق أنور، الوزير الولائي لمصانع التغذية والزراعة الذي كان الضيف الرئيس، أكّد في كلمته الرائعة على أهمية اللغة الأردوية والحاجة إلى نشرها وتطويرها، كما شيّد بدور جامعة مولانا أبي الكلام آزاد الأردوية الوطنية في نشر اللغة الأردوية وتطويرها فيما بين الناس. قام بتنسيق هذه المحاضرة الدكتورة ثمينة كوثر، أستاذة مساعدة في قسم اللغة العربية لجامعة مولانا أبي الكلام آزاد. كان أسلوب تنسيق الدكتورة ثمينة جذّاباً للغاية فجعلت أسماعنا تلذّ بما أنشدته من الأبيات الأردوية الملائمة بالمناسبة. إنها ابنة الشاعر الأردوي الشهير الدكتور محمد تابش المقيم بدلهي. كانت هذه المحاضرة في الصباح فابتدئت في الحادية عشرة والنصف صباحاً وانتهت بعد الساعة الواحدة في الظهيرة.

وبعد انتهاء وقفة الغداء اجتمعنا مرة أخرى للاستماع لمحاضرة البرووفيسور شفيق أحمد خان الندوي الذي ألقى محاضرتين حول موضوع "منهجية نقد القصة والرواية" و"خصائص الشعر القصصي". بدأت المحاضرة الأولى بعد الثانية والنصف مساءًا وانتهت بعد الساعة الرابعة مساءًا كما بدأت المحاضرة الثانية بعد الساعة الرابعة والربع مساءًا وانتهت بعد الساعة الخامسة مساءًا. ذكر البروفيسور الندوي في محاضرته الأولى أنواع القصة من الحكاية والنادرة والأقصوصة والقصة القصيرة كما ذكر شروط القصة وكذا ذكر الرواية والفرق بين القصة والرواية. وفي المحاضرة الثانية ذكر معنى الشعر لغة ومصطلحاً فذكر اللفظ والوزن والقافية/الرويّ والمعنى وأشياءً تتعلق بهذه كلها. كانت المحاضرتان مليئتين بالمعلومات والحيوية والنشاط. قد أتى البروفيسور الندوي بأمثلة عديدة من الشعر الأردوي، حوّلت المحاضرة إلى الدراسة المقارنة.

وفي اليوم العاشر اجتمعنا مرة أخرى للاستماع إلى الدكتور راشد نسيم الندوي، أستاذ مشارك، قسم فقه اللغة العربية، جامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية، حيدراباد. ألقى الدكتور راشد محاضرته حول موضوع "العقاد، حياته وأعماله". بدأت المحاضرة بعد العاشرة والنصف صباحاً وانتهت حتى الثانية عشرة. ذكر الدكتور معلومات ابتدائية عن سيرة العقاد كما تحدث بالإيجاز عن أعماله المختلفة مثل "عبقرية محمد" و"عبقرية عمر" و"فاطمة الزهراء والفاطميون" و"سارة" و"حياة قلم" و"شعراء مصر وبيئاتهم" كما عرّف بدواوينه المختلفة وانتهت المحاضرة بأسئلة طرحت من قبل الحضور ثم بعد وقفة الشأي اجتمعنا مرة أخرى للاستماع إليه حول موضوع "حركة الديوان" فالآن فصّل الدكتور راشد عن هذه الحركة وانتهت المحاضرة بعد الأسئلة التي طرحها الحضور في الساعة الواحدة والربع في الظهيرة.

وبعدما انتهينا من الغداء وصلاة الظهر اجتمعنا مرة أخرى بعد الساعة الثانية للاستماع إلى البروفيسور شفيق أحمد خان حول الموضوع "النقد الأدبي، تاريخه وتطوره" فألقى البروفيسور محاضرته المليئة بالحيوية وناقش تاريخ تطور النقد الأدبي العربي منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث بصفة موجزة للغاية. ومن الطريف للغاية أن البروفيسور حاول في محاضرته أن يقارن النقد الأدبي العربي بالنقد الأدبي الأردوي. انتهت هذه المحاضرة بعد

الساعة الرابعة إلا الربع مساءًا ثم توقفنا للشأي حتى اجتمعنا مرة أخرى للاستماع إلى محاضرته حول موضوع "دراسة نقدية للقصص والأشعار". بدأت هذه المحاضرة من الساعة الرابعة مساءًا وانتهت حتى الساعة الخامسة مساءًا. وبجانب القصص العربية والشعر العربي قد قام البروفيسور شفيق أحمد خان بإلقاء الضوء على القصص الأردوية والشعر الأردوي فمحاضرته هذه أيضاً ثبتت دراسة مقارنة بين الأدب العربي والأدب الأردوي.

وفي اليوم الحادي عشر وفّقنا الاستماع إلى البروفيسور بيغ إحساس، رئيس قسم اللغة الأردوية وآدابها، الجامعة العثمانية، حيدراباد. كانت محاضرته تدور حول موضوع "النقد الأردوي". فقد أوجز البروفيسور إحساس في المحاضرة الأولى من بداية النقد الأردوي حتى وصل إلى الشيخ ألطاف حسين الحالي صاحب "مقدمة شعر وشاعري" وأما المحاضرة الثانية فهي احتوت النقد الأردوي من العلامة شبلي النعماني صاحب "موازنة أنيس ودبير" وتلميذه عبد السلام الندوي صاحب "شعر الهند" حتى تناولت مجنون الغورخبوري ولم يفتها أي اتجاه ومدرسة جديدة. كانت المحاضرتان جيدتين ولو كانتا موجزتين بالنسبة لقلة الوقت. وبما أن البروفيسور لم يكن يعرف اللغة العربية فقد أخطأ في مواضع عديدة في تلفظ المفردات العربية فمثلاً تلفظ "ترجُمة" بدلاً من "ترجَمة" و"تجرُبة" بدلاً من "تجرِبة" ومفقّى" بدلاً من "مقفّى" و"مبالِغة" بدلاً من "مبالَغة" حتى قرأ الحديث "إن الله جميل ويحبّ الجمال" بـ"إن الله جميل ويحبّ الجميل". وكذا أخطأ البروفيسور في استخدام العديد من التراكيب والأساليب العربية. بدأت المحاضرة الأولى في الساعة العاشرة والنصف صباحاً وبعد وقفة الشأي بدأت المحاضرة الثانية وانتهت هي في الساعة الواحدة والربع في الظهيرة.

ثم في المساء عُلّمنا مبادئ الكمبيوتر كما كان يوم السبت خاصاً بزيارة مكتبة الكلية وبعد عطلة يوم الأحد الرسمية وعطلة بونغال (Pongal) المركزية يوم الاثنين اجتمعنا مرة أخرى يوم الثلاثاء للاستماع إلى البروفيسور محمد أيوب تاج الدين، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي. كان موضوع محاضرته "الشعر: أنواعه وأغراضه". فأوجز البروفيسور عن أهمية الشعر العربي في المجتمع العربي الجاهلي كما ذكر نوعيه ثم التفت إلى العديد من الأنواع حسب العهود

المختلفة للشعر فذكر الهجاء والمديح والغزل والشعر الحر وشعر النقائض وما شابهها من الأنواع المختلفة. خلال محاضرته الجميلة أتى البروفيسور بنماذج من مختلف الشعراء العرب. انتهت المحاضرة بعد الثانية عشرة تماماً. وبعد وقفة الشأي اجتمعنا مرة أخرى للاستماع إليه حول موضوع "النهضة: عواملها وتأثيرها في الأدب العربي" فناقش أولاً معنى كلمة النهضة وكيف يراها الغرب وما هي عواملها في البلاد الأوربية ثم رجع إلى العالم العربي فتكلم عنها في البلاد العربية لاسيما مصر والشام اللتين سبقتا البلاد العربية الأخرى بهذا الشأن وكذا ناقش كافة العوامل التي لعبت دوراً قيادياً في هذه النهضة ومنها المطابع والمدارس والكليات والجامعات وما شابهها. ومن خلال هذا الحديث تكلّم عن المدارس الأدبية التي جاءت كنتيجة لهذه أو تلك النهضة. كان حديثه جامعاً لكافة جوانب الموضوع. انتهت المحاضرة حين بدء فترة الغداء.

وبعد تناول الغداء اجتمعنا للاستماع إلى المحاضرة حول "منحة دراسية باسم فولبرائت" (Fullbright Fellowship Lecture). معظم هذه المحاضرة كانت مختصة بمن يتعلم أو يعلّم العلوم الجديدة واللغات الأوروبية. ألقت هذه المحاضرة الدكتورة سارينا برانجبي (Sarina Pranjpe) من دلهي. انتهت هذه المحاضرة حتى الساعة الخامسة مساءًا.

وفي صباح اليوم السادس عشر لهذا الشهر اجتمعنا للإنصات إلى البروفيسور إقبال حسين الندوي، له كتابان بالأردوية عن النقد الأدبي العربي. أهديت إليه عددين من مجلة الهند فأولاً لم يعبأ بهما فطلبت منه أن يدرسهما في البيت بكل اطمئنان وهدوء فرجع بهما وفي اليوم التالي تلفنني قائلاً إنها أجود المجلات في الهند وأن ما أقوم به من الخدمة جليلة للغاية كما طلب مني كتابي حول ترجمات القرآن الإنجليزية، الذي صدر من دار التوبة بالرياض. كان موضوع محاضرته "الأسلوب في النقد" فذكر البروفيسور أولاً تعريف الأدب بأنه فن جميل يعبّر عن شخصية الأديب ويصوّر عواطفه متوسلاً إلى ذلك بهذه اللغة الكلامية التي تجمع بين الجمال والإفصاح". ثم ذكر قسمة الأدب إلى اثنين ورجع إلى الأسلوب. فذكر الأسلوب البلاغي والأسلوب التحليلي وما والاهما. انتهت المحاضرة بعد الثانية عشرة وبعد وقفة الشأي رجعنا للاستماع إليه حول موضوع "خصائص الأسلوب" فذكر القيم التعبيرية والقيم الشعورية وعناصر

الأدب وأشياء أخرى. كانت محاضرته ممتعة للغاية وذلك لأنه أستاذ للنقد الأدبي العربي. إنه أهدى كتابه الأردوي عن النقد الأدبي العربي إلى كل من المشاركين كما أعطانا صوراً للورقات القيمة الثمينة حول موضوع النقد الأدبي العربي.

وفي المساء اجتمعنا للاستماع إلى البروفيسور محمد أيوب تاج الدين، نيو دلهي. كان موضوع الحديث "بين الأدب والصحافة". فبدأ البروفيسور كلامه عن الحواس الإنسانية الخمس ثم تكلم عن وسائل الاستطلاع والإعلام ثم ذكر أوائل الجرائد في مختلف اللغات بخصوص الجرائد والمجلات في الدول العربية ومن ثم رجع إلى علاقة الصحافة بالأدب وبالعكس ففصّل كيف لعبت الصحافة العربية في تطوير الأدب العربي إلا أنها تحرم اليوم هذه الميزة فانفصلت الصحافة عن الأدب كما انفصل الأدب عن الصحافة ولكل لغة وأسلوب. انتهت المحاضرة بعد الرابعة تماماً وبعد وقفة الشأي اجتمعنا مرة أخرى في الساعة الرابعة والربع مساءًا للاستماع إلى محاضرته حول موضوع "اللغة العربية وخصائصها". فأولاً ذكر أصول اللغة العربية وعلاقتها مع اللغات الأخرى ومن ثم رجع إلى خصائصها وميزاتها ففصّل هذه الميزات والخصائص تفصيلاً بدأنا نفتخر بأننا تعلّمنا العربية والآن نعلّمها. فالميزات التي ذكرها هي (1) سعة مدرجها الصوتي (2) الاشتقاق (3) الموسيقى (4) القِدَم (5) التمام (6) سعة مفرداتها (7) جذورها المتناسقة (8) لغة العقل (9) العدد والمعدود (10) استعمال المؤنث للجمع غير العاقل و و حتى ذكر أنها لغة الجنة. انتهت المحاضرة بعد الخامسة مساءًا.

وفي اليوم السابع عشر للشهر حضرنا للاستماع إلى محاضرة البروفيسور أيوب نفسه حول موضوع "العصر الأموي في ضوء النقائض" فأولاً تكلم البروفيسور الندوي عن الأسباب السياسية التي لعبت دوراً هاماً في تطوّر الشعر العربي في ذلك العصر ومن هنا تدرّج إلى أنواع الشعر المتواجدة في ذلك العصر حيث ناقش المديح والزهد والغزل ومن هنا خاض في البحث عن شعر النقائض فقال:

"إن أول ظهور لمصطلح (النقض) كان في العصر الأموي، وتحديداً فيما عرف بـ(النقائض)، وهي تلك المعارك الشعرية التي دارت رحاها بين عدد من الشعراء في العصر الاموي، وكانت ريادته في الأخطل وجرير والفرزدق،

حيث يكتب الشاعر قصيدة في هجاء خصمه، فيرد الخصم (ناقضا) هذه القصيدة مع التقيد بوزنها وقافيتها".

ناقش كل ما ناقش في ضوء الأمثلة والنماذج فكان حديثه تحليلياً وموضوعياً. والأستاذ الندوي علّمني الترجمة في الدبلوم المتقدم للغة العربية والترجمة.

انتهت هذه المحاضرة في الساعة الثانية عشرة تماماً وبعد وقفة الشأي وفّقنا الاستماع إلى محاضرته حول موضوع "نجيب محفوظ وأسلوبه في ثلاثيته". استهلت المحاضرة من معنى القصة والرواية حيث ذكر بدايتهما ثم تحدّث البروفيسور عن سيرة نجيب محفوظ وخدماته في هذا المجال ومن ثم رجع إلى ما هو المراد من ثلاثيته وهو بين القصرين وقصر الشوق والسكّرية. كما تكلم عن ترجمتها إلى مختلف اللغات الأجنبية وهو يقول مشيراً إلى درجتها الأدبية:

"لم تكن أعمال نجيب محفوظ قبل ثلاثيته (بين القصرين وقصر الشوق والسكّرية) إلا تمهيداً كبيراً لهذا العمل العظيم . فلقد استجمع فيه نظرته كلها: في الحياة والإنسان والمجتمع. فإن الزمن الذي تدور فيه أحداث هذه الرواية هو المرحلة الحية التي تجاوز ربع القرن في القرن الغابر ... منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وبداية الإرهاص للثورة الوطنية الكبرى عام 1952م وإن الطبقة التي صوّرها فيها هي الطبقة المأساوية المتوسطة الصغيرة من الفلاحين والعمّال واختار أسلوب الواقعية في الفن كاتجاه طبيعي في تطور هذه الرواية".

ومن خلال حديثه الجامع عن الموضوع تكلّم البروفيسور كذلك عن ظفره بجائزة النوبيل كما تحدث عن أن الرواية التي نال عليها هذه الجائزة ليست جديرة بها إلا أنه شخصية أدبية كبيرة فقدنا بموته كاتباً روائياً كبيراً.

انتهت هذه المحاضرة للتغذّي فالتمطّي.

وبعد فترة الغداء وفّقنا الاستماع إلى محاضرة الدكتور السيد راشد نسيم الندوي حول موضوع "من علم اللغة إلى التناص" ومن ثم حول موضوع "تدريس النص". كان الموضوعان بديعين والدكتور الندوي معلّمٌ لفقه اللغة فقد حاول الدكتور الندوي أن يربط الموضوعين بالنقد الأدبي وقد نجح في محاولته هذه فتكلم الدكتور الندوي عن معنى اللغة لغة واصطلاحاً كما تكلم عمن أوجدت هذا المصطلح وهي جوليه الكاتبة الإنجليزية فالتناص هو دراسة النص وتدريسه

وهو يشمل (1) التوطئة (2) القراءة النموذجية (3) القراءة السرية والقراءة الجهرية (4) المناقشة (5) التطبيق والتدريب وكذا تحتوي المناقشة (1) شرح الكلمات الصعبة (2) البنية (3) المعنى (4) التلخيص. كانت هناك وقفة للشأي بين المحاضرتين. انتهت المحاضرة الأخيرة بعد الخامسة تماماً.

وفي اليوم الثامن عشر ليناير ألقى البروفيسور صدّيق علي من الجامعة العثمانية، حيدراباد محاضرتين حول موضوع " Recent Trends in Critical Theory" قبل وقفة الشأي وحول موضوع " Recent Trends in Literary Research" بعد فترة الشأي ففي المحاضرة البدائية بيّن لنا تاريخ النقد الأدبي الإنجليزي من بدايته حتى الاتجاه الماركسي في النقد وفي المحاضرة الثانية تكلّم عن المنهج النفسي والهيكلية والبنيوية وما بعد البنيوية والنسائية كما تحدّث عن التراث الأدبي الذي خلقه الفلاحون ويعرب عن الحكام والمحكوم عليهم وانتهت المحاضرة على الدراسات الثقافية. كانت المحاضرتان مليئتين بالحيوية وبما أن الموضوع كان متعلقاً بالنقد الأدبي الإنجليزي فكنّا نأذن له مقارنين النقد الأدبي العربي بالنقد الأدبي الإنجليزي. انتهت المحاضرة في الساعة الخامسة حسب العادة.

وقعدنا بعد هذا اليوم ليومين ونصف لتعلّم الكمبيوتر وزيارة الأماكن التاريخية والتمتع من عطلة يوم الأحد ثم في اليوم الواحد والعشرين ليناير اجتمعنا للاستماع إلى البروفيسورة عصمت لطيف مهدي (لطيف مهدي هو زوجها) حول موضوع "نازك الملائكة". تحدّثت البروفيسورة بالتفصيل عن الشعر الحر وعن نازك الملائكة بما أنها لقيتها كما سمعنا شعرها بلسانها. وبما أن البروفيسورة كانت قد زارت هذه البلاد وتعلّمت فيها فكانت لهجته مثل العرب العرباء. تمتّعنا من محاضرتها هذه وانتهت هي في الساعة الثانية عشرة ظهراً لوقفة الشأي. وبعد وقفة الشأي توجّهت البروفيسورة إلينا بموضوعها الشهير حول "المباني الهندية الإسلامية" وأرتنا صوراً عديدة للمباني الفخمة التي خلفها الحكّام المسلمون في الهند ومنها التاج محل والقلعة الحمراء والتشار مينار (أربع منارات) والحديقة المغولية وما شابهها. ولكن من الأسف أن البروفيسورة ألقت المحاضرة بعد أن زرنا هذه المعالم التاريخية. انتهت المحاضرة بعد الحادية عشرة والربع ظهراً حسب العادة.

وبعد فترة الغداء اجتمعنا للاستماع إلى محاضرة البروفيسور عبد المعزّ، رئيس قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مولانا آزاد الأردوية الوطنية التي عقدت بها هذه الدورة التنشيطية من قبل يو. جي. سي. كانت محاضرته حول موضوع "محمد مندور في نقده المنهجي". فبدء البروفيسور محاضرته بمدخل ذكر فيه أهمية محمد مندور العلمية والأدبية ثم تكلّم عن حياته بالإيجاز ومن ثم تحدّث عن منهجه النقدي فكانت محاضرته حول الموضوع جامعة. قال البروفيسور عن منهج محمد مندور كما يلي:

"ولم يكن مندور يقوم في تطوره المنهجي من المنهج التذوقي إلى المنهج التحليلي والتفسيري والتقييمي الاجتماعي بقطيعة ابستمولوجية ومنهجية مع كل مرحلة من هذه المراحل فقد كانت كل مرحلة جديدة تتضمن، بمستوى أو آخر، المرحلة أو المراحل السابقة، كما تتضمن استيعاباً نقدياً لتراثنا النقدي العربي القديم. ولهذا نجد في نظريته التي يسمّيها بـ"النقد الأيدلوجي"، كل عناصر التذوق، فالتحليل، فضلاً عن التفسير والتقييم. ولهذا قد يكون من التعسف أن يقال عن منهجه، كما يذهب بعض الكتاب، أنه منهج أرسطاطالي خالص. ومن التعسف كذلك أن يقال، كما يذهب بعضهم أيضاً، أن منهجه النقدي هو منهج انتقائي، بسبب استمرار عناصر التذوق والتحليل في منهجه النقدي الأخير. إننا قد نجد هذه العناصر مجتمعة في المرحلة الأخيرة من تطوره النقدي، ولكننا نجدها في كثير من الأحيان متضافرة متداخلة وليست متجاوزة، مما يبعد عنها إلى حد كبير صفة الانتقائية. والواقع أنه لا نقد أدبياً بغير تذوق وتحليل وتفسير وتقييم. والقضية الصعبة تتمثل في اكتشاف المعادلة النظرية الصعبة بين هذه العناصر".

انتهت المحاضرة بعد الثانية عشرة ظهراً ثم بعد وقفة الشأي مررنا باختبار وجيز لما استمعنا إليه ودرسناه خلال هذه الأيام الطوال.

وفي اليوم الثاني والعشرين عقدت ندوة على مستوى المشاركين في هذه الدورة حيث ألقى كلٌ منا مقالته النقدية حول مختلف الموضوعات النقدية والأدبية. معظم هؤلاء المشاركين لم يكونوا جدّيين في المشاركة ولا في الكتابة والتقديم. كانت مقالتي حول موضوع "الدكتورة نوال السعداوي أديبة ورحّالة مصرية في ضوء رحلتها للهند" وهي قد نشرت في هذا العدد. وبعد هذه الندوة اجتمعنا

للاستماع إلى البروفيسورة عصمت لطيف مهدي حول موضوع " Twentieth Century Arabic Poetry" بالإنجليزية. ألقيت هذه المحاضرة أمام أساتذة اللغة الإنجليزية والأردوية والفارسية والمراثية فأمرنا بحضورها. أعادت البروفيسورة ما قالت في محاضرتها حول موضوع "نازك الملائكة" ومرة أخرى استلذّت أسماعنا بصوت نازك الملائكة الجذّاب. انتهت المحاضرة بعد الخامسة مساءًا.

وفي اليوم الثالث والعشرين ليناير ألقى البروفيسور عبد المجيد، بروفيسور متقاعد للغة العربية وآدابها في الجامعة العثمانية حول موضوع "طه حسين ناقداً". جاء البروفيسور بمقالة حول الموضوع مشتمل نصفها على سيرة موجزة للدكتور طه حسين وأعماله وخدماته في مختلف مجالات العلم ومؤلفاته ورسائله وأما النصف الآخر فكان يحتوي على الدراسة الوجيزة لموقف الدكتور طه حسين من الأدب والأدب المقارن والنقد الأدبي العربي. بجانب قصر المقالة عن أداء حق الموضوع فلم يستطع البروفيسور بقراءة ما كتبه هو فكان يخطئ كثيراً وكثيراً في قراءته للمقالة. كانت بضاعته للعربية قليلة ومعرفته عن الآداب أقلّ. انتهت المحاضرة لوقفة الشأي وبعد انتهاء الوقفة أجبرنا على الاستماع إلى مقالته الأخرى حول موضوع "عباس محمود العقاد ناقداً". تحدّث البروفيسور في مقالته المحتوية على سبع صفحات عن سيرة العقاد وخدماته وأعماله في خمس صفحات والصفحتان الباقيتان كانتا مختصتين بدراسة جانب العقاد النقدي فتكلّم فيهما ما تكلّم ولم يستطع كذلك بقراءة ما كتبه هو. انتهت المحاضرة قبل الخامسة مساءًا.

وبعد فترة الغداء قدّمنا المشروع العلمي الضيّق النطاق كما قدّمنا ما وصل إليه النقاش الجماعي حول المواضيع المحدّدة. كانت هذه الفرصة جميلة للغاية بالنسبة للأساتذة الجدد في هذا الميدان. ترأس هذه الجلسة البروفيسور معين الدين الأعظمي المقيم بحيدراباد. انتهت هذه الجلسة بعد الخامسة مساءًا.

وفي اليوم الرابع والعشرين اليوم النهائي استمعنا لمحاضرة البروفيسور محسن العثماني البروفيسور المتقاعد لجامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية، حيدراباد ومدير تحرير "أقلام واعدة". كانت محاضرته حول موضوع "الآراء النقدية لأنور الجندي على أفكار طه حسين". فبجانب ذكر سيرته الموجزة ألقى

البروفيسور ضوءًا فاضياً على ما قدّمه الجندي من الخدمات الجليلة في مختلف مجالات العلم والعمل. أما أعماله النقدية على الدكتور طه حسين فهي "طه حسين وحياته في ميزان الإسلام" و"محاكمة فكر طه حسين" وبما أن الجندي كان يخالف التغريب وأن الدكتور طه حسين كان قمة في هذا المجال ففضّل الجندي انتقاده أولاً. انتهت محاضرة البروفيسور العثماني قبل الوقت المحدّد لأجل قلة الوقت ومجيئ أوان إعطاء الشهادات للمشاركين فبعد هذه المحاضرة دعي المشاركون لاستلام الشهادات الرسمية للحضور في هذه الدورة على يدي البروفيسور محسن العثماني، وبه انتهت الدورة التي استمرّت لمدة واحد وعشرين يوماً.

وقد لاحظنا من خلال هذه الدورة التنشيطية أن الأساتذة الذين جاءوا لإلقاء المحاضرات لم يكن معظمهم معتنين بما قد حدّد لهم من العناوين والموضوعات فقد ألقوا علينا من المحاضرات ما قد ألقوه من قبل وكذا أن بعض المحاضرات لم تكن متعلقة بالموضوع الرئيسي مثل مقالة البروفيسورة عصمت لطيف مهدي عن المعالم الإسلامية في الهند فكأن هذا النوع من المحاضرات كان لملأ الفراغ فحسب وهكذا لاحظنا أن المنسق الدورة لم يعتن بتوجيه الدعوة إلى من قد مهر في الموضوع وطال باعه فيه فقد تفقّدنا كثيراً وكثيراً البروفيسور فيضان الله الفاروقي الذي يدرّس النقد الأدبي العربي في مركز الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهر لعل نهرو لمدة أكثر من عشرين عاماً وله اليد الطولى في الآداب الأردوية والفارسية كما أنّ له مساهمات جليلة في هذا المجال وقد نشرنا مقالته الرائعة حول "دراسة مقارنة بين الغالب والمتنبي" في العدد الأول لهذه المجلة. هذه أروع مقالة وأجودها في الموضوع.

وبالجملة فقد استفدنا كثيراً من هذه الدورة ونرجو من مدير الكلية أنه سيعقد في رحابها دورات تنشيطية أخرى حول مختلف موضوعات اللغة العربية وآدابها. اللهم زدْه صحةً ونشاطاً، وعلماً وتقوًى، وتقبّلْ منه ما قد قدّمه إلى اللغة العربية وآدابها من خدمة جليلة.

سجناء في دار العجزة

- جميل النظام آبادي

كان الباص يجري إلى غايته بسرعة فائقة، إلا أنه لم يكن اليوم مزدحماً، كعادته، لأجل عطلة الأحد، كنت أريد لقاء أخي وعيادته إثر اطلاعي على مرضه فوراً. كان الباص يعدو بكل سرعة إلا أني لم أكد أرضى عن سرعته تلك بما أني كنت في عجلة عاجلة للقاء أخي وذلك لأنه كان وحيداً في هذه المدينة وكانت أولاده صغاراً فكانت مسئولية البيت كله عليه؛ فإدارة الأعمال التجارية وشراء ما يحتاج إليه أفراد البيت وإطعام الأطفال الفطورة وحملهم إلى المدرسة في الصباح ورجعهم إلى البيت في المساء هذه كلها كانت على عاتقه وحيداً. والآن حينما أصابه المرض حمل إلى المستشفى ولم يكن أحدٌ يعوده هنا فقد كانت زوجته مشغولة برعاية الدار والأولاد فهي كانت تتحمل رعاية الدار والأولاد في جانب وفي جانب آخر عيادة زوجها المريض في المستشفى ولذلك فلما شعرت بعجزها عن أداء تلك الواجبات أخبرتني عن طريق الهاتف بأنّ زوجها مريض وطلبت مني أن أزورها فوراً فعزّيتها على الهاتف وقلت إني آتيك الآن فخرجت من البيت فوراً ووافقني لقاؤ الباص فركبته وكنت متوجهاً إلى المدينة مسرعاً فكنت لا أرضى عن الباص عندما هو كان يتوقفت لدى قرية صغيرة وكانت أخيلتي توافق سرعة الباص بما أني كنت أتفكّر في مرض أخي؛ كيف هو الآن؟ وقد أخبرتني زوجته بأن صدره يوجعه شديداً فلما قام الطبيب بالتفحيص أشار عليه أن يدخل في المستشفى فوجع الصدر يعني بصراحة أنه يعاني من نوبة قلبية فتفكّرت فيها وتأذيت فعلاً.

فلما توقف الباص في موضع صغير بعد هزة فاهتزّت أخيلتي ولما أطللتُ خارج الباص من خلال نافذته فوجدتها قرية صغيرة اشتهرت في ضواحيها بزراعتها للخضراوات فقد كانت الخضراوات يتمّ تصديرها إلى أقصى الأماكن فكانت معيشة أهاليها جيدة بفضل هذه الزراعة.

نزل هنا ثلاثة مسافرين من الباص بينما ركبه مسافران جديدان. كان كلاهما عجوزين تربو أعمارهما على 65 أو 70 سنة. نظرت إليهما متفحصاً فكانا يتوجهان نحوي. كنت وحيداً في مقعد يتسع لثلاثة أفراد فكان مقعدي، بالفعل،

يفرغ لاثنين بجانبي فقعدا بجانبي بحيث أوزع أحدهما الآخر. كانا يلبسان ملابس غالية وصحتهما كانت جيدة، وكانا يبدوان مثقفين. تحرّك الباص.

طلب أحدهما من القاطع التذاكر أن يعطيهما تذكرة للغاية التي كنت أريدها. أراد أحدُ الصديقين أن يدفع قيمة التذكرتين ولكن أولهما منعه عنه، ودفع قيمة كلتا التذكرتين من جيبه فلما غادرهما القاطع التذاكر بعد أن أعطاهما التذاكر قال أحدهما "متى ترجع بعد العيد رحمت علي!؟".

كان أحدهما يسمّى "رحمت علي" فردّ عليه رحمت علي: غداة غد سيكون عيد الفطر ولكن الأقرباء والأصدقاء يزور بعضهم الآخر بعد عيد الفطر بيومين أو ثلاثة للالتقاء والتهنئة" جرت ابتسامة على وجه رحمت علي فقال "السيد ريدي! لا أرجع إليك إلا بعد خمسة أيام".

والآن قد عرفت اسم الصديق الآخر وهو السيد ريدي. أولهما مسلم بينما الآخر هندوسي ولكن أحدهما صديق للآخر. قال السيد ريدي "فأكون هنا فريداً بدون صحبتك. ارجع بعد قليل فلا يطمئنّ قلبي بدونك" ثم قال "والواقع أننا لا يصبر أحدنا عن الآخر فقد وطّأنا أنفسنا بصعوبة في هذه الدار للعجائز فلا يأتينا أحد للعلم عن أحوالنا فسنقضي حياتنا الباقية معزّياً أحدنا الآخر فتوحشني هذه الدار كلما تغيب عني".

"نعم سيدي! إنك صادق في قولك" قال رحمت علي متأوّهاً "الآن نحن أصدقاء بعضنا للبعض كما نعزّينا أنفسنا". إنه جعل يقول وهو يتفحّص وجه السيد ريدي بأعين يائسة "ليس في هذا العالم من نعتبره منا".

"نعم، رحمت علي!" أجاب عليه السيد ريدي "قد كنا نتمتع من كل شيئ؛ الزوجة والأولاد والبيت الضاجّ بالأفراد والعشيرة الكبرى والأصدقاء والأقرباء ولكن الآن لا نرى أحداً فقد خذلونا، والآن حينما يحتاج أحدٌ إلى مثل هؤلاء ويودّ أن يحيى بين ظهراني الأفراد كرئيس لهم أصبحنا أشقياء نسكن في هذه الدار للعجائز مثل طائر تكسّرت أجنحته ينتظر بالموت" قال هذا، السيد ريدي وقد امتلأت عيناه بالدموع.

وعندما سمعت كلامهما الحزين رغبت فيهما فنصبت إليهما الآذان استمع لما كانا يتحدثان.

ثم قال السيد ريدي "هل هذه نسمّيها الحياة، حياة ملؤها العجز والإفلاس والحرمان".

قال رحمت علي "لا تكتئب سيدي! فسنحيى بالغيرة كما حيينا من قبلُ ولكن لا نفوح بما تكنّه صدورنا من الهموم والأحزان".

ثم قال السيد ريدي "على الأقل من أولادك من دعاك إلى بيته ولو بمناسبة العيد وإنك ذاهب إلى بيته ولو ليومين أو أربعة. أنظر إليّ، لم يزرني أحد ويسأل عني. لي أربعة أولاد وكلهم مثقفون ومحتلّون مناصب عليا ولكنهم لا يهتمون بأبيهم الذي أنفق كل ما اكتسبه طول حياته لتربيتهم وتثقيفهم فأعطاهم وظائف عليا وزوّجهم من بنات الأشراف فوفّر لهم كافة تسهيلات الحياة وكل أنواع السرور والراحة فبعضهم في أمريكا بينما البعض الآخر في ممبائ والبعض الثالث في تشنائ. كلهم فارغوا البال ويقضون حياة مرفهة مع أزواجهم وأولادهم ويهتمون بهم سوى هذا الشقي فهم لا يتذكرون هذا العجوز الذي أنشأهم وربّاهم وثقّفهم وضحّى بما له لأجل سرورهم ومستقبلهم الزاهر" ومرة أخرى امتزج صوته بالهمّ والوجد، وكاد أن يبكي.

الآن لم أمتلك على نفسي فتدخّلت فيهم قائلاً: عفواً، أريد أن أتدخّل فيكم. هل أنتما تسكنان في دار العجزة؟ هل هناك دار للعجائز في هذه القرية؟".

فأجاب السيد رحمت علي "نعم، هناك دار للعجائز، نسكن فيها وفيها عجائز مثلنا لا يسأل عن بالهم. هم يدفعون خمسة آلاف روبية شهرياً ويسكنونها كضيوف دافعين جزاء قيامهم وطعامهم" (Paying Guest) ومضى رحمت علي قائلاً "إن معظم هؤلاء العجزة ممن تقاعدوا عن وظائفهم على المعاش فهم يؤدّون خمسة آلاف روبية شهرياً مما يحصلون عليه من الحكومة. إننا، معشر العجزة، لا نشكو هنا شيئاً من الأذى سوى أننا نحزن على فراق ذوي القربى والأحبة".

فسألتهما "أين أزواجكما؟"

فقال رحمت علي "قد توفت أزواجنا قبل هذا بأربع أو خمس سنوات. فقد كنا نسكن في دارنا ما دامت زوجاتنا أحياء، أسرة ناعمة البال. لي ثلاثة أولاد ذكور وبنتان، وأما السيد ريدي فله أربعة أولاد ذكور وبنت واحدة. فقد ثقّفنا كلهم

وأعطيناهم وظائف وزوّجناهم بأسلوب حديث أسرفنا فيه كما زوّجنا البنات من أولاد الأشراف فكلتا ابنتيّ في السعودية مع زوجيهما وأما ابنة ريدي فهي تسكن في أمريكا". فقد جعل السيد رحمت علي يفصّل عن أفراد أسرته وقال "إنّ أولادي الثلاثة يحتلون وظائف عليا حكومية فأكبرهم في أحد أقسام السكك الحديدية (Railways) ويقيم بكولكاتا وثانيهم موظف في الشركة الأمريكية ويقيم بمومبائ وأصغرهم معلّم ويسكن في المدينة المجاورة لنا وهو الذي دعاني إلى داره لكي نحتفل بعيد الفطر، وإيّاه أريد. وأما السيد ريدي فأكبر أولاده هاجر إلى أمريكا وله ولد يسكن في دبئ وأما الولدان الآخران فهما يسكنان في تشنائ وهما يحتلان وظائف حكومية عليا".

فتدخّل السيد ريدي في كلام السيد رحمت علي وقال "ولكن هؤلاء لا يفيدونني شيئاً فإن دورهم الواسعة لا تتسع لقيامي بها" فخلع السيد ريدي نظارته وجعل يمسحها.

"وهذا من فضل الرب أني كنت موظفاً حكومياً والآن تقاعدت على معاش غال فيبقى لي مال كثير بعد دفعي خمسة آلاف روبية إلى دار العجزة" وقال السيد رحمت علي "في حسابي للبنك ملايين روبية فنحن أثرياء بالنسبة للأموال إلا أننا فقراء بالنسبة للمحبة والقربى".

وقال السيد ريدي "تأمل أنه لو لم نجد معاشاً فماذا يصيبنا وأين نسكن فننزل على محطات القطار، ولو نحن نرزق أولاداً ذكوراً وإناثاً، ونقضي حياتنا على رغائف خبز يقذفها المسافرون أمامنا". قال هذا ثم لزم الصمت، وكانت عيناه تدقّان خارج النافذة كأنهما تبحثان عن بيتها الضالّ".

قد صمتنا نحن الثلاثة لهنيهة. لم أجد من عندي كلمات أعزّيهم بها، وكان الباص يقرب من المدينة، وكان هذا السفر ينتهي بعد دقائق.

وفاجأني السيد ريدي بسؤال منه "كم ولداً لك وماذا يعملون؟".

فرأيت السيد ريدي وأجبت عليه بصوت خفي "لم أرزق ولداً".

لما سمع هذا السيد رحمت علي نظر إليّ بعين الشفقة وقال "هل لك زوجة؟".

فرددت عليه "نعم، لي زوجة أسكن معها في بيت ضيّق وهي تخدمني".

فدعا لي السيد رحمت علي بالخير وقال: سلّمكم الله، أخي! ليس لك همّ إلا أنك لم ترزق ولداً، ولكنك لست ممن آذاه أولاده مثلنا".

وقال السيد ريدي "إنّ لك بيتاً ولو ضيقاً، ولكنك لست كمثلنا مسجوناً في دار العجزة ومتأذياً بفراق الأحبة".

توقف الباص بعد هزة فنزلت منه وعيناي تنظران إليهما بدقة.

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

من تكلّل بالنجاح؟

- سائرة خوشي

اليوم هي أيضاً قد أساءت مزاجي، ولا أدري ماذا بها؟ إنها كانت تعلي قدرها كلما رأت أحداً يعمل تحت إشرافها، وكانت تعاملهم بحيث إنهم صاغرون. اليوم حدث كما سلف فلما فرغنا من التحظي باللبن المثلوج في المقهى إنها أمطرت على الخادم أشرف أنواعاً من الكلمات السيّئة "هل أنت أعمى --- هل لا تقدر على رفع الأواني حذراً --- قد ضيّعت ملبسي الجديد --- إنكم معشر الصاغرين تعاملون كذلك ---- اخلد مهاناً ----" ثم خرجت من المقهى موطأة أقدامها، والحال أني لم أتحرّك حياءً وندامة. "الأخ أشرف! لا تسيئ الظن بها، إنها تستاء من كل شيئ. إني أعذر إليك من قبل هذه الفتاة" وهو قد تنحّى عني محمراً وجهه ثم خرجت من المقهى مع سوء البال.

كان هناك بون شاسع بين فطرتي وفطرة بلوشة (Palusha) ولكننا مع ذلك كنا صديقتين حميمتين فإني كنت مفطورة على تصانع بالغ بينما هي كانت لا تصبر على كلمة التصانع إلا أنها كانت تصاحبني ولا أدري لم؟ كنا تختلف بعضنا عن البعض حينما كانت هي تراعي منزلتها لدى الحديث فإنها كانت متكبرة في كل شيئ وأما أنا فكنت أبغضُ الكبرياء. ولعلنا كنا صديقتين حميمتين بما أني كنت مثلها في المنزلة. كادت الصداقة بيننا أن تبلغ من عمرها خمس سنوات وكنا في السنة النهائية لكلية الطب. قد أنعم الله على بلوشة بكل نوع من النعم ---- كانت لها أموال فادحة، وكانت هي أجمل النساء كما كانت هي مؤهلة إلى حد بعيد --- -- ولعل هذه كلها جعلتها متكبرة إلى حدّ بعيد.

أنظري بلوشة! ليس لأحد فضل على الآخر --- نعم، إني أقرّ بأن بعض الناس فقير بينما البعض الآخر غني ولكن الحكم عن فضل الناس على هذا الأساس لن يصحّ البتة. فالإنسان مفضّل لمجرد معاملته وخلقه لا لكبريائه وذلك لأن الكبرياء لا يجدر بها إلا الله". قد حفظت هذه الكلمات ولعلها أيضاً حفظتها إلا أنها لم تؤثر فيها وكانت تقول بأسلوبها الخاص "أيا مقدس! لديّ أموال، إني جميلة ---- وفوق هذين إني مؤهلة وهذه كلها تكفي لإعطاء أحد قوة وسيطرة وإني أجترئ على القول بأني امرأة ناجحة وبفضلك لا تنصحيني" تقول هذا ثم تغادر المكان.

قد تخرّجنا في الجامعة وكنا نتطبّب في مكانين مختلفين ولذلك فلا تسنح لنا فرصة اللقاء إلا بعد أيام طوال حتى صعب لنا الالتقاء. حدث هذا حينما بدّلت

الأمطار الجوّ ربيعاً بعد شدة الصيف وفي مثل هذه الأيام تلقتني بلوشة يوماً من الأيام "الجوّ جميل للغاية، تعالي نتفرّج في مكان". إنها كانت مولعة للغاية بالتنزه (Outing) ولذلك فقد قبلت طلبها وبعد دقائق بلغنا أشهر حديقة للمدينة إذ سمعنا صوتاً خلال التنزه "أختي! بيعي هذا السوار من الأزهار --- إنها تبدو جميلة للغاية بيديك ---- بيعي أختي! عليّ أن أشتري بها دواء أمّي. بيعي أختي! إنها جميلة ----" لم يقدر الولد على إتمام كلامه لصوت صارخ للغاية "هل لا تنظر إلى يديك، ما أوسخهما --- وإن ترد الأموال فخذ هذه الفلوس وتنحّ عني" قالت هذا بلوشة وهي دفعت الفلوس إليه، وجعلت تسرّح شعرها. تناول الولد الفلوس ورفضها إليها ثم رفع بصره الندي إلى السماء قائلاً "اللهم! هل ترى كل هذا؟ إني آكل بما كسبت يداي --- إني لا أتسوّل --- يا سيدتي! خذي هذه الفلوس واقنيها لديك --- إنها تفيدك وقت حاجتك". قال هذا ثم غادر المكان ولكنما تلفظه كان يدخل في أذنيّ شيئاً فشيئاً فقمت عن مقعدي وسمعت نفسي تقول لي "بلوشة! ---- من يتكبر على قوته يندم أبداً ---- في هذه الدنيا كما في تلك الآخرة ---- ثم يأتيه وقت تضمحلّ فيه قوته --- فمن يغترّ بنفسه يندم ولا شك فيه ---- ولا أودّ أن أشاطرك في هذه الذلة ---- مع السلامة!.

كنت أفحّص المرضى في عيادتي إذ دخلت امرأة مريضة في حجرتي، كأنها مجموعة عظام. كان وجهها شبه خليع ---- التحسر --- والقلق ---- والندامة ---- والعزلة وما شابهها. "أيتها الطبيبة! هل يمكنك أن تعالجي سقمي المهلك؟" كنت أحاول أن أعرفها إذ قمت فجأة. كنت أقدر على معرفة هذا الصوت الضئيل فيما بين آلاف صوت. لم تكن هذه المرأة الهزيلة امرأة أخرى بل هي كانت صديقتي بلوشة. "بل --- بل --- بلوشة ---- هل أنت بلوشة ---- ماذا حدث بك ---- حبيبي! ماذا أصابك --- كيف --- وكيف؟" قلت هذا وعانقتها باكية. إنها قالت بعد وقت طويل "لم تحاولي أن تتعرفي عليّ بعدُ. لا يترك أحدٌ صديقه هكذا ولا يتعرف على حاله ولو هو مضى إلى سبيله ----". ثم وضعت يدي على وجهها "لا تقولي هكذا يا حبيبي! ---- ماذا حدث بك بلوشة!" "إني ألقى جزاء ما ارتكبته ----" كأن صوتها يخرج من بئر عميقة "هل تتذكرين يا مقدس! الولد الذي نهرته ---- مقدس! إنه صدق حيث قال إن أموالي تلك احتاج إليها ساعة في حياتي. أنظري يا مقدس! إن أموالي كلها قد ضاعت ولكني لم أشف من المرض. ويحكم عليّ الأطباء أني لا ينجيني من المرض إلا الموت. إن

جمالي قد تحوّل إلى مجموعة عظام. هل تدرين يا مقدس! إني أذهب إلى ذلك المكان كل يوم للبحث عن ذاك الولد عسى أن أتعزّى من اعتذاري إليه --- مقدس! قد أحزنت قلبك مراراً. فاعفي عني يا مقدس! فاغفر لي" إنها كانت تبكي بصوت عال وتلفظ أنفاسها فالتي كانت تهزأ بالآخرين لم يقم لها أحدٌ يسأل حالها. "مقدس! إني أريد الذهاب --- قد ضيّعت من أوقاتك كثيراً --- عفواً ---- أعلى الله قدرك" وقد كنت أتفكّر في ذهني أنها قد أقامت ميزاناً سيئاً للغاية للفوز والفلاح؛ المال والشهرة والجمال ---- ليس النجاح عبارة عن هذه كلها. فاشهدي اليوم ما أخيبك. إنها قامت فجأة ولم أجمع خاطري لمنعها عن الرجوع. إنها قالت مرة أخرى عند الخروج عن العيادة "مقدس! لم يبق لديّ سوى هذا السرطان الدموي ---"، وأما أنا فكنت أتفكّر حينما رأيتها ترجع "لعل أسقام المتكبرين وعقوباتهم تكون كبرى وفخماء نسبياً".

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الاعظمي

الدكتور محمد رجب البيومي

تاج محـــــــل

أ ذلك قصر الحب ما أبدع القصـرا ... لعمري لقد سفهت من خاله قبـــرا
أ قبر وفينـــــــان الحدائق يرتمي ... عليه فيكسو وجهه السندس النضرا
أ قبر وأنفاس الأزاهيـــــــر حوله ... تفوح فإني سرت تستروح العطرا
أ قبر ونصاع الرخـــــــــام يلفه ... بأعمدة بيضاء قد رصعت تبـــرا
قباب تحليها الجواهـــــــــر زينة ... تخال بها الأبهـــــاء قد سقفت درا
أهانت كنوز المال في الهند فاغتدت ... **كبعض صخور القبر إذ رصفت صخـرا**
لعمـــــرك ما هانت وقد راح بذلها ... يصوّر وجد القلب في لوحة كبرى
أ نمنحها الحسناء إبان مجـــــدها ... ونحرمها إذ فارقت أوجها قهـــرا
بذلنـــــاه في الأولى تزلف عاشق ... فكيف لعمر الحب يمنع في الأخرى
ضريح يهـــزّ النفس فيض جلاله ... فيهدر جياش الشعور بها هـــدرا
تقاطر جياش النوافيـــــــر ساكباً ... لديه فحاكي مزنة همرت قطـــرا
أخـــــــال هواميها سيول مدامع ... بها مقلة "للكنج" قد ذرفت حسـرى
إذا لألأت شمس النهـــار حياضها ... شهدت لجيناً ناصعاً قد جرى نهـرا
أضاع عليه "شاه جهان" كنـــوزه ... وخال الذي أهـــداه محتقراً نزرا
إذا قاس ما أهـــــدى ببالغ حزنه ... رأى كنزه المبذول لا يبلغ الصفـرا
إذا ازداد حـــــزناً زاد بذلاً كأنما ... يبرّد بذل المال في صدره جمـــرا
يروق له إن ينهض الصرح شامخاً ... فيدرك كل الناس مأساته الحســرى
بلى ربما أوحى له الوهـــــم أنها ... قريرة عين لا تني تبعث الشـــكرا
ترى حظها أوفى الحظوظ فتزدهي ... وتسمو على الأتراب مختالة سكرى
رأت شاهقاً ما شاده قبل قيصـــر ... لذات جمـــال أو تصـدّى له كسرى
إذا قرنت أهرام خوفو وخفـــرع ... به ضؤلمت وزناً وإن خلدت ذكرى

لئن كانت الأهـــــرام ذات جلالة ... فليس بها من رائع الحسن ما أغرى
ولكن تلاقى بالجـــــــلالة رونق ... لـ"تاج محـــــل" فارتقى بهما قدرا
أنيـــــط به عشرون ألفاً من الورى ... يوالونه جهـــــداً، وادّخروا صبرا
لئن أرهق الجور الصريح جموعهم ... لقد ألفت أيامهم ذلك الجـــــــورا
أذاقهم المر المهوّع عاهـــــــــل ... فأجبرهم أن يطعموا مرّه خبـــــرا
وما قاسموه قبل ذاك نعيـــــــــمه ... فيرضى لهم من جــوره قسمة شرا
نأت عنه ليـــــــلاه وطال زمانه ... فكان تراخي عمـــــره ميتة أخرى
فأذعن للجـــــــــلي ابتداء وعاده ... شبيه تحـــدّ للردى زاد فاستبشرى
فصمّم أن يبني ضريحاً مخـــــــلداً ... فلا يستطيع الموت أن يمحو الذكرى
إذا ما رأى الراءون شاهق صرحها ... مضى ذكرها يتلى فتحيا به قســـرا
تكرّ العصـــــــور التاليات وصيتها ... يدوي دوي الرعد كي يسـمع الدهرا
فيعرف رائي قبرها عن فتـــــونها ... أحاديث يشاوالسفر في رصدها السفرا
ألم تشخص الأبصار نحو ضـــيائها ... وقد سفرت في عرس سلطانها بدرا
جمـــــــال يحليه الشبابا فإذا أتى ... إليه نعيم الملك ضاعفة سحـــــــرا
أ لم تختم الأوراق في بعض أمـرها ... فتذكو أريجاً كالصبا لامست زهــرا
أ لم تنطلق كالسهم رأس كتيـــــبة ... قد امتشقت صمصامة واعتلت مهرا
أ لم تك بعد النصر ترنيم محفـــل ... يرجعه شـــــــــدوا فتمثله سكرا
أ لم تمنح الأيتـــــــام قلباً تأصلت ... به نخوة الإســـــــلام فاعتنق البرا
يرون ضـــــــياء الله في بسماتها ... إذا ثغرها بعد النـــــــوال قد افترا
فإن خبلت ذا التاج بعـــــد وفاتها ... فإني أرى هذا الخبـــــال به أحرى
قليل عليه إن يشق ثيـــــــــــابه ... ويلطم كالمجنون منتفضـــــاً ذعرا
أ لم تك خصباً للحياة وبهجـــــــة ... فكيف يصير الكون من بعـدها قفرا
يبيت وعينـــــــاه لنور ضريحها ... فإن جاءه نوم تحاشـــــــاه مزورا
إذا عكس البلور لألأ ســـــــاطع ... توهمها في اللحد قد أشرقت فجـــرا

وإن جاءه نشر الأزاهيـــــر فانحاً تصورها قد أرسلت ذلك النشـــــرا
وإن رفت الأشجار نضجـاً ونضرة يظن صـباها لامس الدوح فاخضرا
خيالات موهـــــــــوم يعلل نفسه بها إذ توالت من مخيـــــــلة تترى
تراخى عليه الدهـــــر حزناً وذلة فقوس منه في كهولته الظهـــــــرا
إلى أن توخـــــــاه الردى فأغاثه وأرخى على مأســـــاة مهجته سترا
لقد كان حتـــــماً أن يفارق حسنها فيخشع حزناً بعـــــــدما تاه مغترّا

الشيخ محمد ناظم الندوي:

تاج محـــــل

لله درّ ما بنـــــــــــاه شاهجهان هو بسمة تعلو على ثغر الزمان
أو زهرة بيضاء تزهو في الجنان أو درة تلمع في جيـد الحسـان
أو دميـــــــــة من مرمر لممثل متأنق في صنعه ومفصّـــــــل
صنـــــــــــع يكاد فنّه يتكلم ببراعة في نحتـــــه أو يبسم
وكأنه فصّ جميـــــــــل أروع في خاتم الأرض يروق ويلمع
هو ماسة حجراً وزهـــر روعة يحار من يرنو إليه حيـــــرة
ويروع منظـــــــره ويخلب لبّه متوسعـــاً حيران يلمس جنبه
وإذا نظرت إليه أول نظـــــرة أكبرته وقلت: أجمـــــل درة
وتقول: صيغ من الضياء رخامه أو فضة بيضـــــاء قام قوامه
كأن من فيه كسته جمـــــــالها وتبرعت له ببعض جـــلالها
حســـناء لارتاح الحبيب بعقلها وبحسنـــــها وولائها وبفضلها
روعاء قد هام المليك بفضـــلها وبخلـقها وبرأيهـــــا وبنبلها
غراء قد ملكت فـــــؤاد حليلها بذكائها ووفائها وجمـــــالها
روّاد آيات الجمـــــــال تراهم يغشونه شوقاً لريّ ظمـــــاهم
وترى هواة الفن في عرصـــاته يصورون القصـــر من جنباته

أعظم بصـــاحب خطة ومصمم ومهندس ذي خبـــــرة وراسم
بقي على عرك الخطوب مباهياً حسن البناء فخامـــــة متحديا
متماسكاً على الزعازع صـــامداً مناغياً زهر الكواكب راصـــدا
متحدثاً من الصروف بما مضـى متعجباً من اختـــلاف ما رأى
نعمى وبؤسى وارتقاء وهبـــوط عزاً وذلاً وارتفاعاً وســـقوط
كم من وضيع ارتقى فوق السهى كم من رفيع قد هوى إلى الثرى
رُبّ كريم صار عبـــــداً للئيم كم من لئيم قد تعلى للنعيـــــم
والقصر تذكار المحبـــة والوفاء ليمثل عهد الحضارة وارتقـــاء
ويذكر عهد التقـــــدم في البناء عهد التأنق في المعيشة بالرخاء
عهـــــد الملوك من سلالة بابر قد خلدوا أسمائهم بمـــــــآثر
بيض الوجـوه مسابقـون إلى العلا عدلاً ونبلاً وسخـــــــاء وندى
المولعين بالجنـــــــان الناضره والغارسين من الزهور العاطره
والرافعين بكل ريع آيـــــــــة من القصور وحففوها جنـــــة
غرسوا الفسائل قطعاً مجـــاوره جميلة المرأى لعين ناظـــــره
ووسطوها للميـــــــــاه البركا يبدي النســـــيم إذا علاها حبكا
شادوا القصور والحصون الشاهقه وبنوا المساجد والقلاع الســامقه
هي آية نذر لدهـــــــر ذي غير وعبـرة كبرى لمن هو ذو بصر

المساهمون في هذا العدد

1. البروفيسور حسين أبو بكر كويا مدوور، عميد كلية اللغة العربية، جامعة كاليكوت، كيرالا، الهند
2. البروفيسور فيضان الله الفاروقي، أستاذ اللغة العربية وآدابها، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، الهند
3. جميل النظام آبادي، كاتب هندي للقصص القصيرة
4. الدكتور أورنك زيب الأعظمي، مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغات العربية والفارسية والأردوية والدراسات الإسلامية، باشا-بافانا، فيسفا-باراتي، شانتينيكيتان، بنغال الغربية، الهند
5. الدكتور محمد رجب البيومي، رئيس تحرير مجلة الأزهر وعضو مجمع البحوث، من أبرز أعماله "ظلال من حياتي".
6. الدكتور وارث المظهري، مدير تحرير، مجلة "ترجمان الإسلام الجديد" الشهرية الصادرة عن دلهي الجديدة.
7. الدكتور يسري زيدان، أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ووكيل كلية دار العلوم للدراسات العليا والبحوث، جامعة القاهرة
8. رافعة إكرام، قسم اللغات العربية والفارسية والأردوية والدراسات العربية، باشا-بافانا، جامعة فيسفا-باراتي، بنغال الغربية، الهند
9. رضوان أحمد نور محمد، باحث، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لعل نهرو، نيو دلهي
10. سائرة بانو، كاتبة هندية للقصص القصيرة
11. الشيخ أمين أحسن الإصلاحي من علماء الهند والباكستان المشهورين، تلمذ للإمام عبد الحميد الفراهي وعمل كمدير تحرير مساعد لجريدة "مدينة" كما عمل في مجلتي "غنجة" (Ghunchah: النورة) و"ستش" (Sach: الصدق) لمدة سنتين وكذا درّس في مدرسة الإصلاح. ساهم الشيخ في تأسيس الدائرة الحميدية وأصدر مجلة "الإصلاح" الشهرية. وعندما نادى العلامة المودودي بجماعته لحقه في 1958م مرتحلاً إلى الباكستان ثم تركه في 1959م وأصدر مجلة شهرية باسم "ميثاق" تركها بعد مدة وأصدر مجلة شهرية أخرى باسم "تدبر" قائماً بتأسيس "إداره تدبر قرآن" (معهد التدبر في الفرآن) الذي أصبح فيما بعد "إداره تدبر قرآن وحديث" في 1980م. من أهمّ مؤلفاته "تفسير تدبر قرآن" و"حقيقة توحيد وشرك"

و"حقيقة نماز" (حقيقة الصلاة) و"تزكية نفس" (تزكية النفس) و"إسلامي رياست" (تصور الدولة الإسلامية). كان عالماً كبيراً أنفق كافة أوقاته في التحرير والخطابة

12. الشيخ بدر جمال الإصلاحي، أستاذ اللغة العربية وآدابها، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، ولاية أوترابراديش، الهند
13. الشيخ محمد ناظم الندوي (ت يونيو 2000م) من علماء الهند وأدبائها المشهورين، له مؤلفات بالأردوية بجانب ترجمات عربية لبعض الكتب الأردوية بما فيها "الرسالة المحمدية" و"النظام الاقتصادي للإسلام" و"حاضر مسلمي الهند وغابرهم". ديوان شعره ومقالاته يسمّى "باقة الأزهار"
14. صاحب عالم الأعظمي، باحث، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر
15. العلامة أبو محفوظ الكريم معصومي (ت 2009م)، كاتب ومحقق وشاعر كبير، له مساهمات جليلة في هذه المجالات. من أشهر مجموعات مقالاته "بحوث وتنبيهات".